Algernon Blackwood | The Willows | The Wendigo | ترجمات عالمية

ألجرنون بلاكوود

مكتبة ٩٨٣

الصفصاف و الوندیجو

ترجمة: خالد فاروق

المحروسة

نوفيلاتين

الصَّفْصَافُ و الوِنديجو

عنوان الكتاب: الصَّفْصَافُ و الوِنديجو
The Willows -The Wendigo
المؤلف: ألجِرنون بلاكوود Algernon Blackwood
ترجمة: خالد فاروق
مراجعة لغوية: محمود شرف





قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 28432157 02 002

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ١٥١٥٢/ ٢٠٢١
الترقيم الدولى: 978-977-313-860-8

نوفيلاتين

مكتبة | سُر مَن قرأ | 983

الصَّفْصَافُ
و
الوِنديجو

ألجِرنون بلاكوود

ترجمة

خالد فاروق



الطبعة الأولى 2021



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

بلاكوود، ألجِرنون، 1869-1951

الصَّفْصَافُ و الوِنديجو/ ألجِرنون بلاكوود؛ ترجمة: خالد فاروق.-ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2021

160 ص؛ 14.5×21.5 سم

تدمك 978-977-313-860-8

1 - القصص الانجليزية

أ- فاروق، خالد (مترجم)

ب- العنوان

823

رقم الإيداع 2021/15152

الصَّفْصَافُ

١



بعـد أن تغـادر ڤيينـا، وقبـل أن تبلـغ بودابسـت بمسـافةٍ طويلـة، يدخل الدانـوب منطقـةً مـن العُزلَـة والوَحشَـة الفريدَتَـيْن، حيـث تتـوزَّع مياهُـه عـلى كل الجوانـب، غـير عابِئَـةٍ بقنـاةٍ رئيسـية، وتصبـح البلـد مُسـتَنقَعًا لأميـالٍ وراء أميـال، مُغطَّـاة ببحـر واسـع مـن شُـجَيرات الصفصـاف الواطئة. في الخرائـط الكبـيرة تصطبـغ هـذه البقعـة المهجـورة بلـونٍ أزرق مزغـب، يـزداد شـحوبًا كلـما ابتعـدَت عـن الضفـاف، وقـد تعبرهـا كلمـة SUMPFE -وتعنـي: "المسـتنقعات"- بأحـرفٍ كبـيرة مُبَعـثَرة.

في الفيضـان المرتفـع تكـون هــذه المسـاحة الشاسـعة مــن الرمـال، وفـرش الحـصى، والجُـزُر المكسـوَّة بالصفصـاف، مُغطَّـاة حتـى قِمَّتِهـا تقريبًـا بالميـاه، لكـن في المواسـم العاديـة تنحنـي الشـجيرات وتُخَشـخِشُ في الريـح الحُـرَّة، عارِضَـةً أوراقهـا الفضيـة لضـوء الشـمس، في سِـهلٍ دائـمِ الحَرَكَـة، مدهـش الجـمال. هـذا الصفصـاف لا يحظـى أبـدًا بمهابَـةِ الأشـجار، ليـس لديـه جـذوعٌ صُلبَـة، يبقـى مجـرَّدَ شُـجَيراتٍ متواضِعَـة، ذات قِمَـمٍ مُـدوَّرَة

وخطـوط خارجيـة ناعمـة، تتمايَـل عـلى سـيقان اسـطوانية تسـتجيب لأقـلِّ ضَغـطٍ مـن الريـح، طريَّـة كـما العُشـب؛ لـذا فإنهـا تتحـرَّك باسـتمرارٍ حتـى أنهـا تعطـي، بطريقـةٍ مـا، الانطبـاع بـأن السَّـهل بأجمعـه يتحـرَّك، وأنـه حـيٌّ. حيـث ترسـل الريـح مَوجـاتٍ تعلـو وتهبـط فـوق السـطح بأكملـه، موجـات مـن أوراق الشـجر بـدلًا مـن موجـات الماء، عُبـاب أخـضر كعُبـاب البحـر، أيضًـا، حتـى تنقلـب الأغصـان وترتفـع، ثـم تَبيَـضُّ كالفضَّـة، عندمـا تسـتدير جوانِبُهـا السُّـفلَى للشَّـمس.

سـعيدًا بـأن يُفلِـتَ مـن نطـاق سـيطرة الضِّفـاف الصَّارِمَـة، يتسـكَّع الدانـوب هنـا، كيفـما يشـاء، بـين شـبكة القنـوات المُعقَّـدة التـي تقطـع الجزيـرة، في كلِّ مـكان، بـدروبٍ مُتَّسِـعَة تتدفَّـق فيهـا المياه بصـوتٍ هـادرٍ، صانعـةً دوَّامـات وتيَّـاراتٍ مُعاكِسَـة ومُنحَـدَراتٍ مُزبِـدَة، متكسِّرةً عـلى الضفـاف الرمليـة، جارِفَـةً كُتَـلًا مـن الشـاطئ وأجـمات الصفصـاف، مُشـكِّلَةً عـددًا غـير محـدود مـن الجُـزُر الجديـدة التـي تتغـيَّر يوميًّـا مـن حيـث الحجـم والشـكل، ويكـون لهـا -في أحسـن أحوالهـا- حيـاةٌ غـير مُسـتقرَّة؛ إذ يمحـو موسـم الفيضـان أيَّ وجـودٍ لهـا.

في الحقيقـة، يبـدأ هـذا الجُـزءُ السـاحر مـن حيـاة النَّهـر بعـد مغـادرة "برسـبورج" بوقـتٍ قَصـيرٍ، ونحـن وصلنـا إليـه، عـلى مَتْنِ قاربنـا الكنـدي، ومعنـا خيمـةٌ غَجَـرٍ ومِقـلاة، في ذروة الفيضـان المرتفـع في منتصـف يوليـو تقريبًـا. في ذلـك الصبـاح نفسـه، عندمـا كانـت السـماء تَصطَبِـغُ بالحُمـرَة قبـل شروق الشـمس، انْسَـللنا مُسرِعـين عـبر ڤيينَّـا التـي كانـت بَعـدُ نائِمَـةً، تاركينهـا بعـد بضـع سـاعاتٍ مُجـرَّدَ بُقعَـةٍ مـن الدخـان، عنـد الأفـق، في مواجهـة تِـلال "فاينرفالـد" الزرقـاء. تناوَلنـا إفطارنـا جنـوب "فيشرامنـد" تحـت أجمَـةٍ مـن أشـجار البتـولا كانـت تصطخـب في الريـح، وانطلقنـا بعـد ذلـك فـوق التَّيَّـار العنيـف مجتازيـن "أورث" و"هاينبـورج"، و"بترونيـل" (حيـث قلعـة "كارنونتـوم" الرومانيـة القديمـة التـي تنسـب إلى "ماركـوس أوريليـوس")، وهكـذا تحـت مرتفعـات "زيلسـن" العابِسَـة عـلى سـفحٍ

مـن سـفوح جبـال "الكاربثيـان"، حيـث ينسـلُّ وادي "المـارش" بهـدوء مـن اليسـار ويعـبر الحـدود بـين النمسـا والمَجَـر.

الانطـلاق بسُرعَـةِ اثنَـيْ عـشر كيلـو مـترًا في السـاعة سرعـان مـا أخذنـا بعيـدًا داخـل المَجَـر، والميـاه الموحِلـة -العلامـة الأكيـدة للفيضـان- جنحـت بنـا عـلى العديـد مـن فُـرُشِ الحَـصَى، وأدارتنـا مثـل الفِلِّينـة في العديـد مـن الدَّوَّامـات العنيفـة المُفاجِئـَة قبـل أن تظهـر أبـراج برسـبورج (بالمجريَّـة: بـوزوني) في عنـان السـماء، وانطلـق القـارب بأقـصى سُرعَـةٍ بعـد ذلـك، وهـو يتقافَـزُ كحصـانٍ مُفعَـمٍ بالنَّشـاط، تحـت الأسـوار الرماديـة، ومَـرَّ بأمـان مـن السلسـلة الغارقـة للعبَـارة "فليجنـد بـرووك"، ودار بحـدَّة إلى اليسـار حـول الزاويـة، وخـاض عـلى زَبَـدٍ أصفـرَ في وحشـة الجُـزُر وضفـاف الرمـال، ومـن ورائهـا أرضُ المسـتنقعات، أرضُ الصَّفصـاف.

حـدث التَّغيُّر بشـكل مفاجـئ، كـما يحـدث عندمـا تتـوالى سلسِـلَةٌ مـن الصُّـوَر السـينمائية لشـوارعِ بَلـدَةٍ مـا، وتتحـوَّل مـن دون سـابِقِ إنـذارٍ إلى مشـهد بُحَـيرةٍ وغابـة. دخلنـا أرض الإقفـار عـلى أجنحـة السرعـة، وخـلال أقـلَّ مـن نصـف سـاعة لم يكـن هنـاك لا قـارَبٌ ولا كـوخُ صيـدٍ ولا سَـقفٌ أحمـر، ولا أي علامـة واحـدة عـلى الحضـارة والعُمـران الإنسـانيَّيْن عـلى مـدى البـصر.

إن الشـعور بالبُعـد عـن عالَـمِ البَـشَر، والعزلـة التامَّـة، وسـحر عـالم الصفصـاف الفريـد هـذا، والريـاح، والميـاه- ألقَـت جميعهـا بتعويذَتِهـا علينـا بشـكلٍ فـوريٍّ، حتـى أننـا اتفقنـا مـع أَحدِنـا الآخـر، -بسـخرية- عـلى أنـه كان يتعـيَّن علينـا بالقانـون أن نحمـل جـواز سـفر مـن نـوعٍ خـاصٍّ يسـمح لنـا بالدخـول، وأننـا -بقـدرٍ مـن الجـرأة- قـد أتينـا إلى مملكـة العَجَـبِ والسِّـحر الصغـيرة المسـتقلَّة، مـن دون أن نطلـب إذنًـا، المملكـة التـي حُجِـزَت لصالـح آخريـن قـد امتلكـوا الحـقَّ فيهـا، مـع تحذيـراتٍ،

غير مكتوبة، للدُّخَلاء، في كلِّ مكان، يكتشفها أولئك الذين قد امتلكوا الخيال.

رغم أن الوقت لم يزل مُبكِّرًا في فترة ما بعد الظهر، إلَّا أن الضربات المستمرَّة للريح العاتية جعلتنا نشعر بالتعب؛ فبدأنا نتطلَّع -من فَوْرِنا- باحثين عن بُقعَةٍ مُناسبةٍ للتَّخييم خلال الليل. لكن طبيعة الجُزُر المُحيِّرة جعلت من الرُّسُوِّ أمرًا صعبًا. حملنا الفيضان الدَّوَّاميُّ إلى الشاطئ، ثم جَرَفَنا بعيدًا مرَّةً أخرى، ومَزَّقَت فروعُ الصَّفصاف أيدينا عندما تَشبَّثنا بها لإيقاف القارب، وسحبنا العديد من الياردات من الضِّفَّة الرملية، إلى الماء، قبل أن نندفع أخيرًا إلى المياه الخلفية مع هَبَّةٍ جانبيَّةٍ قوية من الريح، وتَمَكَّنَّا من إرساء مُقدِّمَة القارب وسط غيمَةٍ من الرذاذ. استلقينا بعدها على الرمال الصفراء الساخنة، ونحن نلهث ونضحك بعد الإجهاد الذي نال مِنَّا، مُستَتِرين من الريح، ومن فوقنا سماءٌ زرقاءُ صافية، في السعير المتَّقِد للشَّمس الحارقة، وجيش هائل من شُجَيرات الصفصاف الراقصة الصائحة يُطبِقُ علينا من جميع الجوانب، وهو يلتمع بالرَّذاذ، ويُصفِّق بألف يَدٍ صغيرة وكأنه يُهنِّئنا على جهودنا التي كُلِّلَت بالنجاح.

- يا له من نهر!

قلتُها لصاحبي، وأنا أفكِّر في طول الطريق الذي قد قطعناه من المنبع في الغابة السوداء، وكيف كان مُرغَمًا في كثير من الأحيان أن يخوض ويدفع القارب في مياه الأعالي الضَّحلَة في بداية شهر يونية.

- الأمر لا يحتَمِلُ المزيدَ من الهُراء الآن. أليس كذلك؟

قالها وهو يَجُرُّ القارب ليُقرِّبَه أكثر من الأمان في أعلى الرمال، ثم راح يُعِدُّ نفسه لقيلولة. استلقَيتُ إلى جانبه، سعيدًا ومُطمئِنًّا في حمَّامٍ من عناصر الطبيعة: الماء والريح والرمل ونار الشمس الهائلة، مُفكِّرًا في الرحلة الطويلة التي باتت وراءنا، والمسافة الكبيرة الممتدَّة أمامنا

حتى البحر الأسود، وكم كنتُ مَحظوظًا أن يكون لي رفيقُ سَفَرٍ مُبهِج وساحِرٍ مثل صديقي، السويدي.

لقد قُمنا معًا بالعديد من الرحلات المُشابِهة، لكن الدانوب -أكثر من أي نهر آخر عرفته- أثارَ إعجابَنا بحيويَّتِه منذ اللحظة الأولى، من مَدخَلِه الصغير الفائر إلى العالمِ وسط حدائِقِ غابات الصنوبر في "دوناويشنجن"، وحتى هذه اللحظة عندما بدأ يمارس لعبة النهر الكبير بأن يُضيِّعَ نفسه وسط المستنقعات المهجورة، غير مُراقَبٍ، وغير مُقيَّدٍ، لقد بدا لنا الأمر وكأننا نُتابِعُ نُموَّ كائنٍ حَيٍّ ما. كان هادِئًا في البداية، لكنَّه -بتنمية رغباته العنيفة، فيما بعد، عندما أصبح واعيًا بروحه العميقة- تَدَفَّقَ، ككائنٍ سائِلٍ ضَخمٍ، خلال كُلِّ البلدان التي مررنا بها، حامِلًا قاربنا الصغير على كتفيه الجبَّارَتَيْن، يتلاعب بنا في قسوة في بعض الأحيان، ومع ذلك، كان وَدودًا وحَسَنَ النِّيَّة على الدَّوام، حتى أننا أصبحنا، في النهاية، نرى فيه ذاتًا عظيمةً، لا محالة.

كيف -حقًّا- يكون الأمر على غير ذلك، وقد أخبرنا الكثير عن حياته السرية؟ سمعناه في الليل، عندما رقدنا في خيمَتِنا، يُغنِّي للقمر، مُطلِقًا تلك النغمة الغريبة ذات الصفير، التي تُميِّزه، والتي يُقال إنها ناجمة عن الاندفاع السريع للحصى على طول مَجراه، كبيرة هي سرعته المندفعة. عرفنا -أيضًا- صوت دوَّاماتِه المُغرغِرَة، تفور فجأةً بالفُقَّاعات على سطحٍ كان هادِئًا تمامًا من قبل. وخرير مياهه الضَّحلَة ومنحدراته السريعة، وهديره الثابت المنتظم تحت جميع أصوات السطح الخالِصَة، والتكسُّر المُتواصِل لمياهه المُثلَّجة على الضفاف. كيف نهض وصاح عندما سقط المطرُ على صفحته! وكيف دوَّت ضِحكَتُه عندما هَبَّت الريح في عكس اتجاه التيار، وحاوَلَت كَبحَ سُرعَتِه المُتزايِدَة! عرفنا أصواته ونبراته جميعها، انحداره وإرغاءه، ورَشَاشَه غير الضروري على الجسور، وتلك الثرثرة الواعية بذاتها عندما كانت هناك تِلالٌ ليتطلَّع إليها، والكرامة الجريحة لخطابه عندما مَرَّ

عبر البلدات الصغيرة، كانت جادَّةً لدرجة لا تسمح بالسخرية، وكل هذه الهمسات الحلوة الخافتة عندما قبَضَت عليه الشمسُ بإحكامٍ في منحنًى بطيءٍ ما، وصَبَّت أشِعَّتَها عليه حتى تَصاعَدَ البُخار.

كان زاخِرًا بالحِيَل كذلك في حياته المُبكِّرة قبل أن يعرفه العالَمُ الكبير، كانت هناك أماكِنُ عند روافده وسط الغابات السوابية، حين لم تكُن الأقاويل حول مصيره قد بلَغَته بَعدُ، وحيث اختار أن يختفي عبر ثقوبٍ في الأرض، ليظهر مرَّةً أخرى على الجانب الآخر من تلال الحجر الجيري، ويدشن نهرًا جديدًا باسمٍ آخر، مُخلِّفًا كذلك قدرًا قليلًا جدًّا من الماء في مجراه الذي تَعيَّن علينا أن نَتسلَّقَه إلى الخارج، وأن نخوض ونَدْفَعَ القارب عبر أميالٍ من المياه الضَّحلة.

كانت المُتعَةُ الرئيسية -في تلك الفترة المبكِّرة من شبابه العابِث- أن يتوارى، مثل الثعلب "برِر"[1]، قبل وقتٍ قَصيرٍ من قدوم الروافد المضطربة الصغيرة من جبال الألْب لتنضمَّ إليه، وأن يرفض الاعتراف بها عندما تصل، إلَّا أنه يجري معها جنبًا إلى جَنبٍ لأميال، بخطِّ تقسيمٍ مُحدَّدٍ بوضوح، ومناسِيبَ شديدةِ التَّبايُن، يرفض الدانوب بشكلٍ قاطِعٍ أن يعترف بالوافِد الجديد.

في جنوب "باسُّو" أقلَعَ -بشكلٍ ما- عن هذه الحيلة بالذات، حيث يتدخَّل نهر "الإن" بقوَّةٍ هادِرَةٍ يستحيل تَجاهُلها، وهكذا يُزاحِم ويزعج النهر الأب حتى أنهما يجدان مكانًا لهما بصعوبة في المضيق الطويل الملتوي الذي يأتي لاحِقًا، ويُدفَعُ الدانوب في كلِّ الاتجاهات بمواجهة الجروف، ويُجبر على أن يزيد من سُرعَتِه بموجاتٍ كبيرة وكثير من الاندفاع جيئةً وذهابًا بغرض العبور في الوقت المناسب. انزلق قاربنا أثناء المعركة من فوق كتفيه واستقرَّ على صدره، وعاش أكثَرَ لحظات حياته إثارةً وسطَ الأمواج المُتصارِعَة، لكن نهر "الإن" لَقَّن

---

(1) شخصيَّة خياليَّة من الحكاية الشعبية "العم ريموس".

النَّهـرَ العجـوز درسًـا، فلـم يَعُـد مـن بعـد "باسُّـو" يتظاهـر بتجاهُـلِ الوافِديـن الجُـدُد.

كان هـذا قبـل عـدَّة أيَّـامٍ، بالطَّبـع، وقـد أصبحنـا مـن حينهـا نعـرف جوانِـبَ أخـرى مـن الكائِـنِ العظيـم، وبِبُـطءٍ شـديدٍ، ارتحـل عـبر سـهول القَمـح الباڤاريـة في "شـتراوبينج"، تحـت شـمس يونيـة المُتوهِّجـة، حتـى أنـه كان بوسـعنا أن نتخيَّـل المياه وهـي تشـغل بضعَ بوصـاتٍ فقـط مـن السـطح، بينـما هنـاك بالأسـفل كان يتحـرَّك جيـشٌ كامـل مـن حوريَّـات المـاء، مُسَربَلاتٍ بمـا يُشـبِه عبـاءَةً حريريَّـة، يَمـرُرنَ بهـدوء، غـير مرئيَّـاتٍ، وقـد اتَّخَـذنَ طريقَهُـنَّ إلى البحـر، في تـأنٍّ بالـغٍ كذلـك؛ مَخافَةَ أن يُكتَشَـفنَ.

كثـيرًا أيضًـا مـا سـامحناه إكرامًـا للصَّداقـة التـي نشـأت بينـه وبـين الطُّيـور والحيوانـات التـي تـأوي إلى الشـواطئ. تصطَـفُّ طيـورُ الغـاق عـلى ضفـاف الأماكـن المُوحِشَـة في صفـوفٍ تُشـبِه أسـيِجَةً سـوداءَ قصـيرة. وتتزاحَـم الغِربـان الرَّماديَّـة فـوق فُـرُشِ الحـصى، وتقـف طيـورُ الَّلقْلَـق لتصيـد في آفـاق الميـاه الضحلـة المُتشـعِّبة بـين الجُـزُر، والصقـور والبجـع وطيـور المسـتنقع عـلى اختـلاف أنواعهـا، تمـلأ الهـواء بالشَّـدوِ والصَّرخـات النَّزِقـة والأجنحـة اللمَّاعـة، كان مـن المسـتحيل أن نشـعر بالانزعـاج مـن نـزواتِ النَّهـر بعـد رؤيتنـا لغـزالٍ يقفـز إلى المـاء، عنـد شروق الشـمس، فيُثـير الرَّشَـاشَ ويسـبح عابِـرًا مُقدِّمَـةَ القـارب، وكثـيرًا مـا رأينـا ظبـاءً صغـيرةً تُحـدِّق فينـا مـن الدَّغْـل، أو نظرنـا مباشرة في العينـين البُنِّيَّتَـيْن لوعـلٍ، عندمـا كُنَّـا نندفـع بأقـصى سرعـةٍ حـول زاويَـةٍ وندخـل منطقـةً أخـرى مـن النهـر. الثعالـب، أيضًـا، سـكنت الضفـاف في كلِّ مَـكانٍ، تتجـوَّل بِخِفَّـةٍ بـين الأخشـاب الطَّافِيَـةِ وتختفـي فجـأةً لدرجـةٍ يسـتحيل معهـا أن نفهـم كيـف أَمْكَنَهـا ذلـك.

لكـن الآن، بعـد مُغادَرَتِنـا لبريسـبورج، تَغـيَّر كُلُّ شيء إلى حَـدٍّ مـا، وأصبح الدانـوب جـادًّا عـلى نحـو أكـبر، وتوقَّـف عـن العَبَـث. كان في منتصـف

الطريق إلى البحر الأسود، مُقبِلًا على مسافة، يبدو أن مُعظَمَها ينتمي لبلدان غريبَةٍ أخرى، حيث لن تكون أيَّة حِيَلٍ مفهومةً أو مَسموحًا بها. لقد أصبح ناضِجًا فجأةً، واستدعى احترامنا، بل وحتى تبجيلنا. تَفرَّق إلى ثلاثة أفرع، لشيء واحد، لن يلتَئِمَ ثانيةً إلَّا على بُعْدِ مائةِ كيلو متر جنوبًا، وبالنسبة للقارب لم تَكُن هناك أيَّة مُؤشِّرات على الفرع المُزمَع اتِّباعُه.

الضَّابِطُ المجري، الذي التقيناه في مَتجَرِ برسبورج بينما كُنَّا نشتري المُؤنَ، قال لنا:

- إذا التزمتم قناةً جانبيَّةً، قد تجدان نفسَيْكُما، عندما يَنحَسِرُ الفيضان، على بُعْدِ أربعين ميلًا من أي مكان، مُنعَزِلين ومعدومي الحيلة، وربما تتضوَّران جوعًا بسهولة. ليس هناك بَشَرٌ، ولا مزارِعُ، ولا صيَّادون. أُحذِّرُكم من مواصلة الرحلة. لا يزال النهر يرتفع أيضًا، وهذه الريح سوف تزيد.

على الأقلِّ، لم يُفزِعنا احتمالُ ارتفاع النَّهر، لكنَّ مسألةَ أن نُترَكَ معزولين ومعدومي الحيلة على إثْرِ انحسارٍ مفاجئٍ للمياه قد يكون أمرًا خطيرًا، وبالتالي، فقد دبَّرنا مَخزونًا إضافيًّا من المؤن. من ناحِيَةٍ أخرى، تحقَّقت نبوءةُ الضَّابط، فعَصَفَت الرِّيحُ بسماءٍ صافِيَةٍ للغاية، وتزايَدَت باطِّرادٍ حتى بلغت مَنزِلَةَ عاصِفَةٍ غربيَّة.

كان الوقت مُبكِّرًا عن المُعتاد عندما خَيَّمنا، كانت الشمس على بُعدٍ يزيد عن السَّاعة أو ساعَتَيْن من خَطِّ الأفق، تركتُ صديقي نائِمًا، لا يزال، على الرِّمال الساخنة، وتجوَّلتُ مُجريًا فَحصًا عابِرًا للنُّزُل الذي يأوينا، وجَدتُ أن مساحة الجزيرة تَقِلُّ عن الفدَّان، ضِفَّة رَمليَّة خالِصَة ترتفع ما يقرب من قَدَمَيْن أو ثلاثٍ فوق مستوى النهر. الطَّرف البعيد، باتِّجاه غروب الشمس، كان مُغطًّى برذاذ طائِرٍ ساقته

العاصِفَةُ الرَّهيبَـة مـن عـلى قِمَـم الأمـواج المُتكسِّرة. كانـت الجزيـرة ذات شـكل مُثلَّـثٍ، ولهـا قِمَّـةٌ تُـشرِفُ عـلى المَجـرَى.

وقَفَـت هنـاك لدقائِـقَ عَديـدَةٍ، أراقـب الفيضـانَ القُرمـزيَّ الجامـح وهو ينقـضُّ بهديـرٍ مُـدَوٍّ، مُندَفِعًـا بأمواجـه إلى الضِّفَّـة كـما لـو كان يهـدف إلى اجتياحهـا بشـكلٍ كامِـل. قبـل أن يـدور مُدوِّمًـا في تيَّارَيْـن مُزبِدَيـن عـلى كِلا الجانِبَيْن. بـدا أن الأرض تَهتـزُّ مـع الصَّدمَـةِ والاندفـاع، بينـما عَمِلَـت الحركـةُ المحمومـة لشُـجَيراتِ الصَّفصـاف، حيـنـما انصبَّـت الرِّيـحُ عليهـا، عـلى تفاقُـمِ الوَهـمِ العجيـب بـأنَّ الجزيـرة نَفسَـها تتحـرَّك بالفِعـل.

كان بإمـكاني أن أرى النَّهـرَ العظيـم ينحـدر تجاهـي مـن أعـلى، لمسـافَةِ ميـلٍ أو اثنـين، كأنَّنـي أتطلَّـع عالِيًـا لمُنحَـدَرِ تَـلٍّ مُنزَلِـق، أبيـض ذَي زبـد، يَتقافَـزُ في جميـع الأنحـاء ليُظهِـرَ نفسـه للشَّـمس.

كانـت بقيَّـة الجزيـرة مُغطَّـاةً بالصَّفصـاف عـلى نَحـوٍ كثيـفٍ بدرجـة لا تجعـل مـن السَّـير أمـرًا مُمتِعًـا. لكننـي قُمـتُ بالجولـة، عـلى الرغـم مـن ذلـك. عنـد الطـرف الأسـفل تغـيَّر الضَّـوء، بالطَّبـع، وبـدا النهـرُ قاتِمًـا وغاضِبًـا. وحدهـا ظهـور الأمـواج الطائـرة كانـت مَرئِيَّـةً، مُوشَّـاةً بالزَّبَـد، ومدفوعـةً بقـوَّةٍ مـن قِبَـل نَفثـات الريـح الهائِلـة التـي باغَتَتهـا مـن الخلـف. كان النهـرُ مَرئيًّـا لمسـافةٍ تَقِـلُّ عـن الميـل، يتدفَّـق جيئـةً وذهابًـا بـين الجُـزر، ثـم يختفـي بعـد ذلـك في اجتيـاحٍ هائـل لأشـجار الصفصـاف، التـي تحلَّقَـت حولـه كقطيـعٍ مـن كائنـات بَشِـعَة، مـن قبـل التاريـخ، تحتشـد بالأسـفل لتـشرب. جعلتنـي أفكِّـر فيـما يشـبه كُتَـلًا إسـفنجيَّةً عملاقـةً امتصَّـت النهـر إلى داخلهـا. لقـد تسببت في اختفائـه عـن الأنظـار. كانـت تتجمـع هنـاك بأعـدادٍ هائلـة.

كان مَشـهدًا مُؤثِّـرًا عـلى الإجـمال، بعُزلَتِـه المُطلَقَـة، وإيحاءاتـه العجيبة، وعندمـا نظـرت، بإمعـانٍ وتدقيـقٍ، بـدأ شـعورٌ مُتفـرِّدٌ يتحـرَّك في مـكانٍ مـا

مـن أعماقـي. في خِضَـمٍّ ابتهاجـي بالجَـمالِ الـبَرِّيِّ، تَسـلَّل إليَّ شـعورٌ غريـب بالانزعـاج، غـير إرادي وغـير مُـبرَّر، يـكاد يكـون تحذيـرًا.

إن نهـرًا فائِضًـا، ربمـا يوحـي دائِمًـا بـشيء مـن سـوء الطالـع، العديـد مـن الجُـزُر الصغـيرة التـي رأيتُهـا بعينـيَّ مـن المُحتَمَـلِ أن تُمحـى بحلـول الصبـاح، هـذا الفيضـانُ الهـادِر، الـذي لا يُقـاوَمُ، لمـس عنـدي شـعورًا بالرَّهبَـة، كنـت واعِيًـا -مـع ذلـك- بـأن عـدم ارتياحـي يقـع أعمـقَ كثـيرًا مـن مشـاعر الرَّهبـة والعَجَـب. لم يكـن الأمـر مُتَعلِّقًـا بمـا شـعرتُ بـه، وليس لـه دَخـلٌ مُباشِرٌ بقـوة الريـح الدَّافِعـة، بهـذا الإعصـار المُـدوِّي الـذي يـكاد أن يطيـح ببضعـة أفدِنَـةٍ مـن الصَّفصـاف في الهـواء، ويَذروهـا كالقَـشِّ فوق المنظـر الطبيعـي. كانـت الريـح تسـتمتع ببسـاطَةٍ، حيـث لا شيء يـبرز لهـا مـن المنظـر الطبيعـيِّ المُسـطَّح ليوقِفَهـا، كنـت عـلى وعـي بمشـاركتي في لعبتهـا الكبـيرة بنـوعٍ مـن الإثـارة المُمتِعَـة. مـع ذلـك، لم يكـن للريـح دَخْـلٌ في هـذا الشـعور المُسـتَجدِّ. كان شـعور الكَـرب الـذي عانَيتُـه غامِضًـا، حَقًّـا، لدرجـةٍ اسـتحال عـليَّ معهـا أن أتتبَّعـه حتـى مَصدَرِه، وأن أتعاطـى معـه وفقًـا لذلـك، عـلى الرغـم مـن أننـي كنـتُ مُنتَبِهًـا بشـكلٍ مـا إلى أن للأمـر علاقـةً بـإدراكي لضآلتنـا التامَّـة إزاء هـذه القُـوَّة المُفرِطَـة لعناصر الطبيعـة مـن حـولي. كذلـك كانـت لـه علاقـة بالنهـر بالِـغِ النُّمـوِّ، تلـك الفكـرة المُؤرِّقـة الغامضـة بأننـا بشـكلٍ مـا قـد عبثنـا مـع قـوى الطبيعـة العظيمـة هـذه، والتـي نقـف عاجزيـن أمـام قُدرَتِهـا في كل سـاعة مـن سـاعات الليـل والنهـار. في تلـك اللحظـة، كانـت مُنهَمكـة في اللعـب مـع بعضهـا البعـض، بصـورة عملاقـةٍ، حَقًّـا، وكان المنظـرُ فِتنـةَ الخيـال.

لكـن بـدا لي أن مشـاعري -بقـدرِ مـا أسـتطيع أن أفهمهـا- تَرتَبِطُ بشـكل أكـثر تحديـدًا بشُـجَيرات الصَّفصـاف، بهـذه الفداديـن تلـو الفداديـن مـن الصَّفصـاف، المُتزاحِـم، الـذي ينمـو هنـاك بكثافَـةٍ شَـديدة، مُحتَشِـدًا في كل مـكانٍ تسـتطيع العَـينُ أن تَبلُغَـه، ضاغِطًـا عـلى النهـر كـما لـو كان يخنقُـه،

مُصطفًّا تحت السماء في تشكيلٍ كثيفٍ لأميالٍ وراءَ أميال، يُراقِبُ، ينتظر، يتنصَّت.

وبمعزِلٍ كامل عن عناصر الطبيعة، ربط الصفصاف نفسه بانزعاجي، على نحوٍ بارع، مُهاجِمًا العقلَ بشكلٍ مُخاتِلٍ إلى حَدٍّ ما، بفِعْلِ أعداده الهائلة، وساعِيًا -بطريقةٍ أو بأخرى- إلى تجسيد قُوَّةٍ جديدة وجبَّارة أمام الخيال، هي فوق ذلك، ليست قوَّةً وديَّةً تمامًا بالنسبة لنا.

بالطَّبع، لم تفشل التَّجلِّيات الكبرى للطبيعة أبدًا في إثارة العجب، بطريقةٍ أو بأخرى، وكنتُ معتادًا على أَمزِجَةٍ من هذا النوع: رَهْبَة الجبال، ورُعْبِ المُحيطات، بينما يمارس غموضُ الغابات العظيمة سِحرَه الخاصَّ. لكن كل هذا يرتبط، بطريقةٍ ما، على نحوٍ وثيق، عند نُقطَةٍ أو أخرى، بحياة البشر وخبرتهم. يحرِّك مشاعِرَ مفهومةً، حتى وإن كانت مُنذِرَةً. تميل إلى التبجيل بشكل عام.

مع هذا العدد الوافر من شُجَيرات الصَّفصاف، كان ما شعرتُ به -على أيِّ حالٍ- شيئًا مختلفًا كثيراً. انبعث منها بعضُ العِطر فحاصر القلب. استيقظ شعورٌ بالرَّهبة، حقًّا، لكنها رهبة لَمَسَت مكانًا ما برُعبٍ غامِض. صفوفها المتراصَّة، التي تزداد قَتامَةً في كل مكان من حولي كلَّما تَعمَّقَت الظِّلال، مُتحرِّكَةً مع الرِّيح بعُنفٍ لا يخلو من نعومة، أيقَظَت بداخلي الخاطِرَ الغريب وغير المريح بأننا قد تخطَّينا حدودَ عالَمٍ غريب، عالم، كُنَّا دُخلاءَ عليه، حيث لم نكن مَدعوِّين أو مُرحَّبًا بنا للبقاء فيه، وحيث ربَّما نكون قد خُضنا في مَخاطِرَ جَسيمَةٍ، إن هذا الشعور -على كُلِّ حالٍ- وبالرغم من أنه لم يُسفِر عن حقيقته الكاملة بالتحليل، إلَّا أنه لم يُكدِّرني في حينه بالإحساس بالتهديد. ومع ذلك فإنه لم يَدَعْني هانِئَ البال قطُّ، حتى خلال الأشغال شديدة العملية مثل تنصيب الخيمة في إعصار الريح وإعداد النار لإناء

اليخنـة. لقـد بقـي، بالقـدر الـكافي ليُسـبِّب الإزعـاجَ والتَّشـوُّش، وليسـلب أكـثر المُخيَّـمات إمتاعًـا قـدرًا كبـيرًا مـن سـحرها. عـلى أي حـال، لم أتفـوَّه بـشيءٍ لصاحبـي؛ لأننـي كنـتُ أعتـبره رجـلًا يُعـوِزُه الخيـالُ. مـن ناحيـة، لا يمكننـي أبـدًا أن أفـسِّر لـه مـا أعنيـه، ومـن ناحِيَـةٍ أخـرى، كان ليسـخر منِّـي بغَبـاءٍ إنْ فَعَلـتُ.

كان هنـاك انخفـاضٌ طفيـفٌ في وسـط الجزيـرة، نَصَبنـا الخَيمـةَ عنـده. تكفَّـل الصَّفصـاف المُحيـطُ بِكَسرِ حِـدَّة الريـح قليـلًا.

عندمـا انتَصَبَـت الخيمـةُ واقِفـةً أخـيرًا، أبـدى السـويدي -رابِـطُ الجأش- مُلاحَظَتَه:

- مُخيَّمٌ بائِسٌ.

- لا توجـد حجـارة، والحَطَـب قليـلٌ للغايـة. أنـا مـع التَّحـرُّك في الغـد المبكِّـر... هـه؟ هـذه الرمـال لـن تحتفـظ بـأيِّ شيء.

لكـن تجربـة الخيمـة المنهـارة في منتصـف الليـل قـد علَّمَتنـا العديـدَ مـن التدابـير، فجعلنـا المنـزل الغَجـريَّ المُريـحَ آمِنًـا بقـدر الإمـكان. ثـم شرعنـا في جمـع مخـزونٍ مـن الخشـب يـدوم حتـى وقـت النَّـوم.

لا تُسـقِطُ أشـجارُ الصَّفصـاف أيَّ أغصـان، فكانـت الأخشـاب الطافيـة هـي مصـدرَ إمدادنـا الوحيـد. فتَّشـنا الشـواطئ بشـكلٍ جيِّـدٍ جـدًّا، كانـت الضِّفـاف مُتداعِيَـةً في كل مـكان، حيـث حمـل عليهـا الفيضـانُ المُرتَفِـعُ، وجَـرَفَ جـزءًا كبـيرًا منهـا برَشرَشَـةٍ وبَقْبَقَـة.

قال السويدي الدقيق:

- إن الجزيرة أصبَحَت أصغَرَ كثيرًا ممَّا كانت عليه عند وصولنا.

- بهـذا المُعـدَّل، لـن تـدوم كثـيرًا، سـيكون مـن الأفضـل لـو سَـحَبنا القـارب قريبًـا مـن الخيمـة، وكُنَّـا عـلى اسـتعدادٍ لأن ننطلـق في لَمْـحِ البـصر، سـوف أنـام بملابـسي.

كان يتسلَّق بطول الضِّفَّة، على مسافة قصيرة، وسمعتُ ضحكه المَرِحَ إلى حَدٍّ ما عندما تحدَّث. بعد لحظة، سمعته يصيح:

- بحقِّ الرَّبِّ.

واستَدرتُ لأرى ما الذي قد تَسبَّب في إثارة تَعجُّبه، لكنه، في هذه اللحظة، كان مُختَفِيًا وراء الصفصاف، ولم أتمكَّن من العثور عليه.

سَمِعتُه يصيح مرَّةً أخرى، وقد اكتسى صوتُه بالجدِّيَّة في هذه المرَّة:

- أيُّ عَجَبٍ هذا؟

ركضتُ مُسرِعًا، ولَحِقتُ به على الضفَّة. كان يتطلَّع صَوبَ النهر، مُشيرًا نحو شيءٍ ما في الماء. صاح بانفعال:

- يا إلهَ السَّموات، إنها جُثَّةُ رَجُلٍ! انظُرْ!

كان شيء أسودُ يدور ويدور في الأمواج المُزبِدَة، انجرف بسرعة مُبتَعِدًا. ظلَّ يختفي ويطفو على السطح ثانيةً. كان يَبعُدُ حوالي عشرين قدمًا عن الشاطئ، وبمجرَّد أن أصبح في مواجَهَة البُقعَةِ التي نقف عليها بالضبط تمايَل مُستَديرًا، ونظر صوبنا مُباشرةً. عندما انقلبت الجُثَّة، رأينا عينيها وهي تعكس غروب الشمس، وتلتَمِعُ بصُفرَةٍ غريبة. ثم أتت بغَطسَةٍ سَريعةٍ صاخِبَة، وغاصت مُتوارِيَةً عن الأنظار في لمح البصر.

هتفنا في نَفَسٍ واحِدٍ ضاحِكَيْن:

- يا الله، إنه قُندُس!

كان قُندُسًا، حيًّا، خرج للصيد، ومع ذلك فقد بدا -بالضَّبط- وكأنه جُثَّةُ رجُلٍ غارق تدور عاجِزَةً في التيار. ظهر على السطح مرَّةً أخرى على مسافة إلى الجنوب، ورأينا جلده الأسود، مُبلَّلًا ويلتمع في ضوء الشمس.

بعـد ذلـك، بمجـرَّد أن عُدنـا مُحمَّلَـيْن بالأخشـاب الطافيـة، حـدث شيء مـا أعادنـا إلى ضفَّـة النَّهـر مـرَّةً أخـرى. هـذه المـرة كان رَجُـلًا دون رَيـبٍ، بـل أكـثر مـن ذلـك: رجُـلًا في قـارب. إن قاربًـا صغـيراً في الدانـوب كان مَشـهَدًا غـيرَ مُعتـادٍ في أي وقـت، لكـن هنـا في هـذه المنطقـة المهجـورة، وفي وقـت الفيضـان، كان شـيئًا غـير مُتوقَّـعٍ عـلى الإطـلاق، حتـى أنـه يُمثِّـل حَدَثـًا حقيقيًّـا. وقفنـا وأَطَلْنـا النَّظَـر.

لا أسـتطيع أن أجـزم، إن كان الأمـر راجِعًـا إلى ضـوء الشـمس المنحـرف، أو إلى الانكسـار في المـاء المُضـاء عـلى نحـو رائـع، لكـن، أيًّـا كان السـبب، فإننـي واجَهـتُ صعوبـةً في تركيـز نظـري، بشـكلٍ ملائـم، عـلى الشـبح الطائـر. عـلى أي حـال، بـدا أنـه رَجُـلٌ يقـف مُسـتقيمًا في قـارب مـن النـوع مُسـطَّحِ القـاع، يُسَـيِّره بواسـطة مجـدافٍ طويـل، ويرتحـل صـوبَ الشـاطئ المقابـل بوتـيرَةٍ هائلـة. كان عـلى مـا يبـدو يتطلَّـع في اتجاهنـا عـبر النهـر، لكـن المسـافة كانـت كبـيرة جـدًّا وكان الضـوء شـديدَ الإخيـال، لدرجَـةٍ لا تسـمح لنـا أن نسـتَنتِجَ بوضـوحٍ مـا الـذي كان مُقدِمًـا عـلى فِعلِـه. بـدا لي أنـه كان يومـئ ويرسـل إلينـا بإشـاراتٍ. جاءنـا صوتـه عـبر المـاء يصيـح بـشيء مـا بطريقـة عنيفـة، لكـنَّ الرِّيـحَ كَتَمَتـه بحيـث لم تكـن هنـاك كلمة واحـدة مسـموعة. شيء غريـب كان يَخُـصُّ المشـهدَ بأكملـه: رَجُـلٌ وقـاربٌ وإشـاراتٌ وصَـوتٌ- شيء تـرك فيَّ انطباعًـا لا يتناسـب مـع مُسـبِّبه. صِحـتُ:

- إنه يرشَم الصَّليب على نفسه!

وأضَفتُ:

- انظُرْ، إنه يصنع علامةَ الصليب!

- أعتقد أنَّكَ على حَقٍّ.

قالهـا السـويدي وهـو يُظَلِّـلُ عينيـه بيـده ويراقـب الرجـل البعيـد عـن الأنظـار. بـدا أنـه ذهـب في لحظـةٍ، ذاب هنـاك في بحـر الصَّفصـاف الـذي

باغَتَتـه الشـمسُ في منحنـى النهـر وحوَّلَتـه إلى حائـطٍ قُرمـزيٍّ ضَخـمٍ مـن الجـمال. كان الضَّبـاب أيضًـا قـد بـدأ في الخِـداع، فأصبـح الهـواء مُغبَّشًـا. قلتُ شِبهَ مُحدِّثٍ نفسي:

– لكن، أيَّ شيء يفعل عند هبوط الليل في هذا النَّهر الفائض؟

ثم أضَفتُ مُتسائِلًا:

– إلى أيـن يذهـب في مثـل هـذا الوقـت؟ ومـاذا قصـد بإشـاراته وصياحـه؟ هـل تَظـنُّ أنـه حـاول تحذيرنـا مـن شيءٍ مـا؟

قال صاحبي:

– لقد رأى دُخَانَنا، وظَنَّ أنَّنا قد نكون أرواحًا.

ثم أكمل ساخِرًا:

– يؤمـن هـؤلاء المَجَريُّـون بجميـع أنـواع التُّرَّهـات، أنـت تَذكُـرُ بائِعَـةَ المتجـر في برسـبورج وهـي تُنبِّهُنـا إلى أنـه لا أحـدَ عـلى الإطـلاق قـد هبـط هنـا؛ لأن المنطقـة تنتمـي إلى نـوعٍ مـن الكائنـات مـن خـارج عالَـم البَـشَر! أعتقـد أنهـم يؤمنـون بالجِنِّيَّـات والسَّـحَرة، ومـن المُحتَمَـلِ الشـياطين أيضًـا. ذلـك المُـزارِعُ في القـارب رأى أُناسًـا عـلى الجُـزُرِ لأوَّل مـرَّةٍ في حياتـه.

وأضاف بعد صمتٍ قصير:

– لقد أثار الأَمرُ رُعبَه، هذا هو كُلُّ شيء.

لم تَكُـن نَـبرَةُ صـوتِ السـويدي مُقنِعَـةً، وافتقـد أسـلوبه شـيئًا مـا كان موجـودًا عـادةً. لقـد لاحَظـتُ التَّغـيُّرَ عـلى الفـور عندمـا تكلَّـم، ورغـم ذلـك لم أَكُـن قـادِرًا عـلى تحديـده بدقَّـة.

– إذًا امتلكوا ما يكفي من الخيال...

قُلتُها وضحكتُ بصوتٍ مرتفع. أذكر أنَّني حاوَلتُ أن أُثير الضَّوضاءَ بقدر ما أستطيع، واصَلتُ:

- ... لكان من الجائز أن يعمروا مكانًا مثل هذا بالآلهة القديمَةِ للعصور الغابِرَة، لا بُدَّ أنَّ الرُّومان قد أَسكَنوا بهذه المنطقةِ كُلِّها، تقريبًا، أَضرِحَتَهم وحدائِقَهم المُقدَّسة وآلِهَتَهم الأوَّليَّة.

تَرَكنا الموضوعَ وعُدنا إلى إناء اليَخْنَة؛ لأن صديقي لم يكن يميل إلى المُحادَثات الخيالية، بشكلٍ عام، كما أنني أذكر شعوري وقتَها بالسُّرور الواضح لأنه لم يَكُن خياليًا، بدا لي فجأةً أن طبيعته العَمليَّة الباردة شيء مُريحٌ ومُستَحبٌّ. شعرتُ أنها طبيعةٌ جديرة بالإعجاب، يستطيع أن يُوجِّه القارب في المنحدرات وكأنه هِنديٌّ أحمر، وأن يَنفُذَ من الجسور الخَطِرة والدَّوَّامات أفضل من أي رَجُلٍ أبيض رأيتُه على متن قارب. كان زميلًا عظيمًا لرحلة مَحفوفَةٍ بالمخاطر، وكان خيرَ عَونٍ عندما ألمَّت بنا المُلِمَّات. نظرتُ إلى وجهه القوي وشَعرِه الأشقر المُموَّج وهو يتمايل تحت كومة الأخشاب التي يحملها، والتي تبلغ ضِعفَ حجم كَومَتي، وانتابني شعورٌ بالراحة. نعم، كنتُ مسرورًا بشكلٍ واضح في حينه لأن السويديَّ كان ما هو عليه، وأنه لم يُبْدِ، قَطُّ، مُلاحظاتٍ تُلمِّح إلى أكثرَ ممَّا قاله.

- لا يزال النَّهر يرتَفِعُ، مع ذلك.

قالها، كما لو كان يتابع بعضًا من أفكاره، ثم ألقى بحِملِه وهو يَلهَثُ، وقال:

- ستكون هذه الجزيرة تحتَ الماء في غضون يومَيْن لو استمرَّ الأمر على هذا النحو.

قلتُ:

- آمل أن تهدأ الريح، لا أهتمُّ بالنهر أدنى اهتمام.

في الحقيقـة، لم يكـن الفيضـان يتسبَّب لنـا في أيِّ ذُعـرٍ، يمكننـا المغـادرة في ظـرف عـشر دقائـق، وكلَّـما ازداد المـاء كلَّـما أعجبنـا الأمـر، فهـو يعنـي تزايُـدًا في التَّيَّـار، وطمـس فُـرُشِ الحـصى الغـادِرَة التـي كثـيرًا مـا هَـدَّدَت بتخريـب قـاع القـارب.

عـلى العكـس مـن توقُّعاتنـا، لم تهـدأ الرِّيـحُ مـع غـروب الشـمس، يبـدو أنهـا تـزداد مـع الظـلام، تعـوي فـوق رؤوسـنا وتهـزُّ الصفصـاف مـن حولنـا مثـل أعـواد القَـشِّ، تصحبهـا أصـواتٌ غريبـة في بعـض الأحيـان، تُشـبِه انفجـار المدافـع الثقيلـة، هَبَطَـت عـلى المـاء والجزيـرة بصفعـاتٍ شـديدة ذات قـوَّةٍ هائلـة، جعلتنـي أفكِّـر في الأصـوات التـي لا بُـدَّ وأن تَصـدُرَ عـن كوكَـبٍ يُسـافِر عـبر الفضـاء، لـو اسـتطعنا فقـط أن نسـمعه.

لكـنَّ السـماء ظلَّـت خاليـةً تمامًـا مـن السُّـحُب، وبعـد العَشـاء بوقـت قصـير ارتفـع القَمـرُ المُكتَمِـلُ مـن الـشرق وغَطَّـى النهـر وسـهل الصفصـاف الصَّاخِـبَ بضـوءٍ يُشـبِه ضـوء النهـار.

اسـتلقينا عـلى البُقعَـة الرمليـة المجـاوِرة للنـار، نُدخِّـن، ونُنصِـتُ إلى ضوضـاء الليـل مـن حولنـا، ونتحـدَّث بسـعادَةٍ عـمَّا قطعنـاه بالفعـل مـن الرحلـة، وعـن خُطَطِنـا المُقبِلـة. كانـت الخريطـة مُنبَسِـطَةً عـلى بـاب الخيمـة، لكـن الرِّيـحَ العاصفـة جعَلَـت مـن دراسـتها أمـرًا صعبًـا، كُنَّـا في وقتهـا قـد أرخينـا السـتار وأطفأنـا الفانـوس، كانـت إضـاءة النـار كافِيـةً لأن نُدخِّـن ونـرى وجـه أحدِنـا الآخـر، وكان الـشَّرَرُ يتطايـر في الهـواء مثـل الألعـاب الناريـة. عـلى بُعـد يـارداتٍ قليلـة خلفنـا، كان النهـر يُبَقبِـقُ ويُهَسـهِسُ، ومـن حـينٍ لآخـر تُعلِـنُ رَشرَشَـةٌ ثقيلـةٌ عـن سـقوط أجـزاء إضافيـة مـن الضفـة.

لاحَظـتُ أن حديثنـا قـد تعلَّـق بالمشـاهد والحـوادث البعيـدة لمُخيَّماتنـا الأولى في الغابـة السـوداء، وبموضوعـاتٍ أخـرى بعيـدة كلَّ البعـد عـن الوضـع الحـالي، حيـث لم يتحـدَّث أيٌّ مِنَّـا عـن اللحظـة الراهنـة أكـثر

ممَّا اقتضته الضرورة، كما لو كُنَّا -تقريبًا- اتَّفقنا ضِمنيًّا على تَجنُّب مناقشة المُخيَّم وحوادثه. على سبيل المثال، لم يَنَل القُندسُ ولا رَجُلُ القارب شرفَ الذِّكر ولو لمرَّةٍ واحدة، على الرغم من أن هذا كان ليشغل -عادةً- الجُزءَ الأكبر من مناقشة المساء. كانت، بالطَّبع، أحداثًا مُميَّزة في مثل هذا المكان.

جعلت نُدرَةُ الأخشاب المُحافِظَة على النار مُشتَعِلَةً هو شغلنا الشاغل؛ إذ أن الريح التي كانت تسوق الدُّخانَ إلى وجهنا أينما جلسنا، ساعَدَت في الوقت نفسه على صُنْعِ تيَّار تهويَةٍ. تبادَلنا القيامَ ببعض جولات البحث في الظلام، ودائِمًا ما كانت الكَمِّيَّة التي يعود بها السويدي تجعلني أشعر أنه استغرق وقتًا طويلًا، بشكل غير معقول، في العثور عليها، كنتُ في الحقيقة لا أُبالي كثيرًا بتَركي وحيدًا، ومع ذلك بدا دومًا أنه دوري في النَّبش وسط الشجيرات أو التَّسلُّق بطول الضِّفاف الزَّلِقَة تحت ضوء القَمَر. إن معركة النَّهار الطَّويلة مع الرِّيح والماء -تلك الريح وذلك الماء!- قد أتعبَتنا كِلَيْنا، وكان النوم مُبكِّرًا هو البرنامج البديهيُّ. مع ذلك، لم يُبادِر أيٌّ مِنَّا بالتحرُّك إلى الخيمَة. استلقَيْنا هناك، نَعتَني بالنار، ونتبادَلُ أحاديثَ غيرَ مُترابِطَةٍ، ونُحدِّق في شُجَيراتِ الصَّفصاف الكثيفة من حولنا، ونُنصِتُ إلى هدير الرِّيح والنهر، كانت وَحشَةُ المكان قد تَسلَّلت عميقًا في عِظامنا، وبدا أن الصَّمتَ طبيعيٌّ؛ إذ أصبحت نَبرَةُ أصواتنا -بعد قليلٍ- مُصطنَعَة ومُتكلِّفَة إلى حَدٍّ ما. شعرتُ أن الهمس ربَّما كان الأسلوبَ الأمثلَ للتَّواصُل، وأن الصَّوتَ البَشريَّ الذي طالما بدا سخيفًا، إلى حَدٍّ ما، وسط هدير عناصر الطبيعة، حمل في طيَّاته حينَها شيئًا غير مشروع تقريبًا، كان مثل التحدُّث بصوتٍ مرتفع في الكنيسة، أو في مكانٍ ما حيث لا يكون مُباحًا من الناحية القانونية، وربما لا يكون أمرًا مأمونَ العاقِبَة بشكلٍ كبير، أن تُسمَعَ مُصادَفةً.

أظنُّ أن غرابة هذه الجزيرة الموحِشَة مَسَّتنا كِلَيْنا، بموقعها وسط مليون صفصافَةٍ، يجتاحها إعصارٌ، وتحيط بها المياهُ العميقة المُتسارِعة. تقبع هناك تحت القمر، لم تَطَأها قَدَمُ إنسانٍ، تقريبًا لا يعرفها إنسان، بعيدة عن تأثير البشر، على حدودِ عالَمٍ آخر، عالم غريب، عالم مُحتَلٍّ بالصفصاف، فقط، وأرواح الصفصاف. ونحن بتهوُّرنا قد جَرُؤنا على غزوها، ولو للاستفادة منها! اضطرب بداخلي شيءٌ ما أكثر من قُوَّةِ غُموضها بينما كنتُ مستلقيًا على الرمال، جاعِلًا قدميَّ باتجاه النار، ومُدقِّقًا النظر لأعلى من خلال أوراق الشجر صَوبَ النُّجوم. نهضتُ كي أجلبَ حَطَبًا للمرَّة الأخيرة. قلتُ بحَزمٍ:

- عندما يَحترِقُ هذا، سأتحوَّل إلى الداخل.

وراقبَني صاحبي بكَسَلٍ بينما كنتُ أتحرَّك في الظلال المُحيطَة.

فكَّرتُ أنه بَدَا مُتَفتِّحًا في تلك الليلة، على غير العادة، بالنسبة لشخصٍ يَنقُصُه الخَيالُ، لم يَكُن، عادةً، مُنفَتِحًا لإيحاءات الأشياء، بخلاف الإيحاءات الحِسِّيَّة. تأثَّر هو الآخرُ بجَمالِ ووَحشَةِ المكان. أذكر أنني لم أَكُن راضِيًا، بشكلٍ تامٍّ، لملاحظة التَّغيُّر الطفيف الذي طرأ عليه، وبدلًا من أن أجمع أعواد الحطب لفوري، اتَّخذتُ طريقي إلى النقطة البعيدة من الجزيرة حيث يمكن رؤية ضوء القمر على السهل والنهر بصورةٍ أفضل. انتابتني الرَّغبَةُ في الانفراد بنفسي على نحوٍ مفاجئٍ، عادَت رَهبَتي السابقة بقوَّة، كان بداخلي شعورٌ مُبهَمٌ تَمَنَّيتُ لو أواجِهُه وأسبر غَورَه.

عندما وَصَلتُ إلى النقطة الناتئة من الرِّمال وسط الأمواج، حلَّ عليَّ سِحرُ المكان بصدمَةٍ إيجابيَّة. ما من مشهدٍ طبيعي كان ليُخلِّف مثل هذا الأثر. ثمَّة شيء أكبر هنا، شيء يبعث على الحذر.

حدَّقتُ عبر خراب المياه الهائجة، وشاهَدتُ الصَّفصافَ المُتهامِس، وسمعت الضربات المتواصِلة من الريح التي لا تَكِلُّ، وجميعها، كلٌّ

بطريقتـه الخاصَّـة، حرَّكـت بداخـلي إحسـاسَ الكَرب الغريـب هـذا. وعـلى وجـه الخصـوص شُـجيرات الصفصـاف؛ إذ راحـت تُثَرثِـرُ وتتحـدَّث فيـما بينهـا، تضحـك قليـلًا، وتـصرخ بصـوتٍ أَجَـشَّ، وتتنهَّـد أحيانًـا، وأيًّـا كان مـا أثـار حماسَـها إلى هـذا الحَـدِّ فقـد انتمـى إلى الحيـاة السريـة للسـهل الكبـير الـذي تسـكنه. وكان غريبًـا تمامًـا عـن العـالم الـذي عرفتـه، أو عـن ذلـك العـالم الخـاص بعنـاصر الطبيعـة الضاريـة التـي لا تخلـو، مـع ذلـك، مـن رَحمَـةٍ. دفعتنـي الشَّـجَيراتُ إلى التفكـير في مجموعـة مـن الكائنـات عـلى مسـتوى آخـر مـن الحيـاة، ربمـا كان نشـوءًا آخـرَ بأكملِـه، جميعهـا تناقـش سِرًّا معروفًـا لهـا فقـط. شـاهدتها تتحـرَّك معًـا بانشـغال، تَهـزُّ رؤوسـها الكبـيرة المشـعَّثة بشـكلٍ غريـب، تُديـر أوراقَهـا التـي لا تُحـصَى، ولـو لم تكـن هنـاك ريـح. تحرَّكَـت بمحـضِ إرادتهـا كـما لـو كانـت حيَّـةً، ولمسـت، بطريقـة مـا لم تكـن في الحسـبان، مفهومـي الدَّقيـق لِـما هـو مُفـزِع.

وقَفَـتْ هنـاك في ضـوء القمـر، كجَيـشٍ ضَخـمٍ يُحيـط بمُخيَّمنـا، تهـزُّ رِماحَهـا الفضِّيَّـةَ التـي لا تُحـصَى، في تَحـدٍّ، مُتَّخِـذَةً وضع الاسـتعداد للهجوم.

إن سـيكولوچية الأماكـن، بالنِّسبة لبعـض المُخيِّلات عـلى الأقـلِّ، تكـون حيَّـةً للغايـة، بالنسـبة للرَّحَّالـة، عـلى وَجـه الخُصـوص، تحمـل المُخيَّـمات "علامتهـا" سـواء بالترحـاب أو بالرفـض. قـد لا تكـون واضِحَـةً في البدايـة دائِمًـا؛ لأن الإعـدادات المَحمومَـةَ للخَيمَـة والطهـي تَحُـولُ دون ملاحظتهـا، لكـن مـع أوَّلِ تَوقُّـفٍ، وعـادةً مـا يكـون بعـد العشـاء، تحـضر وتعلـن عـن نفسـها. وعلامـة مُعَسـكَر الصَّفصـاف، هـذا، أصبَحَـت واضِحَـةً لي بشـكلٍ لا لَبْـسَ فيـه: كُنَّـا مُتطفِّلـين ودُخـلاء، ولم يَكُـن مُرحَّبًـا بنـا. تَمَلَّكنـي شـعورٌ بالغرابـة بينـما كنـت واقِفًـا هنـاك أتطلَّـع. لقـد وَطِئنـا حـدود منطقـةٍ كان حضورنـا فيهـا مَحـلَّ اسـتياءٍ. مـن الـوارد أن يُسـمَحَ لنـا بقَضـاء ليلـة، ولكـن لإقامـة طويلـة الأَمَـد ومُتطفِّلـة، لا! بحَـقِّ كلِّ آلِهَـةِ الأشـجار والبَرِّيَّـة، لا! كُنَّـا أوَّلَ التأثـيرات البشريـة عـلى هـذه الجزيـرة، ولم يَكُـن مرغوبًـا فينـا، كان الصفصـاف ضدَّنـا.

أفـكارٌ غريبـة كهـذه، أخْيِلَـة عجيبـة، لا أعـرف مـن أيـن أَتَـت، وجـدتُ لهـا مكانًـا في عقـلي بينـما كنـتُ واقِفًـا أُنصِـتُ. تسـاءلَتُ، مـاذا لـو ثَبَـتَ في النهايـة أن شُـجَيراتِ الصَّفصـاف المُطَأطِئَـة، هـذه، حَيَّـة، مـاذا لـو نَهَضَـت فجـأةً مثـل فرقـة مـن الكائنـات الحيَّـة حَشَـدَتها الآلِهـةُ التـي قـد انتهكنـا منطقـة نفوذهـا، واندَفَعَـت نحونـا مـن المُسـتَنقَعات الشاسـعة، مُدوِّيَـةً في سـماء الليـل، قبـل أن تسـتقرَّ! عندمـا نظـرت كان مـن السـهل جـدًّا أن أتخيَّـل أنهـا تتحـرّك بالفعـل، تزحـف مُقتَرِبَـةً، تتراجـع قليـلًا، تتكـوَّم معًـا في كُتَـلٍ، عدائِيَّـة، منتظـرةَ الرِّيـح التـي لا بُـدَّ في النهايـة أن تعطيهـا إشـارة الانطـلاق. كنـتُ لأقسـم أن هيئتهـا تغـيَّرت قليـلًا، وأن صفوفهـا تعمَّقَـت وانضَغَطَـت معًـا بإحـكامٍ.

تَـردَّدَت في السـماء صرخـةٌ حـادَّةٌ كئيبـة لطائِـرٍ لَيـليٍّ، وكِـدتُ أفقـد تـوازُني فجـأةً؛ إذ سـقط الجُـزءُ الـذي أَقِـفُ عليـه مـن الضفَّـة في النهـر مُثـيرًا رَشاشًـا كبـيرًا، بعـد أن قَوَّضـه الفَيضـانُ. تراجَعـتُ للخلـف في الوقـت المناسـب، وواصَلـتُ التَّنقيـبَ عـن أعـواد الحطـب مَـرَّةً أخـرى، سـاخِرًا بعـض الـشيء مـن الأخيلـة الغريبـة التـي ازدحمـت بكثافَـةٍ في عقـلي وألقـت تعويذتهـا عـليَّ. اسـتَعدتُ ملاحظـة السـويدي عـن المُضِيِّ قُدُمًـا في اليـوم التـالي. كنـتُ أفكِّـر لِتَـوِّي بأننـي أوافِقُـه تمامًـا، عندمـا اسـتَدَرتُ فجـأةً لأراه واقِفًـا أمامـي مبـاشرةً. كان قريبًـا جـدًّا. فقـد غَطَّـى صَخَـبُ الطَّبيعـة عـلى اقترابـه.



II

- لقد ابتعدتَ كثيرًا!

صاح رافِعًا صوته فوق صَخَبِ الريح، ثم أضاف:

- اعتقدتُ أن شيئًا ما قد حَدَثَ لكَ.

لكنَّ شيئًا في نبرَة صوتِه، بالإضافة إلى سَمْتٍ ما على وجهه، أبلغاني بأكثر من كلماته العاديَّة، وفَهِمتُ على الفور السببَ الحقيقيَّ وراء مجيئه. وهو أنَّ سِحرَ المكان قد دخل إلى رُوحه هو الآخر، ولم يحب أن يبقى بمفرده. صاح مُشيرًا إلى الفيضان في ضوء القمر:

- لا يزالُ النَّهرُ يرتفع!

ثم أضاف:

- والرِّيح فظيعة حقًّا.

لطالما قال نفس الكلام، لكنَّ التماس الصُّحبة هو ما أضفى على كلماته أهمِّيَّةً حقيقيَّة.

رَدَدتُ عليه صياحَه:

- من حُسن الحظ أن خيمتنا في التجويف، أظنُّ أنها ستتماسك على نحوٍ جيِّد.

أضفتُ شيئًا عن صعوبة العثور على أخشابٍ؛ حتى أُبرِّرَ غيابي، لكنَّ الريح التَقَطَت كلماتي وطوَّحَت بها عبر النهر، حتى أنه لم يسمع، لكنه تطلَّع إليَّ فقط من خلال الأغصان، مُومِئًا برأسه.

- سنكون مَحظوظين لو أفلتنا من دون كارِثَةٍ!

صاح بذلك، أو بشيءٍ له نفس الأَثَر، وساوَرَني تجاهه شعورٌ ببعض الغَضَب لأنه صاغ الفِكرَةَ في كلمات، فقد كان هذا بالضبط ما شعرتُ به أنا نفسي. كانت هناك كارثة وشيكة في مكانٍ ما، وتَلبَّسَني إحساسُ التَّطَيُّر على نحوٍ كريهٍ.

عُدنا إلى النار، وأحدثنا تَوهُّجًا أخيرًا، ونحن نَطؤها بأقدامنا. ألقينا نظرةً أخيرةً من حولنا. لولا الريح لكانَت الحرارَةُ كَريهةً. صُغت هذه الفكرة في كلمات، وأذكر أن رَدَّ صديقي صَدَمني بشكلٍ غريب: إنه كان ليُفضِّل الحرارة، طقس يوليو المعتاد، على هذه "الريح الشيطانيَّة".

كان كُلُّ شيء مُرتَّبًا أثناء الليل: يرقد القارب مقلوبًا إلى جوار الخيمة، ومن تحته المجدافان الأصفران كلاهما، كيس المؤن مُعلَّقًا على جِذع صفصافة، الأطباق المغسولة وُضِعَت على مسافةٍ آمِنَةٍ من النار، جاهزةً لوَجبة الصَّباح.

أطفأنا جمرات النَّار بالرمال، ثم انتقلنا إلى الداخل. كان مصراع باب الخيمة مرفوعًا، فرأيت الأغصان والنجوم وضوءَ القمر الأبيض. كانت شُجَيرات الصفصاف المُهتزَّة وصفعات الريح الثَّقيلة على منزلنا

المشدود الصغير هي آخر ما أذكره عندما هبط النَّومُ وغمر كُلَّ شيء بنسيانه الناعم اللذيذ.

وجدتُ نفسي، فجأة، أرقد مستيقِظًا، أُحدِّق عبر باب الخيمة من فِراشي الرملي. تطلَّعتُ إلى ساعتي المُثبَّتَة على قماش الخيمة، ورأيتُ على ضوء القمر السَّاطع أنها قد تَخطَّت الثانية عشرة، على عتبة يَومٍ جديد، وأكون بذلك قد نِمتُ ساعتَيْن. كان السويدي لا يزال نائمًا إلى جواري، والريح تعوي كما في السابق، انخلع شيءٌ في قلبي وجعلني أشعر بالخوف. كان هناك إحساسٌ بالانزعاج على مقربَةٍ مباشِرَةٍ منِّي.

نهضتُ مُسرِعًا وتطلَّعتُ إلى الخارج، كانت الأشجار تَتمايَلُ بعُنفٍ جيئةً وذهابًا كما لو كانت الرياح تبطِشُ بها، لكنَّ قِطعةَ القماش الأخضر الصغيرة التي تَخصُّنا كانت ترقد في تجويفها آمِنَةً في استكانة، حيث كانت الرِّيح تَمرُّ من فوقها من دون أن تَلقَى مقاوَمَةً كافية لأن تثير شرورها. لم ينقضِ شعور القلق، على كل حال، زحفتُ بهدوء إلى خارج الخيمة لأرى إن كان مَتاعُنا في أمان، تحرَّكتُ بحرصٍ حتى لا أوقِظَ صاحبي. كانت بداخلي إثارة غريبة.

كنتُ في منتصف الطريق للخارج، راكِعًا على أربع، عندما ميَّزَت عيني أوَّلًا قِمَمَ الشجيرات المواجِهة، بتشابُكات أوراقِها المتحرِّكة، وهي تصنع أشكالًا على خلفيَّة السماء. جلستُ على عَجيزَتي وحَدَّقتُ. كان الأمر مُدهِشًا، بالتأكيد، لكن كانت هناك، بمواجهتي ولأعلى بعض الشيء، أشكالًا من نوعٍ غيرِ مُحدَّدٍ وسط الصَّفصاف، وعندما كانت الأغصان تميل مع الرِّيح بدا أنها تتجمَّع حول هذه الأشكال، مُكوِّنَةً سلسلةً من الخطوط الخارجية الممسوخة التي تحرَّكَت بسرعة تحت القمر. رأيتُ هذه الأشياء عن قُرب، على بُعدِ حوالي خمسين قدمًا أمامي.

خطر لي أوَّلًا أن أوقِظَ صاحبي، الذي قد يراها هو الآخر، لكنَّ شيئًا ما جعلني أتردَّد، قد يكون إدراكي المفاجئ أنه لا ينبغي عليَّ السَّعيُ إلى توكيد الأمر. وفي هذه الأثناء جَثَمتُ هناك أُحدِّق في ذهولٍ بعينين بهما حُرقَة. كنتُ مستيقِظًا تمامًا، أتذكَّر قولي لنفسي أنني لم أَكُن أحلم.

في البداية، أصبَحَت هذه الأشكالُ الضخمة مرئيَّةً، بشكل واضح، من خلال قِمَمِ الشجيرات فقط، هائلة، ذات لون برونزي، متحرِّكَة، ومستقلَّة تمامًا عن تَمايُل الأغصان. رأيتُها بوضوحٍ، ولاحَظتُ -بعد أن أصبحتُ أتفحَّصها بهدوء أكبر- أنها أكبر كثيرًا من البَشَر، وأن هناك شيئًا في مظهرها، حقًّا، يبوح بأنها ليست بشريَّةً على الإطلاق. كان من المؤكَّد أنها ليست مُجرَّد حركة شبكة الأغصان في مواجهة ضوء القمر. كانت تنتقل بشكل مُستقلٍّ. تصعد في تيَّارٍ متواصِل من الأرض للسماء، تتلاشى تمامًا بمجرَّد أن تبلغ ظُلمَةَ السماء. يتداخل أحدها مع الآخر، فتصنع عمودًا عظيمًا، ورأيتُ ضلوعها وأجسادها الهائِلَةَ تذوب مُندَمِجَةً ومُنفَصِلَة بعضها عن بعض، لتُشكِّل هذا الخَطَّ الأُفعوانيَّ الذي ينحني ويتمايَلُ ويلتفُّ بشكلٍ حلزونيٍّ مع التواءاتِ الأشجار التي تلطمُها الريح. كانت أشكالًا عاريَةً سائِلَة، تَمرُّ فوق الشجيرات، مُتخلِّلَةً الأوراق بالكاد، صاعدةً إلى السماء في عمودٍ حَيٍّ. لم أتمكَّن من رؤية وجوهِها قَطُّ. تتدفَّق لأعلى من دون توقُّف، تتمايَلُ في مُنحَنياتٍ كبيرة مُقوَّسة، مع طيفٍ برونزيٍّ شاحِبٍ على بَشرَتِها.

حدَّقتُ، مُحاوِلًا أن أستنفر كلَّ ذَرَّةِ رؤيةٍ في عيني. ظنَنتُ لفترة طويلة أنها لا بُدَّ أن تختفي وتتماهى في أي لحظَةٍ مع حركة الأغصان، وأن يتَّضِحَ أنها خداعٌ بَصريٌّ. بحَثتُ في كُلِّ مكان عن دليل على الواقع، حتى فَهِمتُ فجأةً أن معيار الواقع قد تَغيَّر. لأنني كُلَّما أمعنت النظر ازداد يقيني بأن هذه الأشكال حقيقيَّةٌ وحيَّة. على الرغم من أن ذلك قد لا يتَّفِقُ مع المعايير التي تلتزم بها الكاميرا وعُلَماء الأحياء.

بعيــدًا عــن شــعوري بالخــوف، اســتحوذ عــليَّ إحســاسٌ بالدهشــة والعَجَــب لم أعــرف مثلــه قــطُّ. بــدا لي أننــي أُحــدِّق إلى تجسـيد القــوى الطبيعيــة لهــذه المنطقــة البدائيــة المسـكونة. إنَّ تَطفُّلَنــا قــد حَفَّــز قــوى المــكان عــلى الحركــة، كُنَّــا نحــن مَــن تَســبَّب في الإزعــاج، وامتــلأ ذهنــي، حتــى كاد ينفجــر، بقصــص وأســاطير أرواح وآلِهَــةِ الأماكــن التــي أقــرَّ بهــا البَــشَرُ وعَبَدوهــا في كل مراحــل تاريــخ العــالم. لكــن قبــل أن أتمكَّــن مــن الوصــول إلى أيِّ تفســير مقبــول، دفعَنــي شيء مــا للخــروج أكــثر مــن ذلــك، فزَحَفــتُ إلى الأمــام عــلى الرِّمــال ونهضــتُ واقِفًــا، شــعرتُ بــالأرض لا تــزال دافِئَــةً تحــت قدمــيَّ الحافيتــين. لَفَحَــت الرِّيــحُ وجهــي وشَــعري، ودَوَّى صــوتُ النهــر في أذنيَّ بهديــرٍ مفاجــئٍ. كنــت أعــرف أن هــذه الأشــياء حقيقيــة، وأنهــا تُبَرهِــنُ عــلى أنَّ حــواسِّي تعمــل بشــكلٍ طبيعــيٍّ، مــع ذلــك، كانــت الأشــكال لا تــزال تصعــد مــن الأرض إلى الســماء، صامِتَــةً، بجَــلالٍ، في دوَّامَــةٍ عظيمــة مــن البهــاء والقُــدرَة غمَرَتنــي طويــلًا بشــعورٍ أصيــل وعميــق بالتَّنَسُّــك. شــعرتُ أننــي يجــب أن أَخِــرَّ مُتعبِّــدًا، عبــادةً مُخلِصَــة.

ربَّمــا كنــتُ لأفعــل ذلــك في اللحظــة التاليــة، لــولا أنْ اجتاحَتنــي عاصِفَــةٌ مــن الريــح بقُــوَّةٍ هائِلَــة حتــى أنهــا أطاحــت بي جانِبًــا، فتعــثَّرتُ وكِــدتُ أَســقُطُ. بَــدَت وكأنَّهــا تنفــضُ الحُلــمَ عنِّــي بعنــف. عــلى الأقــلِّ، فقــد منَحَتنــي -بطريقــةٍ مــا- وجهــةَ نظــرٍ أخــرى. لا تــزال الأَشــكالُ هنــاك، تصعــد إلى الســماء مــن قلــب الليــل، لكــنَّ منطقــي بــدأ يَفــرِضُ نفسَــه أخيراً. جادَلــتُ نفسي: إنهــا حَتــمًا تجربــةٌ ذاتِيَّــة، الأمــر الــذي لا يُقلِّــل مــن واقعيَّتهــا، لكنهــا مــع ذلــك تبقــى ذاتِيَّــةً. اجتمــع ضــوءُ القمــر والأغصــان لعكــس هــذه الصــور عــلى مــرآة الخيــال، ولســببٍ مــا أســقطَتها عــلى الخــارج وجَعَلَتهــا تبــدو موضوعيَّــةً، أدرَكْــت أن الحالــة لا بُــدَّ أن تكــون عــلى هــذا النَّحــو، بالطبــع. اســتَجمَعتُ شــجاعتي، وبــدأتُ في التَّحــرُّك قُدُمًــا عــبر بُقَــعِ الرمــال المفتوحــة. بحَــقِّ الــرب، مــع ذلــك، هــل كان الأمــرُ كُلُّــه

هَلوسَةً؟ هل كان مَحضَ ذاتيَّةٍ؟ ألم يُجادِل منطقي بالطريقة القديمة العقيمة بالمعيار البسيط للمُدرَك؟

كل ما أعلمه أن عمودًا عظيمًا من الأشكال كان يصعد في الظلام إلى السماء لما بدا أنه فترة زمنية طويلة، وبالمقياس المُطلَق للواقع الذي اعتاد مُعظَمُ الناس استخدامَه. ثم اختفت فجأةً!

وبمجرَّد أن اختفت، وانقَضَت الدَّهشَةُ المباشرة لوجودها الطاغي، هبط الخوفُ عليَّ باندفاعَةٍ بارِدَة. اندلع بداخلي، فجأةً، المعنى المُستَتِر لهذه المنطقة الموحشة والمسكونة، وبدأتُ أرتعش بشكلٍ رهيب. ألقيتُ نظرةً خاطِفَةً من حولي -نظرة رعب اقتربت من الهلع- محاوِلًا -عَبَثًا- الاستدلالَ على طُرُقٍ للهرب، ومُدرِكًا من ثم كَم كنتُ عاجِزًا على الإتيان بأيَّة أفعالٍ مُؤثِّرة حقًّا، زحَفتُ عائِدًا إلى الخيمة بهدوء، واستلقيتُ مُجدَّدًا على فِراشي الرَّملي، بعد أن أَرخَيتُ مِصراعَ باب الخيمة لأحجب مشهدَ الصَّفصاف الذي يضيئُه القمر، وبعد ذلك دَفَنتُ رأسي عميقًا قدرَ استطاعتي تحت الأغطية كي أُسكِتَ صَوتَ الريح المُرعِبَة.

وكأنَّما لإقناعي أكثرَ بأنني لم أكن أحلم، أذكر أن فترةً طويلة قد انقضت قبل أن أسقط مجدَّدًا في نومٍ مضطربٍ ومُزعِج، وحتى عندما حدث ذلك لم تَنَمْ سوى القِشرَةِ العُليا منِّي، ومن تحتها شيءٌ ما لم يَغِب عن الوعي تمامًا، إنما بَقِيَ مُنتَبِهًا ومُترقِّبًا.

لكنَّني في هذه المرة الثانية انتفَضتُ على بداية حقيقية للرُّعب. لم يَكُن ما أيقظني هو الرِّيحُ ولا النهر، بل الاقتراب الحثيث لشيء ما تَسبَّب في أن تُصبِحَ حِصَّتي من النوم أصغرَ فأصغرَ حتى تلاشت تمامًا في النهاية، ووجدتُ نفسي جالِسًا في وضعٍ عَموديٍّ، أتنصَّت.

بالخارج، كان هناك صوتُ طَقطقاتٍ خفيفةٍ بأعداد كبيرة، وكنتُ مُدرِكًا أنها مُستمرَّة منذ فترة طويلة، وقد بدأت أسمعها في نومي.

جلسـتُ مُتوتِّـرًا في يقظـة تامَّـةٍ وكأنـنـي لم أَنَـمْ بالمـرَّة. بـدا لي أن أنفـاسي تَخـرُجُ بصعوبـة، وأن هنـاك ثِقَـلًا كبيـرًا عـلى سـطح جسـدي. بالرغـم مـن الليلـة الحـارَّة، كنـت أشـعر أنَّنـي مُرطَّـبٌ بالـبرودة وأرتَجِـفُ. كان هنـاك شيء، بالتأكيـد، يضغـط بانتظـام عـلى جوانـب الخيمـة ويرمـي بثِقَلِـه عليها مـن أعـلى. أيكـون جَسَـدَ الرِّيـح؟ أيكـون هـو المطـر الوبيـل؟ قَطْـر أوراق الشـجر؟ الـرَّذاذ الـذي حَمَلَتـه الرِّيـحُ مـن النهـر وقـد تَجمَّـع في قطـراتٍ كبـيرة؟ تـوارَدَت عـشراتُ الأشـياء عـلى فكـري.

ثـم فجـأةً، قفـز التفسـير إلى ذهنـي: غصـن مـن الحـور، الشـجرة الكبـيرة الوحيـدة في الجزيـرة، قـد سـقط بفِعـلِ الريـح. لا يـزال نِصـفَ مُعلَّـقٍ بالأغصـانِ الأخـرى، وقـد يسـقط مـع العاصفـة التاليـة ويسـحقنا، وفي ذلـك الوقـت كانـت أوراقـه تَحتَـكُّ بقُـماش الخَيمَـة وتَنقُـر عـلى سـطحه المَشـدود. رفَعـتُ المِصراعَ السَّـائِبَ واندَفعـتُ إلى الخـارج، مُنادِيًـا عـلى السـويدي كي يتبعنـي.

لكنـنـي عندمـا أصبحـتُ بالخـارج وانتصبـتُ واقِفًـا رأيـتُ أن الخيمـة كانـت حُـرَّةً. ليـس هنـاك أي أغصـان مُعلَّقَـة، ليـس هنـاك مَطَـرٌ ولا رَذاذٌ، مـا مـن شيءٍ كان يَتَهدَّدنـا.

ضـوءٌ رمـاديٌّ بـارِدٌ نَفَـذَ مـن خـلال الشـجيرات وسـقط عـلى الرمـال ذات البريـق الباهـت. كانـت النجـوم لا تـزال مُحتَشِـدَة بالسَّـماء فوق رأسي مبـاشَرَةً. والريـح لا تـزال تعـوي بشـكلٍ رائِـعٍ، لكـن النـار لم تَعُـد تُصدِرُ أيَّ وَهَـجٍ، ومـن خـلال الأشـجار، رأيـتُ الـشرق يتلـوَّن بخطـوطٍ حمـراء. لا بُـدَّ أن سـاعاتٍ عديـدةً قـد انقضـت منـذ وقَفـتُ هنـاك مـن قبـل أراقـب الأشـكال الصاعـدة، وعندهـا، عـادت ذكراهـا إليَّ عـلى نحـوٍ مُـروِّع، مثـل حلـمٍ شرِّيـر. أوه، كـم أتعَبَتنـي تلـك الرِّيـحُ المحمومـة التـي لا تهـدأ! مـع ذلـك، بالرغـم مـمَّا أصابنـي مـن كَلَـلٍ شـديدٍ جـرَّاءَ ليلـة مُؤرِّقـة، كانـت أعصـابي تَخِـزُني بفعـل خـوفٍ لا يهـدأ بالمِثـل، ولم تكـن أيَّـة فكـرَةٍ للرَّاحـة

مَحلَّ مناقشة. رأيتُ أن النهر قد ازداد ارتفاعًا. ملأ هديره الهواء، ومن خلال قميص نومي الخفيف شَعرتُ بقَدرٍ مُعتَبَرٍ من الرَّذاذ.

مع ذلك، لم أَجِد في أيِّ مكانٍ أدنى دليلٍ على وجود ما يُثير الريبة. هذا الاضطراب العميق الذي طال أَمَدُه في قلبي بَقِيَ غيرَ مُعلَّلٍ على الإطلاق.

لم يكن صاحبي قد تحرَّك عندما ناديتُه، ولم أجد بي حاجَةً لإيقاظه حينها. أمعَنتُ النَّظرَ من حولي، مُدقِّقًا في كل شيء: القارب المقلوب، المجدافَيْن الصَّفراوَيْن كِلَيهما، أنا أكيدٌ من ذلك، كيس المُؤَن والفانوس الإضافي مُعلَّقَين على الشجرة معًا، وفي كل مكان من حولي، كان الصفصاف يَحتَشِدُ، مُغلِّفًا كُلَّ شيء، هذا الصفصاف المُهتزُّ اللانهائي. صدح طائِرٌ بصيحته الصباحية، ومرَّ في السماء سِربٌ من البَطِّ بطيران مُرَفرِفٍ عند الشَّفَق. دوَّمت الرِّمالُ في الريح، جافَّة ولاسعة، حول قدميَّ العاريتَيْن.

سِرتُ حول الخيمة ثم انحَرَفتُ قليلًا إلى داخل الدَّغْل، حيث يمكنني أن أرى المنظر الطبيعيَّ بصورَةٍ أفضلَ عبر النَّهر، واستحوذ عليَّ مرَّةً أخرى شعورُ الضِّيق العميق نفسه -وغَيرِ المُحدَّد مع ذلك- لدى رؤيتي بحر الصَّفصاف الشاسع يمتدُّ حتى الأفق، يبدو شَبَحيًّا وغير حقيقيٍّ في ضوء الفجر الشاحب. مَشيتُ على مهلٍ هنا وهناك، مُتحيِّرًا، ما زِلتُ، بسبب صوت الطقطقة اللا نهائيَّة الغريب ذلك، وبسبب ذلك الضغط على الخيمة الذي قد أيقظني. فكَّرتُ أنها كانت الريح بلا شك -تنقضُّ الريح على الرمال الحارَّة السَّائِبَة حامِلَةً الحُبَيبات الجافَّة بقوَّةٍ نحو القُماش المشدود- كانت الريحُ تَحُطُّ بشدَّة على سقفنا الهَشّ.

ظلَّت عَصبيَّتي وتَوعُّكي يتزايدان بشكلٍ ملحوظٍ.

عَبَرتُ إلى الشاطئ البعيد ولاحَظتُ كيف كان خَطُّ الساحل قد تغيَّر في الليل، وكم من كُتَلِ الرِّمال قد جرَفَها النَّهر، غطَّست يديَّ وقدميَّ في التَّيَّار البارد، وغَسَلتُ جَبهَتي، كان وهجٌ من الشمس المُشرِقَة قد ظهر في السماء بالفِعل.

في طريق عودتي، مَرَرتُ تحت الشُّجَيرات نفسها حيث قد رأيتُ عمود الأشكال يرتفع إلى الهواء، وفي منتصف الطريق بين الأجماتِ وَجَدتُ نفسي مأخوذًا، فجأةً، بشعورٍ بالِغٍ بالرُّعب. شكل ضخم عَبَرَ من الظِّلال مُسرِعًا. شخص ما مَرَّ بي، أنا متأكِّد من ذلك كلَّ التأكيد...

كانت هَبَّةً كبيرةً مُذهِلَةً من الريح هي التي ساعدتني على المُضيِّ قُدُمًا من جديد، وبمجرَّد أن خرجتُ إلى فضاءٍ أكثر اتِّساعًا، تلاشى إحساس الرُّعب بغرابَةٍ. أتذكَّر أنني قُلتُ لنفسي إن الرياح كانت في المكان وكانت تمشي؛ لأن الرياح تتحرَّك في أغلب الأحيان كحضورٍ طاغٍ تحت الأشجار. وبالإجمال فإن الخوف الذي حام حولي كان ضَربًا مَجهولًا وهائِلًا من ضروب الخوف، لا يشبه من قريبٍ أو بعيدٍ أيَّ شَيءٍ قد شَعَرتُ به من قبل، حتى أنه أيقظ فيَّ شعورًا بالرَّهبَة والاندهاش بَذَلتُ الكثير من الجهد لمواجهة أسوأ آثاره، وعندما بَلَغتُ نُقطَةً مرتفعةً في منتصف الجزيرة يمكنني منها أن أرى الامتدادَ المُتَّسِعَ للنهر، بلونه القُرمزيِّ تحت ضَوء الشمس، كان جَماله السِّحريُّ طاغيًا بكامل بَهائه، حتى إن نوعًا من الشوق الوحشي استيقظ بداخلي، وكاد يدفع بصرخةٍ إلى حلقي.

لكن هذه الصرخة لم تجد لها مَنفَذًا، فعندما جالت عيناي من السَّهل رجوعًا إلى الجزيرة من حولي، ووَقَعَتا على خيمَتِنا الصغيرة نصف مُختَفِيَة وسط الصَّفصاف، قفز إلى وجهي اكتشافٌ مُروِّعٌ، بدا فَزَعي من الرِّياح التي تمشي شيئًا لا يُذكَرُ مُقارَنَةً به.

لأنني وجدتُ تَغيُّرًا قد طرأ على تنسيق المشهد بشكلٍ ما. لم يَكُن الأمر أن زاوية النظر تمنحني رؤيةً مختلفة، بل أن تَغيُّرًا قد أثَّر بوضوح على علاقة الخَيمَة بالصفصاف، والصفصاف بالخيمة. إن الشجيرات تحتشد الآن على مقربةٍ أكبر، بشكل غير ضروري، وغير مريح. لقد تحرَّكت مُقتربة.

كان الصفصاف قد اقترب خلال الليل، زاحِفًا بأقدامٍ صامِتَةٍ على الرمال المُتحرِّكة، مُقتَرِبًا بحركاتٍ ناعمة مُتمهِّلَةٍ غير ملحوظة. لكن أتكون الرِّيحُ قد حَرَّكَته، أم أنه قد تحرَّك من تلقاء نفسه؟ استرجعتُ صوت الطقطقات الصغيرة اللانهائيَّة، والضغط على الخيمة، وعلى قلبي- الذي أدَّى إلى إيقاظي مَفزوعًا. مَلَّت مع الرِّيح للَحظَةٍ مثل شجرة، مُلاقِيًا صعوبةً في الحفاظ على وضعي مُستَقيمًا على الربوة الرَّمليَّة.

كان هناك إيحاءٌ بقوَّةٍ مُسَيطِرَة، نِيَّةٍ مُتعمَّدَة، عدوانيَّةٍ عَنيفة، وقد أثار هذا رُعبي بشكلٍ قاسٍ.

ثم أتى رَدُّ الفعل سريعًا. كانت الفكرة غريبةً للغاية، وعبثيَّةً للغاية، حتى إنني شَعرتُ بالرغبة في الضحك، لكن الضحك لم يَكُن أكثرَ سهولةً من الصُّراخ؛ لأن معرفتي بأن عقلي كان مُنفَتِحًا لمثل هذه التَّخيُّلات الخطيرة جَلَبَت عليَّ رُعبًا إضافيًّا من أن الهجوم يمكن أن يأتي من خلال عقولنا وليس من خلال أبداننا، وقد كان آتِيًا.

طوَّحَتني الرِّيحُ، وصَعَدَت الشَّمسُ فوق خَطِّ الأفق، بسرعةٍ على ما يبدو، فقد كانت الساعة الرابعة، ولا بُدَّ أنَّني مَكَثتُ على هذه القِمَّة الرَّمليَّة الصغيرة أطولَ ممَّا كنتُ أتصوَّر، خائِفًا من الهبوط إلى مناطِقَ مُتاخِمَةٍ للصَّفصاف. عُدتُ إلى الخيمة في هدوءٍ، ورُعبٍ، بعد أن ألقيتُ نظرةً أخرى مُرهَقَة من حولي، وأجريتُ بعض القياسات

-نعـم، أعـترفُ بذلـك- قِسـتُ المسـافة بـين الصفصـاف والخيمـة بخطـواتي علـى الرمـال الدافئـة، مُدَوِّنًـا ملاحظـةً عـن أقـصر مسـافة بوجـه خـاصٍّ.

زَحفـتُ تحـت غطـائي خلسَـةً. كان صاحبـي، كـما هـو واضـح، لا يـزال يَغُـطُّ في نومـه، وكنـتُ مَسرورًا بذلـك. عِلـمًا بـأن خـبراتي لم تكُـن مُؤكَّـدَة، فربمـا كان بوسـعي -بطريقـةٍ مـا- أن أجـد القُـوَّةَ اللازمـة لِنَفيِهـا. يمكننـي في ضـوء النَّهـار أن أُقنِـعَ نفـسي بأنهـا كانـت هـلاوِسَ ذاتيَّـةً كُلَّهـا، خيـالات الليـل، انعكاسًـا مـن خيـال مُسـتَثار.

لم يطـرأ أيُّ جديـدٍ يُزعِجنـي، ووقَعـتُ في النـوم مـرَّةً واحِـدةً تقريبًـا، كنـت مُجهَـدًا تمامًـا، ولا أزال خائِفًـا، مـع ذلـك، مـن سـماع ذلـك الصـوت الغريـب للطَّقطَقـاتِ المُتعـدِّدَة مـرَّةً أخـرى، أو مـن الشـعور بالضغـط عـلى قلبـي الـذي قـد جعـل مـن تنفُّـسي أمـرًا صعبًـا.

كانـت الشـمس في كَبِـد السَّـماء عندمـا أيقظنـي صاحبـي مـن نـومٍ ثقيـلٍ، وأَعلَـنَ أن العصيـدة قـد أُعِـدَّت، ولم يَبْـقَ وقـتٌ سـوى للاسـتحمام. دخَلَـت الرائِحَـةُ المُحبَّبَـة للحـم الخنزيـر المُقـدَّد مـن بـاب الخيمـة.

قال:

- لا يزال النَّهرُ يرتفع.

وأضاف:

- والعديـد مـن الجُـزُر في منتصـف المجـرى قـد اختفـت تمامًـا. إن جزيرتنـا أصغـر منهـا كثـيراً.

سألتُه بصوتٍ ناعِسٍ:

- هل بَقِيَت أيَّةُ أخشابٍ؟

أجابني ضاحِكًا:

- ستنتهي الأخشاب والجزيرة غدًا، في الدَّور النهائي.

وأضاف:

- لكنَّ لدينا ما يكفينا للبقاء حتى يحدث هذا.

غَطَستُ في الماء من رأس الجزيرة، التي كانت -بالتأكيد- قد تغيَّرَت في الحجم والشكل في أثناء الليل، وانحَدَرتُ في لحظةٍ إلى مكان الرُّسوِّ في مواجهة الخيمة. كان الماء مُثلَّجًا، والضفَّتان تنسابان عابِرَتَيْن كما ينساب الريفُ على جانِبَيْ قطار الإكسبريس. كان الاستحمام عمليَّةً مُنعِشَةً في مثل هذه الظروف، وبدا أن رُعبَ الليل قد أُزيل من داخلي بفِعلِ عمليَّةِ بَخْرٍ في الدِّماغ. كانت الشمس مُتَّقِدَةَ الحرارة، ما من سحابة تلوح في أيِّ مكان، مع ذلك، لم تكن الريح قد هدأت ولو بمقدار ذَرَّة.

لَمَع المعنى المستَترُ لكلمات السويدي داخلي على حين غِرَّة، كاشِفًا أنه لم يَعُد يرغب في الرحيل على وجه السرعة، وأنه قد غَيَّر رأيه. "ما يكفينا للبقاء حتى الغد"، افترَض أن علينا البقاء في الجزيرة لليلَةٍ أخرى. لقد صدمني إلى حَدٍّ كبير. في الليلة البارحة كان شديدَ الاقتناع بالرأي الآخر. كيف حدث هذا التغيُّر؟

عند الإفطار حَدَثَت انهياراتٌ كبيرة في الضِّفَّتَيْن، مُثيرَةً رشاشًا هائلًا وسحاباتٍ من الرَّذاذ، حَمَلَتها الريحُ إلى مِقلاتِنا، وتَحدَّث رفيقُ رحلتي بلا انقطاعٍ عن الصعوبة التي لا بُدَّ أن تلاقيها بواخِرُ ڤيينا- بيست في العثور على القناة في الفَيَضان. لكنني كنتُ مَشغولًا ومُتأثِّرًا بحالته الذهنية بدرجةٍ أكبر كثيرًا من انشغالي وتأثُّري بحالَةِ النَّهر والصعوبات التي تلاقيها البواخر. لقد تغيَّر على نحوٍ ما منذ مساء البارحة. كان سلوكه مُختَلِفًا: مُتحمِّس قليلًا، خَجول قليلًا، يشوب صَوتَه وإيماءاتِه قَدرٌ من الارتياب. أستطيع بالكاد أن أَصِفَ الأمرَ الآن بِدَمٍ بارد، لكنني أذكر كيف كنتُ وقتَها شِبهَ مُتأكِّدٍ من أمرٍ واحد، وهو أنه أصبح... خائِفًا؟ لقد أكل قَدرًا قليلًا جدًّا من وجبة الفطور، وعزف عن تَدخينِ

غُليونِـه عـلى غـير عادتـه. كان قـد بَسَـطَ الخريطـة مفتوحـةً إلى جـواره، وانهمـك في دراسَـةِ علامَاتِهـا.

- يُستَحسنُ بنا أن نرحل بعد ساعَةٍ بالضَّبط.

قُلتُها لِتـوِّي، مُتلمِّسًا مدخلًا قد يدفعه بشكلٍ غير مباشر إلى اعتراف جـزئيٍّ أيًّا كان. لكـنَّ ردَّه حـيَّرني عـلى نحـوٍ غـير مريح:

- إن كانوا سيسمحون لنا، على الأَصَحِّ!

سألته سريعًا، مُصطَنِعًا اللا مُبالاة:

- مَن الذي سيسمح لنا؟ عناصِرُ الطَّبيعة؟

- قوى هذا المكانِ البائس، أيًّا كانت.

أجاب، مُبقِيًا عينيه على الخريطة. ثم أضاف:

- إنَّ الآلهـة موجـودةٌ هنـا، هـذا إنْ وُجِـدَت بالأسـاس في أيِّ مـكانٍ في العـالم.

- عناصر الطبيعة هي دائمًا الآلهة الحقيقية.

أجَبـتُ، ضاحِـكًا بشـكل طبيعـي قـدرَ إمـكاني، كنـت أعلـم مـع ذلـك أن وجهـي فَضَـحَ مشـاعري الحقيقيَّـةَ عندمـا نظـر إليَّ بجدِّيَّـةٍ، وتكلَّـم مـن عـبر الدُّخـان:

- سنكون مَحظوظَيْن إن أفلتنا دون المزيد من المصائِب.

هـذا هـو بالضبـط مـا كنـتُ أخشـاه، لقـد أفسـدتُ الأمـر عـلى نفـسي حتـى اضطـرِرتُ للسُّـؤال المبـاشر. كنـتُ كَمَـن يمنـح طبيـبَ الأسـنانِ مُوافَقَتَـه عـلى خلـع ضرسـه، كان الأمـر ليحـدث عـلى كلِّ حـالٍ في المـدى البعيـد، والباقـي كان مُجـرَّدَ ذَريعَـةٍ.

- المزيدُ من المصائب! لماذا؟ ماذا حدث؟

قال بهدوء:

- من جِهَةٍ، اختفى مِجدافُ التَّوجيه...

- اختفى مجداف التَّوجيه!

كرَّرتُها بانفعالٍ شديد؛ لأن هذا كان بمثابَةِ الدفَّة لنا، والدانوب في الفَيَضان من دون دَفَّةٍ هو انتحار.

- لكن ماذا...

- وهناك شِقٌّ في قاع القارب.

أضاف بارتعاشةٍ خفيفَةٍ حقيقيَّة في صوته.

واصَلتُ التَّحديقَ فيه، غير قادِرٍ سوى على تكرار الكلمات في وجهه بحماقَةٍ إلى حدٍّ ما. هناك، في تَوَقُّدِ الشمس، وعلى هذه الرمال المحترقة، كنتُ مُدرِكًا أن جَوًّا مُتجمِّدًا يحلُّ علينا. نهَضتُ لألحق به، حيث لم يَزِد أن أتى بإيماءَةٍ جادَّةٍ من رأسه، وتَقَدَّم الطريقَ نحو الخيمة التي تَبْعُدُ ياردات قليلةً على الجانب الآخر من المَوقِد. كان القارب لا يزال مُلقًّى كما رأيتُه في الليل لآخر مرَّة، ضلوعه لأعلى، والمجدافان -أو بالأحرى: المجداف- إلى جانبه على الرِّمال.

- لا يوجد سوى واحد.

قالها، وهو يتوقَّف ليلتقطه، ثم أضاف:

- وها هو الخَرقُ في دُعامَةِ القاعدة.

كان على طرف لساني أن أخبره أنني قد لاحظتُ كِلَا المجدافَيْن بوضوحٍ قبل ساعاتٍ قليلة، لكنَّ خاطِرًا آخر دَفَعني للتَّروِّي في التفكير، ولم أتفوَّه بشيء. تقدَّمتُ لأرى.

كان هناك شَقٌّ طويلٌ، صُنِعَ بمهارة، في قاع القارب حيث كانت شريحةٌ من الخشب قد انتُزِعَت بنظافةٍ تامَّة، بدا وكأنَّ سِنَّ صخرةٍ

حـادَّةٍ أو جـذعٍ مكسـورٍ قـد التهمهـا بكامِـلِ طولِهـا، وظهـر بالفَحـصِ أن الثُّقـبَ كان نافِـذًا. لـو كنَّـا انطلقنـا بالقـارب دون أن نُلاحِـظَ الشَّـقَّ لَكُنَّـا غَرَقنـا حتـمًا. في البدايـة، كان مـن شـأن الماء أن يجعـل الخَشَـبَ ينتفـخ حتـى يسـدَّ الفجـوة، ولكـن بمجـرَّد خروجنـا لمنتصـف المجـرى لا بُـدَّ أن يتدفَّـق الماء إلى الداخـل، ولم يكـن ليرتفـع أكـثر مـن بوصتـين فـوق السـطح، إلَّا ويمتـلىء القـارب ويغـرق بمنتهـى السرعـة.

سَمِعتُه يقول، مُتوجِّهًا بالحديث إلى نفسه أكثر منه إليَّ:

- كما ترى، إنها محاوَلَةُ تَجهيز ضَحيَّةٍ لتقديمها كقُربانٍ.

ثم أضاف وهو ينحني إلى الأمام ويُمرِّر أصابعه على الشَّقِّ:

- ضَحيَّتَيْن على الأحرى.

بـدأت في الصَّفـير -وهـو الـشيء الـذي طالمـا فَعَلتُـه مـن دون وعـيٍ عندمـا أكـون مُشَوَّشًـا كُلِّيًّـا- وصَرَفـتُ انتباهـي عـن كلماتـه مُتعمِّـدًا. عَقَـدتُ العـزم عـلى اعتبارهـا سَـخافاتٍ.

قـال لفـوْرِه، وهـو يعتـدل مُنهِيًـا فَحصَـه وينظـر في أيِّ اتِّجـاهٍ غـير اتجاهـي:

- لم يكن موجودًا في الليلة الماضية.

توقَّفتُ عن الصَّفير لأقول:

- لا بُدَّ أننا حَكَكناه عند الرُّسُوِّ، بالتأكيد؛ فالصُّخورُ حادَّة للغاية.

توقَّفـتُ فجـأةً؛ لأنـه -عنـد تلـك اللحظـة- اسـتدار ونَظَـرَ في عينـيَّ مبـاشرةً. كنـتُ أعلـم، مثلـما كان يعلـم هـو، إلى أيِّ دَرَجـةٍ كان تفسـيري مُسـتحيلًا. لم تَعُـد لـديَّ أيَّـة حُجَـج.

- ولدينا هذا، بَعدُ، يحتاج لتفسيرٍ هو الآخر.

أضاف بهدوء، وهو يُناوِلُني المجداف مُشيرًا إلى طرفه.

أصابنـي شـعورٌ جديـد وغريـبٌ بالجُمـود عندمـا تناوَلـتُ المجـدافَ وفَحَصتُـه. كانـت راحَتُـه مكشـوطَةً مـن كُلِّ جِهَـة، كُشِـطَت بجَـمالٍ، كـما لـو كان أحدُهُـم قـد صَنْفَرَهـا بعنايـة؛ مـمَّا جعلهـا رقيقـةً للحَـدِّ الـذي قـد يُتيـح لأيِّ ضربَـةٍ قويَّـةٍ أن تَبتُرَهـا مـن عنـد المرفَـق.

قلتُ بصوتٍ واهِنٍ:

- أحدُنـا قـد سـار في نومـه وفعلهـا، أو... أو رُبَّمـا الرِّيـحُ قـد دَفَعَـت تيَّـارَ حُبَيبـات الرَّمـل المُنتَظِـم تجاهَهـا فكَشَـطَها.

استدار السويديُّ مُبتَعِدًا، وهو يضحك قليلًا، وقال:

- آه، تستطيع أن تُفسِّر كُلَّ شيء.

صِحتُ من خلفه:

- هــي نفـس الريـح التــي حَمَلَـت مجـدافَ التَّوجيـه وطَوَّحَتـه بالقُـرب مــن الضِّفَّــة ليســقط مــع أوَّلِ كُتلَــةٍ مُنهــارَةٍ.

كنتُ عازِمًا كلَّ العزم على الإتيان بتفسيرٍ لِكُلِّ شيءٍ طَرَحَه عليَّ.

- هو كذلك.

ردَّ عــليَّ الصيــاح، مُديـرًا رأســه لينظـر إليَّ قبـل أن يختفــي وســط شُــجَيرات الصَّفصــاف.

بمجـرَّد أن أصبَحـتُ بمفـردي مـع هـذه الأَدِلَّـة المُحـيِّرة عـلى وجـود قـوَّةٍ مُسَـيطِرَة، أظـنُّ أن أولى أفـكاري كانـت عـلى هيئـة: لا بُـدَّ أنَّ أحدنـا قـد قـام بهـذه الأمـور، ومـن المُؤكَّـد أنَّـه ليـس أنـا. لكـنَّ فِكـرَتي الثانيـة جَزَمَـت بأنـه كان مـن المُستَحيل بمـكانٍ أن أفـتِرَض -تحـت أيِّ ظـرفٍ مـن الظُّـروف- أن أيًّـا مِنَّـا قـد فعـل ذلـك.

إن افـتراضَ أن صاحبـي، الصديـق المؤتَمَـن لعـشرات الرحـلات المُماثِلَـة، قـد تكـون لـه يـدٌ في ذلـك عـن قَصـدٍ، هـو افـتراضٌ لا يمكـن قبولـه أبـدًا.

ويبدو على نفس القدر من العَبَث التَّفسيرُ القائِلُ بأن هذه الطبيعة الهادِئَةَ والعملية على نحوٍ شديدٍ قد أصابها الخَبَلُ فجأةً وأصبحت مُنشَغِلَةً بمآرِبَ جُنونيَّةٍ.

مع ذلك، تَظَلُّ الحقيقة أن أكثرَ ما أزعجني، وأبقى على مخاوفي حيَّةً حتى في هذه الشمس المُتوهِّجة وهذا الجَمال البَرِّيِّ، هو التَّيقُّن الواضح من أن تَبَدُّلًا غريبًا ما قد طرأ على عقله -أصبح عصبيًّا، مُتَهيِّبًا، مُرتابًا، مُدرِكًا لما يجري ولا يريد أن يتحدَّث عنه، يراقب سلسلةً من الأسرار والأحداث التي لا يُمكِنُه ذِكرُها- مُنتَظِرًا، باختصارٍ، الذُّروة التي يتوقَّعها، والتي أظنُّ أنه يتوقَّعها في القريب العاجل. نشَأَت هذه الفكرةُ في عقلي بشكلٍ حَدْسيٍّ، لم أكَد أعرف كيف.

أجريتُ فَحصًا مُتَعجِّلًا للخيمة وما يحيط بها، لكنني وجَدتُ أن قياسات الليل بَقِيَت على حالها، هناك حُفَرٌ عميقةٌ قد تَشكَّلَت في الرمال كنتُ أُلاحِظُها لأوَّلِ مَرَّة، اتَّخَذَت هيئةَ آنِيَةٍ ذات سعاتٍ وأعماق مختلفة، تتراوح من حجم كوب الشاي إلى حجم وعاء كبير. كانت الرِّيح -بلا شَكٍّ- هي المسؤولة عن هذه الحُفَر المُنمنَمَة، تمامًا كما كانت هي المسؤولة عن تحريك المجداف والإطاحة به في الماء. يبدو أن خَرْقَ القارب كان الشيءَ الوحيدَ الذي استعصى على التفسير، ومع ذلك، بالإمكان تَخيُّل أن نتوءًا حادًّا قد أصابه عندما كُنَّا نرسو. لم يُدعِّم الفحص الذي أجرَيتُه للشاطئ هذه النظرية، لكنني، بالرغم من ذلك، تشبَّثتُ بها اعتمادًا على ذلك الجانب المُتقلِّص من إدراكي الذي أدعوه "المنطق". كانت هناك حاجة ماسَّةٌ إلى تفسيرٍ من أيِّ نوع، تمامًا، كالحاجة إلى أي تفسير مقبول للكون، مَهمَا كان سخيفًا، من أجل سعادة كل شخص يريد أن يؤدِّي واجبه في العالَم، وأن يواجه مشكلات الحياة. بدا لي التَّشبيهُ -في ذاك الحين- مُنطَبِقًا تمامًا.

وَضَعتُ القَطرانَ، على الفور، ليذوب، وانضمَّ إليَّ السويدي في العمل قبل قليل، على الرغم من أن القارب لن يكون آمِنًا للسَّفَر حتى اليوم التالي في أحسن الظروف. لَفَتُّ انتباهَه عَرَضًا إلى الحُفَر في الرمال، فقال:

- نعم، أعلم. إنها تنتشر في جميع أنحاء الجزيرة. لكنَّكَ تستطيع أن تُفسِّرَها، من دون شَكٍّ!

أجَبتُ بلا تَردُّدٍ:

- إنها الريح، بالطبع. ألم يسبق لك أن رأيتَ تلك الزَّوابِعَ الصغيرة في الشارع تدير وتُدوِّم كُلَّ شيء في دائرة؟ هذه الرِّمال سائِبَةٌ بما يكفي لتنصاع للريح، هذا كلُّ ما في الأمر.

لم يَرُدَّ، وعملنا في صَمتٍ لبُرهَةٍ. راقَبتُه خُفيَةً طوال الوقت، وكان لديَّ إحساسٌ أنه يُراقِبني. بَدَا، كذلك، أنه يُنصِتُ باهتمامٍ إلى شيءٍ ما، لا أستطيع أن أسمعه، أو ربما إلى شيءٍ ما، كان يتوقَّع سماعه؛ فقد داوَمَ على التَّلَفُّتِ من حوله والتحديق في الشُّجَيرات، وفي السماء من فوقه، وفي البُعدِ عَبرَ الماء حيث يكون مَرئيًّا من خلال الفراغات بين الصَّفصاف. حتى أنه أحيانًا كان يضع يده خلف أذنه ويُبقيها لدقائق عِدَّة. ولكنه لم يَقُل لي شيئًا عن الأمر، ولم أطرح أيَّ أسئلة. وبينما كان يُعالِجُ القارب المكسور بمهارَةِ وحِذْقِ هنديٍّ أحمر، كنتُ مسرورًا لملاحظة استغراقه في العمل؛ فقد كان بداخلي تَخوُّفٌ غامِضٌ من احتمال أن يتحدَّث عن التَّغيُّر الذي طرأ على هيئة الصَّفصاف. وإذا كان قد لاحظ ذلك، فلم يَعُد بوسع خيالي أن يقدِّم له تفسيرًا كافِيًا مُقنِعًا.

III

في نهاية المطاف، بدأ في الحديث، بعد صَمتٍ طويل:

- شيءٌ غريبٌ.

ثـم أضـاف بصـوتٍ مُتعجِّـلٍ نوعًـا مـا، كـما لـو كان يريـد أن يقـول شـيئًا وينتهـي منه:

- شيء غريب. أعني، ذلك القُندُس في الليلة الماضية.

كنـتُ أنتظـر شـيئًا مُختَلِفًـا تمامًـا، لدرجـة أنـه أصابنـي بالدهشـة، فنَظَـرتُ لأعـلى بحـدَّة، وقلـتُ:

- إنـه يُظهِـرُ مـدى وحشـة هـذا المـكان؛ فالقَنـادِسُ كائِنـاتٌ خَجولَـةٌ إلى حَـدٍّ بعيـد...

قاطَعَني قائِلًا:

- لم أَقصِد ذلك، بالطَّبع.

ثم أضاف:

- أقصد، هل تَظنُّ -هل ظَنَنتَ- أنه كان قُندُسًا حقًّا؟

- وماذا يكون غيرَ ذلك، ماذا قد يكون، بحَقِّ السماء؟

- أنـتَ تعلـم، إنني رأيتُـه قَبلَـك، وقـد بَـدَا لي، لأوَّلِ وَهلَـةٍ، أكـبرَ كثـيرًا مـن أن يكـون قُندُسًـا.

أجَبتُه:

- لقـد كَـبَّره غُـروبُ الشـمس، عندمـا نظـرتَ إلى الناحيـة الأخـرى مـن المجـرى، أو شيءٌ مـن هـذا القبيـل.

تطلَّـع إليَّ شـارِدًا للحَظـةٍ، وكأنمـا كان عقلـه مُنشَـغِلًا بأفـكارٍ أخـرى، ثـم قـال، مُحدِّثًـا نفسـه إلى حـدٍّ مـا:

- كانت عيناه صَفراوين على نحوٍ غير معهود.

- هذه كانت الشمس أيضًا.

ضَحِكتُ، بقَهقَهةٍ طفيفة، ثم أَضَفتُ:

- أتوقَّع أن تتساءل الآن إذا كان ذلك الرَّفيق في القارب...

قـرَّرتُ فجـأةً ألَّا أُكمِـلَ الجُملَـةَ. كان قـد عـاد إلى وضـع الإصغـاء، مُديـرًا رأسَـه تجـاه الريـح، وجعلنـي شيءٌ مـا، في تعبـير وجهـه، أتوقَّـف عـن الكلام. تركنـا الموضـوع، وانخرطنـا مـن جديـدٍ في سَـدِّ الشَّـقِّ. لم يَبْـدُ أنـه قـد انتبـه لجُملَتـي غـير المُنتَهِيـة. إلَّا أنـه -بعـد مـرور خمـس دقائـق- تطلَّـع نحـوي مـن فـوق القـارب، مُمسِـكًا في يـده بالقَطـران الـذي يتصاعـد منـه الدُّخـان، وقـد تَجهَّـم وجهُـه إلى حـدٍّ بعيـد.

- لَشَدَّ ما تساءلتُ، إذا أردتَ أن تعرف.

قالها ببطءٍ، قبل أن يضيف:

- أذكر أنني كنتُ أفكِّر وقتَها أن ذلك الشيء على مَتْنِ القارب لم يَكُن إنسانًا، بَدَا أن الأمر بِرُمَّتِه قد خرج من الماء على حين غِرَّة.

ضَجَجتُ بالضحك في وجهه مرَّةً أخرى، لكنني شعرت في هذه المرَّة بنَفادِ صبري، وبضَغطِ الغَضَبِ على أعصابي، فصِحتُ به:

- انظُرْ إليَّ الآن، هذا المكان غريبٌ بما يكفي من دون أن نَجْنَحَ لتَخَيُّلِ أشياء! ذلك القارب كان قاربًا عاديًّا، والرجل على متنه كان رَجُلًا عاديًّا، وكلاهما كانا مُنطَلِقَيْن مع التَّيَّار بأقصى سرعةٍ مُمكِنَة. والقُندُس كان قُندُسًا، فدَعْنا لا نتحامَق بهذا الخصوص!

تطلع إليَّ في ثباتٍ بتعبير التَّجهُّم ذاته. لم يَكُن به أدنى انزعاج. شَجَّعَني صَمتُه، فواصَلتُ:

- وبحَقِّ السماء، لا تُواصِلْ التَّظاهُرَ بأنك تسمعُ أشياء؛ لأن هذا لا يُجدي نَفعًا سوى في إخافتي، وليس هناك ما تَسمَعُه سوى النَّهرِ وهذه الرِّيحِ العجوز اللعينة الهادِرَة.

أجاب بصوتٍ خفيضٍ مصدوم:

- أنت أحمقُ!

ثم أضاف هازِئًا بصوتٍ تشوبُه نبرةُ ازدراء، وقَدْرٍ من الإحباط:

- أنت أحمقُ كُلِّيًّا، تلك بالضبط هي الطريقة التي يتكلَّم بها كل الضحايا. كما لو كنتَ لم تُدرِك الأمرَ بالقدر نفسه الذي أُدرِكُه أنا به!

ثم أضاف:

- إن أفضل شيءٍ يُمكِنُكَ فِعلُه هو أن تبقى هادِئًا، وتحاول أن تحتفظ بثبات عَقلِكَ قدرَ الإمكان. هذه المحاولة البائسة

لخـداع الـذات سـتؤدِّي فقـط إلى جعـل الحقيقـة أصعـبَ عندمـا تُضطـرُّ إلى مواجهتهـا.

لقـد بـاءَت محاولتـي المتواضِعَـة بالفشـل، ولم يَعُـد لـديَّ شيء أقولـه؛ لأننـي كنـتُ أعلـم تمـامَ العلـم أن كلماتـه كانـت صادِقَـةً، وأننـي كنـتُ الأَحمَـقَ، لا هـو. ظـلَّ يتقدَّمنـي بسـهولة حتـى مرحَلَـةٍ مُعيَّنَـةٍ مـن المغامـرة، وأظـنُّ أننـي شـعرتُ بالانزعـاج لأننـي كنـتُ مُغيَّبًـا، الأمـر الـذي يُبيِّن أننـي أقـلُّ منـه تَبَـصُّرًا وحساسـيةً تجـاه هـذه الأحـداث غـير العاديـة، وأننـي كنـتُ شِبهَ جاهِـلٍ طيلـةَ الوقـت بمـا يجـري تحـت أنفـي مباشرةً. كان -عـلى مـا يبـدو- يـدرك الأمـرَ منـذ بداياتـه المُبكِّـرة. لكـن آنـذاك فاتنـي تمامًـا المغـزى مـن وراء كلماتـه عـن ضرورة وجـود ضحيَّـةٍ، وأنـه كان مُقـدَّرًا لنـا أن نلبِّـي هـذه الحتميَّـة. مـن حينهـا، أسـقطتُ كلَّ ادِّعـاءٍ، لكـن مـن حينهـا، كذلـك، زاد خـوفي بشـكل مُطَّـرِد حتـى بلـغ الـذُّروَة.

قال قبل أن يُغلق الموضوع:

– لكنَّـكَ كُنـتَ مُحِقًّـا تمامًـا بخصـوص شيءٍ واحـد. وهـو أنـه مـن الحكمـة ألَّا نتكلَّـم عـن الأمـر، أو حتـى نفكِّـر فيـه؛ لأن مـا يُفكِّـر فيـه المـرءُ يفصـح عـن نفسـه في الكلـمات، ومـا يقولـه المـرءُ؛ يتحقَّـق.

بعـد ظُهـر ذلـك اليـوم، بينـما كان القـارب يَجِـفُّ ويتصلَّـب، أنفقنـا الوقـتَ في محـاولاتٍ لصيـد السـمك، وفي اختبـار التَّسَرُّب، وجَمْع الأخشـاب، ومُراقَبـة الفيضـان الهائـل للميـاه المرتفعـة. كانـت كُتَـلُ الأخشـاب الطافيـة تندفـع عـلى مقربـةٍ مـن شـواطِئِنا في بعـض الأحيـان. وكُنَّـا نلتقطهـا باسـتخدامِ فَـرعِ صَفصـافٍ طويـل.

أصبحَـت الجزيـرةُ صغـيرةً بشـكلٍ ملحـوظٍ؛ إذ جُرِّفَـت الضفـاف برَشـاشٍ وتَجرُّعـاتٍ ضَخمـة. ظـلَّ الطَّقـسُ صَحـوًا عـلى نحـوٍ رائـع حتـى السـاعة الرابعـة تقريبًـا، ثـم أظهـرت الرِّيـحُ علامـاتٍ عـلى تراجُعِهـا للمـرة الأولى

علـى مـدى ثلاثـة أيـام. بـدأت السُّحُب تتجمَّع في الجنـوب الغـربي، ثـم انتـشرت ببـطءٍ عـلى صفحـة الـسماء. أتى انحسـار الريـح هـذا بمثابـة ارتيـاحٍ كبـير؛ لأن الـدَّويَّ والقَـرعَ والإرعـادَ المُتواصِلَـيْن قـد وتَّـروا أعصابنـا. مـع ذلـك، حـلَّ الصَّمـتُ مـع تَوقُّفهـا المفاجـئ، قُرابَـة الساعة الخامسـة، بطريقَـةٍ مُزعِجَـة للغايـة. بعـد ذلـك، احتـوى هديـرُ النَّهـر كُلَّ شيء بطريقتـه الخاصَّـة، فمـلأ الهـواءَ بدَمدَمَـةٍ عميقـة، أكـثر موسـيقيَّةً مـن ضوضـاء الريـح، لكنهـا أكـثر رتابَـةً إلى حـدٍّ بعيـد. اشـتَمَلَت الرِّيـحُ عـلى نغـمات عديـدة، مرتفعـة، وهابطـة، تُوَقِّـع دائمًـا بلَحـنٍ طبيعـيٍّ عظيـم، بينـما تَقَـعُ أغنيـةُ النَّهـر بـين ثـلاث نغـماتٍ عـلى الأكـثر، نغـمات متواصِلَـة باهِتَـة، تحتـوي عـلى طابَـعٍ حَزيـنٍ مُتنافِـرٍ مـع الريـح، وبطريقـةٍ مـا، بـدا لي، في حالتـي العصبيَّـة حينهـا: إنهـا ترديـدٌ رائِـعٌ لموسـيقى الفَنـاء.

كان مـن غـير العـادي -كـذلـك- أن يذهـب الانسـحابُ المفاجـئ لضـوء الشـمس السـاطع بـكل شيءٍ يبعـث عـلى البهجـة في المنظـر الطبيعـي. وحيـث أن هـذا المنظـر تحديـدًا قـد أمكَنَـه بالفعـل أن يوحـي بشـؤم مـا، فبالطبـع أصبـح التَّغيـيرُ لافِتًـا للنظـر وغـير مُستَحَبٍّ عـلى نحـوٍ أكـبر. أعلـم أن المنظـر المتزايِـدَ في القَتامَـةِ أصبـح أكـثرَ إثـارةً لتَوجُّـسي بشـكلٍ واضـح، وضَبَطـتُ نفـسي -أكـثرَ مـن مـرَّةٍ- أحسـب الوقـت الـذي قـد يسـتغرقه البـدر، بعـد غـروب الشـمس، ليظهـر في الـشرق، ومـا إذا كانـت الغيـوم المُتجمِّعَـة سـتؤثِّر بشـكل كبـير عـلى إضاءتـه للجزيـرة الصغـيرة.

في ظـلِّ ذلـك السـكون الشـامل للريـح، التـي لا تـزال -عـلى الرغـم مـن ذلـك- مُستَرسِـلَةً في هَبَّـاتٍ قصـيرة مُتقطِّعَـة، بـدا لي أن النهـر يـزداد اسـودادًا، وشـجيرات الصفصـاف كثافـةً. حافَظَـت الأخـيرة، كذلـك، عـلى نـوعٍ مـن الحركـة المسـتقلَّة الخاصـة بهـا، مُخَشخِشَـةً فيـما بينهـا عندمـا لا تُحرِّكهـا الريـح، ومُهتـزَّةً بغرابـة مـن جذورهـا إلى أعـلى. عندمـا تصبـح الأشـياء المألوفـة مشـحونَةً بإيحـاءات مُرعِبَـةٍ، بهـذه الطريقـة، فإنهـا تُحفِّـز الخيـال أكـثر بكثـير مـن الأشـياء ذات المظهـر غـير المألـوف. وهـذه

الشجيرات المُحتَشِدَة حولنا، صَوَّرَت لي، في الظلام، مَظهرًا غريبًا بَشِعًا أَكسَبَها -بطريقةٍ أو بأخرى- هيئةَ كائناتٍ حَيَّةٍ وذات إرادة. شعرتُ أن أُلفَتَها الشديدة كانت تحجب ما هو خبيثٌ وعَدائيٌّ تجاهنا. اقترَبَت قوى المنطِقَةِ أكثر مع حلولِ الليل. كانت تتركَّز فوق جزيرتنا، وبشكلٍ أخَصَّ فوقنا نحن. فهكذا، بطريقةٍ ما، وبِلُغَةِ الخيال، قد أعلَنَت مشاعري، التي لا تُوصَفُ حقًّا في هذا المكان العجيب، عن نفسها.

كنتُ قد أخذت قِسطًا وافِرًا من النوم في فترة بعد الظهيرة الباكرة، وهكذا قد تعافَيتُ إلى حَدٍّ ما من إرهاق ليلة مؤرِّقة، لكن هذا لم يُؤدِّ -على ما يبدو- سوى إلى جعلي أكثر عُرضَةً من ذي قبل إلى تعويذة المكان المُلِحَّة. ناضَلتُها باللجوء إلى التفسيرات السيكولوچية شديدة البداهة، هازِئًا بمشاعري على اعتبارها سخيفةً وطفوليَّةً، ومع ذلك -على الرغم من كل الجهود- فقد اكتَسبَت سطوةً عليَّ، حتى إنني كنتُ فَزِعًا من الليل كما ينبغي على طِفلٍ تاه في الغابة أن يَفزَعَ من اقتراب الظلام.

في أثناء النهار كُنَّا قد غطَّينا القارب بعنايةٍ، مُستَخدِمين غطاءً مقاوِمًا للماء، وربط السويدي المجدافَ المتبقِّي بإحكامٍ إلى قاعدة شَجَرَةٍ؛ مَخافَةَ أن تَسلبَنا الرِّيحُ إيَّاه هو الآخر. بدءًا من الساعة الخامسة شَغَلتُ نفسي بإناء اليَخْنَة وتجهيزات العشاء، كان دوري في الطبخ تلك الليلة. كان لدينا بطاطس وبصل، وفُتاتٌ من دهن الخنزير لإضفاءِ نَكهَةٍ، وبقايا سميكَةٌ مُتنوِّعة على قعر الإناء من الطَّبخات السابقة، بإضافة كِسراتٍ من الخبز الأسود إليها؛ تصبح النتيجة بديعةً للغاية، وتُتبَع بيَخنَةِ البرقوق بالسُّكَّر، ومنقوع الشاي القويِّ مع اللبن المُجفَّف. وجودُ كَومَةٍ وافِرَةٍ من الخشب في مُتناوَلِ اليَدِ، وغيابُ الرِّيح، سَهَّلَا من قيامي بواجباتي. جلس صاحبي يراقِبُني في كسلٍ، مُوزِّعًا انتباهه بين تنظيف غليونه وإسداء النصح عديمِ النفع، امتياز مسموح به لرَجُلٍ خارج خدمته. لقد كان هادِئًا طوال

ما بعد الظهيرة، انهمَكَ في إعادة ملء فجوة القارب، وتعزيز حبال الخيمة، والسَّعي وراء الأخشاب الطافية بينما كنتُ نائمًا. لم نتبادل المزيد من الحديث عن الأشياء غير المرغوبة، وأعتقد أن ملاحظاته الوحيدة قد تعلَّقَت بالدمار التدريجي للجزيرة، التي صرَّح بأنها لم تَصغَرْ بمقدار الثُّلُث عمَّا كانت عليه لدى نزولنا عليها.

كان الإناء قد بدأ يُبَقبِقُ لتوِّه عندما سَمِعتُ صوتَه يُناديني من عند الضفَّة، حيث راح يتسكَّع من دون أن ألاحظه. ركضتُ مُسرِعًا.

قال:

- تعالَ وأنْصِتْ، ولْتَرَ ماذا أنتَ صانعٌ.

رفع يده إلى أذنه على هيئة كوب، كما فعل في كثير من الأحيان من قبل. ثم سأل متطلِّعًا إليَّ باستغراب:

- الآن، هل تسمع أي شيء؟

وقفنا هناك، نصغي معًا بانتباه. في البداية، لم أسمع سوى النغمة العميقة للمياه والهسيس المتصاعِد من سطحها المضطرب.

كان الصفصاف ساكِنًا وصامِتًا، لأوَّل مرَّة. ثم بدأ صوتٌ يَصِلُ إلى مسامعي بوَهَنٍ، صوت غريب، شيء يشبه طنين جونج[1] بعيد. بَدَا أنه يأتي عبر خرائب المستنقعات والصفصاف المقابِلَة مُتَّجِهًا نحونا في الظلام. كان يتكرَّر على فتراتٍ مُنتَظِمَة، لكنه -بكلٍّ تأكيد- لم يكن صوتَ جَرسٍ ولا صفير باخِرَةٍ بعيدة. لا أستطيع أن أُشَبِّهَه بشيء أكثر قُربًا له من صوت جونج عملاق، عُلِّق بعيدًا في السماء، مُكَرِّرًا نغمته المعدنية المكتومة بشكل مستمرٍّ، ناعمة وموسيقية، كما لو كان يُطرَق في تَلاحُق. تسارَعَت ضرباتُ قلبي بينما كنتُ أُنصِتُ.

---

(1) آلة موسيقية إيقاعية، عبارة عن قُرصٍ من المعدن، يُصدر طنينًا عند طَرْقِه بمطارِقَ ذات رؤوسٍ ليِّنة، تنتشر في شرق وجنوب شرق آسيا.

قال صاحبي:

- لقد سَمِعتُها طيلةَ اليوم، أتَت من كلِّ مكان في الجزيرة بينما كنتَ نائِمًا فيما بعد الظهيرة. سَعيتُ وراءها، لكنني لم أتمكَّن قَطُّ من الاقتراب بما يكفي للفهم، لم أتمكَّن من تحديد موقعها بشكلٍ صحيحٍ. كانت في الهواء أحيانًا، وفي أحيانٍ أخرى، بَدَت وكأنَّها تحت الماء. مرَّةً أو مرَّتَيْن، أيضًا، كنتُ لَأُقسِمُ أنها لم تَكُن في الخارج على الإطلاق، بل في ثنايا ذاتي، أنتَ تعرف، الطريقة التي يُفترَض أن يصدر بها الصوتُ في البُعدِ الرابع.

كنتُ أكثرَ ارتباكًا من أنْ أُولي اهتمامًا كبيرًا لكلماته. أَنصَتُّ بعناية، ساعِيًا لربطه بأي صوت مألوف أو معروف أستطيع أن أُفكِّر فيه، لكن لم يُحالِفْني النجاح. كان يُغيِّر من اتجاهه، أيضًا، يدنو مُقتَرِبًا، ومن ثَمَّ يَخفُتُ تمامًا على مسافة نائِيَة. لا أستطيع القول إنه كان ذا طبيعة مُنذِرَةٍ بالسُّوء؛ لأنه بَدَا لمسامعي موسيقيًّا بامتياز، مع ذلك، يجب أن أُقرَّ بأنه تسبَّب لي في شعور مُزعِجٍ جعلني أتمنَّى لو لم أَكُن قد سَمِعتُه قَطُّ. قلتُ مُصمِّمًا على إيجاد تفسير:

- إنَّها الريح تنفخ في هذه الأقماع الرَّمليَّة، أو أنه الصَّفصاف يَحتَكُّ بعضُه ببعض من أثر العاصفة، ربَّما.

أجاب صديقي:

- إنها تَصدُر عن المُستَنقَعِ بأكمَلِه.

ثم واصل مُتجاهِلًا تفسيراتي:

- إنها تأتي من كلِّ مكان في نفس الوقت.

- إنها تَصدُر عن شُجَيرات الصَّفصاف بطريقة ما...

اعترضت قائِلًا:

- لكن الرِّيحَ انحَسَرَت الآن.

أجابني:

- مـن الصعـب أن يثـير الصَّفصـافُ ضَجَّـةً مـن تلقـاء نفسـه، هـل بوسـعه أن يفعـل ذلـك؟

أجْفَلَتنـي إجابَتُـه؛ أوَّلًا لأننـي كنـتُ أخشـاها، وثانيًـا، لأننـي كنـتُ أعـرف أنَّهـا صحيحـة.

- لأن الريـح قـد انحسـرت، بوسـعنا الآن أن نسـمعها. كانـت محجوبةً مـن قبل. أعتقـد أنهـا صراخ الـ..

انطلقـتُ عائِـدًا إلى النـار؛ فقـد نَبَّهَنـي صـوتُ البَقْبَقَـةِ أن اليَخنَـة كانـت في خطـر، لكننـي كنـت عازمًـا، في نفـس الوقـت، عـلى التَّملُّـص مـن أي حديـث آخـر.

كنـت مُـصِرًّا -إنْ أمكَـنَ- عـلى أن أتجنَّـب تبـادُلَ وجهـات النظـر. خشـيتُ، أيضًـا، أنـه قـد يبـدأ في الحديـث عـن الآلهـة، أو قـوى عنـاصر المـكان، أو شيء آخـر مُزعِـج، وأَرَدتُ أن أبقـى مُتمالِـكًا نفسي بشـكلٍ جيِّـد تَحسُّـبًا لمـا قـد يحـدث لاحِقًـا، كانـت هنـاك ليلـة أخـرى ينبغـي علينـا مواجَهَتُهـا قبـل أن نَفِـرَّ مـن هـذا المـكان الموحِـش، ولم نكـن عـلى درايـةٍ -بَعـدُ- بمـا قـد تجلبـه علينـا.

- تعال وقطِّع الخُبزَ لإضافته في الإناء.

اسـتَدعَيتُه، مُحـرِّكًا الخليـط الشَّـهيَّ بحـماس. إن وعـاء اليَخنَـة ذلـك يَحفَـظُ لنـا قُوانـا العقليـة، جعلتنـي الفِكـرةُ أضحـك.

جـاء ببـطءٍ، وأخـذ كيـس المُـؤَن مـن عـلى الشـجرة، مُتحَسِّـسًا أعماقـه الدفينـة، قبـل أن يُفـرِغَ كامِـلَ محتوياتـه عـلى غطـاء أرضيـة الخيمـة عنـد قَدَمَيْـه.

صِحتُ به:

- أَسرِعْ، إنها تغلي.

انفجر السويديُّ في مَوجَةٍ من الضحك أذهلتني. كان ضحكًا قَسريًا، لم يكن مُصطنَعًا بالضَّبط، إنما كان مُتكَلَّفًا.

وضع يديه على خاصِرَتَيْه صائِحًا:

- لا يوجد شيء هنا.

وأضاف:

- أعني الخُبزَ، لقد اختفى. ليس هناك خُبزٌ. لقد استَولَت عليه.

أسقَطتُ الملعقةَ الطويلة وركَضتُ، كان كلُّ شيء قد احتواه الكيسُ مُلقًى على غطاء الأرضية، لكن لم يَكُن هناك أي أرغفة.

سقط على عاتقي كامِلُ الحِمل الثقيل؛ لخوفي المتزايد، وهَزَّني. ثم انفجَرتُ في الضحك أنا الآخر. كان الشيءَ الوحيد الذي يُمكِن فِعلُه، وجعلني صوتُ ضحكي أيضًا أتفهَّم ضحكه. هذا الانفجار في الضحك غير الطبيعيِّ الذي أصابنا، نشأ عن الضَّغطِ النَّفسي. كان مُحاوَلَةً من قوى مكبوتةٍ تَنشد الرَّاحَةَ، كان صمام أمانٍ مؤقَّت.

وتوقَّفنا عن الضحك بشكلٍ مفاجئٍ تقريبًا. ثم صِحتُ قائِلًا:

- يا لي من غبيٍّ كبير!

لا زِلتُ مُصمِّمًا على البقاء ثابِتًا على مبدئي والبحث عن تفسير.

- لقد نسيتُ تمامًا أن أشتري رغيفًا في بريسبورج، هذه المرأة الثرثارة أطارَت كلَّ شيء من رأسي، ولا بُدَّ أنني تركتُه على الطاولة أو...

قاطعني السويدي قائلًا:

- كذلك الشُّوفان، أصبح أَقَلَّ كثيرًا ممَّا كان عليه هذا الصباح.

فكَّرتُ غاضبًا "ما الذي قد يدعوه -بحقِّ السماء- لِلَفْتِ الانتباه لهذا الأمر؟".

قلتُ وأنا أُحرِّك اليَخنَةَ بقوَّة:

- يوجد ما يكفي للغَدِ، وبوسعنا الحصولُ على المزيد في "كومورن" أو "جران". سنكون على مبعدَةِ أميالٍ من هنا في ظرف أربعٍ وعشرين ساعة.

- آمل من الرَّبِّ أن يَحدُثَ ذلك.

غَمغَمَ بذلك، وهو يُعيد الأشياء إلى الكيس، وأضاف بضحكةٍ حَمقاءَ:

- ما لم يُقدَّر لنا أن نكون ضحايا للقُربان قبل ذلك.

سحب الكيسَ إلى الخيمة؛ بداعي الاحتراز -على ما أظُنُّ- وسَمِعتُه يُغَمغِمُ إلى نفسه، لكن بشكلٍ غير واضح حتى بدا لي من الطبيعي أن أتجاهَلَ كلماتِه.

كانت وجبَتُنا بائِسَةً، بلا شَكٍّ، وتناولناها في صمتٍ تقريبًا، مُتفادِين عينَيْ أحدنا الآخر، ومُحافِظَيْن على النار مُتوهِّجَةً. بعد ذلك اغتسلنا وتحضَّرنا لِلَّيل، وبمجرَّد أن بدأنا التدخين، بأذهانٍ غير منشغلة بواجبات مُحدَّدَةٍ، أصبح التَّوجُّس -الذي قد شعرتُ به طيلةَ اليوم- أكثرَ حِدَّةً بكثير. لم يَكُن خوفًا نَشِطًا في حينها، على ما أظُنُّ، لكن الغموض الشديد لمصدره أصابني بالكَربِ أكثر بكثير ممَّا لو كنتُ قد استطعتُ تصنيفه ومواجَهَته بشكلٍ مباشر. إن الصوت الغريب، الذي شَبَّهتُه بصوت الجونج، أصبح الآن لا ينقطع تقريبًا، وملأ سكونَ الليل بِطَنينٍ خافت مُستمرٍّ أكثر منه سلسلةً من النغمات المُستقلَّة، كان يأتي مرَّةً من خلفنا، وأخرى من أمامنا.

كنتُ أخاله أحيانًا آتيًا من الشجيرات التي على يسارنا، ثم أحيانًا أخرى من الأَجَمات التي على يميننا. في كثير من الأحيان كان يُحلِّق في الهواء مباشرةً مثل رفرفة الأجنحة. كان -حقًّا- موجودًا في كل مكان

في وقتٍ واحدٍ: من الخلف، وإلى الأمام، وعلى جانبينا، وفوق رؤوسنا. كان يحيط بنا تمامًا. يستعصي الصَّوتُ حقًّا على الوصف. لكن ليس هناك شيء -في حدود عِلمي- يُشبِه تلك الهَمهَمَةَ المكتومة المتواصِلَة التي تصعد من عالَمِ الصفصاف والمستنقعات المهجور.

جلسنا ندخِّن في صمتٍ نِسبيٍّ، في كل دقيقة يزداد التَّوتُّر بقدرٍ أكبر. بدا لي أن أسوأ ما في الموقف هو أننا لا ندري ما الذي علينا أن نتوقَّعه، ولا يمكننا بالتالي اتِّخاذُ أيَّة تدابيرَ على سبيل الدفاع. لا يمكننا أن نحتاط لشيءٍ. جئتُ بتفسيراتي في ضوء الشمس، ثم، أتت الآن لتطاردني بطبيعتها الحَمقاءِ وغير المُرضِيَة بالمرَّة، وكان يتَّضِحُ لنا أكثرَ فأكثر أنه لا مَفرَّ من الحديث الصريح نوعًا ما مع صاحبي، سواء أحبَبتُ ذلك أم لم أُحِبَّه.

يتوجَّب علينا، في النهاية، أن نمضي الليلةَ معًا، وننام في نفس الخيمة جنبًا إلى جنب. أدركتُ أنه لا يسعني أن أمضي قُدُمًا من دون أن أنال المؤازَرَةَ من عقله؛ ولهذا -بالطبع- كان الحديث الصريح واجبًا. مع ذلك، طالما أجَّلتُ هذه الذُّروةَ الصغيرة، ما أمكنني، وحاولت أن أتجاهل أو أهزأ من الجُمَلِ العَرَضيَّة التي يُلقي بها في الهواء.

كما أن بعض هذه الجُمَلِ كان يثير انزعاجي بشكل بالغ، يأتي وكأنما ليؤيِّد بشكلٍ قاطِعٍ ما شعرتُ به أنا نفسي. كذلك، هو تأييد من وجهة نظر مختلفة تمامًا، الأمر الذي جعله مُقنِعًا أكثر. لقد ألَّف مثل هذه الجُمَل العجيبة، وألقى بها إليَّ بطريقةٍ خارِجَةٍ عن السِّياق نوعًا ما، كما لو كان خَطُّ تفكيره الرئيسي سِرًّا يَخُصُّه، وهذه الشَّذَرات كانت مُجرَّد لُقَيماتٍ وَجَدَ أنَّ من الصعب عليه أن يهضمها؛ فتخلَّص منها بأن لَفَظَها. أراحه الكلامُ، كان الأمر يشبه أن يكون المرءُ مريضًا. تكلَّم على حين غِرَّة، بينما كانت النار تتوهَّج بيننا:

- أنا متأكِّدٌ أن هناك أمورًا تَخُصُّنا تتسبَّب في الخَلَلِ والتَّفسُّخ والتدمير، تدميرنا.

وأضاف:

- لقد انحرفنا عن الخَطِّ الآمِن في مكانٍ ما.

ومرة أخرى، عندما اقترب صوت الجونج، يَطِنُّ أعلى كثيراً من ذي قبل، وفوق رؤوسنا بشكل مباشر، قال كما لو كان يُحدِّث نفسه:

- لا أظنُّ أن بوسع جرامافون أن يُظهِرَ تسجيلًا لذلك. لا يأتي الصَّوتُ إليَّ عن طريق الأذنين، إطلاقًا. تَصِلُني الذَّبذَباتُ بطريقة أخرى كُلِّيًّا، وتبدو أنها بداخلي، وهذه هي بالضبط الكيفيَّة التي قد يفترض أن صوتًا رباعيَّ الأبعاد يجعل نفسه مسموعًا من خلالها.

تعمَّدتُ عدمَ الرَّدِّ على هذا، بل جَلستُ مُقتَرِبًا قليلًا من النار أُحدِّق في الظُّلمَة من حولي. كانت الغيوم مُحتَشِدَةً في جميع أنحاء السماء، ولا يلوح من خلالها أيُّ أثَرٍ لضوء القمر. كذلك، كان كل شيء ساكِنًا للغاية، بحيث سارت أمور النهر والضفادع في مجراها.

واصَلَ قائِلًا:

- يوجد ذلك الشيء بخصوصه، الذي هو خارِجٌ تمامًا عن الخبرة الشائعة. إنه غيرُ معلوم. شيءٌ واحدٌ فقط يَصِفُه بِحَقٍّ: إنه صوتٌ غيرُ بَشَريٍّ، أعني أنه صوت من خارج الإنسانية.

بتخليصِ نَفسِه من هذه اللقمة عَسِرَةِ الهَضمِ؛ رَقَدَ هادِئًا لبُرهَةٍ، لكنه كان قد عَبَّر عن مشاعري الخاصَّة بشكلٍ مُثيرٍ للإعجاب، لدرجة أنَّني شعرتُ بالراحة لخروج الفكرة، ولأن حَصْرَها في الكلمات قد حال بينها وبين التجوُّل الخَطِر، جيئةً وذهابًا في العقل.

هل أستطيع، يومًا، أن أنسى وحشةَ مُخيَّمِ الدانوب ذلك؟ الشعور بأنك وحيدٌ تمامًا على كوكبٍ خالٍ! تركَّزَت أفكاري باستمرارٍ على المدن والأماكن المعمورة بالناس. كنتُ لأمنح روحي -كما يقول المَثَلُ- مقابِلَ "إحساسِ" القُرَى الباڤارية التي كثيراً ما مَرَرنا بها، مُقابَل أماكِنِ البَشَرِ المألوفة الطبيعية: فلّاحون يشربون البيرة، وطاولات تحت الأشجار، ضوءُ الشَّمس الدافئ، وقَلعَةٌ مُهدَّمَة فوق الصخور خلف الكنيسة ذات السقف الأحمر. حتى السُّيَّاح كانوا لَيُرَحَّبُ بهم.

لكن ما شعرتُ به من رهبة لم يَكُن شَبَحَ خوفٍ عاديٍّ. كان أكبَرَ بشكل غير مَحدودٍ، وأشدَّ غرابَةً، وبدا أنه نشأ من إحساسٍ موروث مُبهَمٍ بالرُّعبِ، مُزعِج بشكلٍ أكبر من أيِّ شيءٍ قد عرَفتُه أو حَلُمتُ به.

لقد "انحرفنا" -كما قال السويدي- عند منطَقةٍ ما أو مجموعة ظروفٍ ما، حيث كانت المَخاطِرُ كَبيرةً، بل ومُستَغلِقَةً على أفهامنا، حيث تقع على مقربةٍ مِنَّا حدودُ عالَمٍ مَجهولٍ. هي بقعةٌ أَوْجَدَها سُكَّانُ فضاءٍ خارجيٍّ ما، من قَبيل ثُقبِ الباب يستطيعون من خلاله التَّجسُّس على الأرض، بأنفسهم من دون أن يُرَوْا، نقطة يكون الحِجابُ المُسدَلُ عندها رقيقًا بعض الشيء. كنتيجةٍ نهائية لإقامَةٍ طويلة للغاية هنا، لا بُدَّ أن نُحمل على عبور الحدود، ونُجرَّد مِمَّا نطلق عليه "حيواتِنا"، لكن بعمليَّةٍ ذهنية وليست مادِّيَّةً. بهذا المعنى -كما قال- لا بُدَّ أن نكون ضحايا مغامَرتِنا... قُربانًا للتَّضحية.

استحوذ علينا الأمرُ بطُرُقٍ مختلفة، كلٌّ حَسبَ مَدى حساسيته وقُدرَتِه على المُقاوَمَة. تَرجَمتُه أنا بشكلٍ مُبهَمٍ إلى تجسيدٍ للعناصر المضطربة اضطرابًا شديدًا، وأكسبتها رعب الغاية المتعمدة والمؤذية، المُستاءَة من انتهاكنا الوَقِح لمنطقة تكاثُرِها. في حين ألقى صديقي بالتَّبِعَة على الأسلوب غير الأصيل من البداية في التعدِّي على ضريحٍ قديمٍ ما، مكانٍ ما حيث لا تزال الآلِهَةُ القديمة تُحكِمُ سَيطرَتَها،

ولا تـزال القُـوَّةُ الوجدانيـة للمتعبِّديـن السـابقين عالِقَـةً، وأَسْـفَرَ الجُـزءُ السَّـلفيُّ منـه عـن تعويـذةٍ وَثَنِيَّـةٍ قَديمَـة.

عـلى أيٍّ حـالٍ، كُنَّـا أمـام مـكانٍ لم يُلَوِّثـه البـشر، حَفَظتُـه الرِّيـاحُ خالِيًـا مـن تأثـيرات الإنسـان الفَظَّـة، مـكانٍ حيـث القـوى الرُّوحيَّـة قريبـةٌ للغايـة وعُدوانيَّـة. لم يحـدث قَـطُّ مـن قَبـلُ أن هاجَمَتنـي الإيحـاءاتُ غـيرُ القابِلَـة للوَصـف "للبُعـد المـا ورائي" الخـاص بصيغَـةٍ أخـرى للحيـاة، فَلَـكٌ آخـر غـيرُ مـوازٍ لفَلَـكِ البـشر. وفي النهايـة، قـد يخضـع عقلُنـا تحـت وطـأة التعويـذة الرهيبـة، ولا بُـدَّ أن ننجـذِبَ، عـبر الحـدود، إلى عالَمِهـم.

تَـشِي الأشـياءُ الصَّغـيرةُ بالتأثـير المُدهِـش للمـكان، وفي تلـك اللحظـة، في الصَّمـت المُحيـط بالنـار، أتاحـت نفسـها ليلاحظهـا العَقـلُ.

الجَـوُّ المُحيـط نفسـه قـد بَرهَـنَ عـلى أنـه وسـيطٌ مُكَـبِّر يُشـوِّه كلَّ إشـارة: القُنـدُس الـذي يتدحـرج مـع التيـار، ورجـل القـارب المُتعجِّـل الـذي يُرسِـلُ إشـاراتٍ، والصَّفصـاف المُتحـرِّك، فـرادى ومجموعـة - قـد جُـرِّدوا مـن شـخصيَّاتهم الطبيعيـة، وكشـفوا عـن شيء مـن جانبهـم الآخـر، كـما يوجَـدُ في تلـك المنطقـة الأخـرى عـبر الحـدود. وشـعرتُ حينهـا أن هـذا الجانـب المُتغـيِّر لم يكـن بالنسـبة لي فقـط، بـل للجنـس البـشري. إن التجربـة التـي كُنَّـا نَقِـفُ عـلى حافَّتهـا، برُمَّتهـا، كانـت غـيرَ معروفـة للبشريـة عـلى الإطـلاق. كانـت نَسَـقًا جديـدًا مـن الخـبرة، وليسـت مـن هـذه الأرض، بالمعنـى الحقيقـي للكلمـة.

- إنهـا الغايـة المُتعمَّـدَة المحسـوبة، التـي تهبـط بشـجاعَةِ المَـرءِ إلى الصِّفـر.

قالها السويديُّ فجأةً، وكأنه كان يَطَّلِعُ على أفكاري بالفعل. وأضاف:

- خـلاف ذلـك قـد يؤخَـذُ الخَيـالُ في الحُسـبان. لكـن المجـدافَ والقـارب والطعـام المتناقِـص...

قاطَعتُه بِجِدَّة:

- ألم أفسِّر كلَّ ذلك من قبل؟

أجاب بشكلٍ جاف:

- لقد فعلتَ، بالتأكيد فَعَلتَ.

أبدى مُلاحظاتٍ أخرى، كعادته، عمَّا دعاه "الحتمية الواضحة لوجود ضحيَّة". لكنني لاحَظتُ، وقد رتَّبتُ أفكاري الآن بشكلٍ أفضل، أن هذه كانت صرخةَ رُوحِه المذعورة في مواجهة وَعيِه بأن جزءًا حيويًّا منه كان عُرضَةً للهجوم، وأنه قد يُؤخَذ أو يُدمَّر بطريقة ما. كان الموقف يتطلَّب الشجاعةَ وهدوء التفكير، وهو الشيء الذي لم يكن بوسع أحَدِنا أن يمتلكه، ولم أكُن قَطُّ، من قبلُ، أعي بهذا الوضوح وجودَ شَخصَيْن بداخلي: الشخص الذي يُفسِّر كُلَّ شيء، والآخر الذي يهزأ من مثل هذه التفسيرات السخيفة، وهو مع ذلك خائِفٌ إلى حدِّ الرُّعب.

في هذه الأثناء، خَبَت النَّارُ في الليل الحالِك وتَضاءَلَت كَومَةُ الخَشب. لم يتحرَّك أيٌّ مِنَّا لسَدِّ النقص في المخزون، وأصبح الظلام -نتيجةً لذلك- قريبًا للغاية من وجهنا. كانت سوداءَ كالحبر فيما وراء دائِرَةِ ضَوءِ النَّار بأقدامٍ قليلة. من حينٍ لآخر، كانت هَبَّةٌ شارِدَةٌ من الريح تجعل الصفصاف يرتعش من حولنا، لكن -بصرف النظر عن هذا الصوت غير المُستَحَبِّ، بشكل كبير- ساد صمتٌ عميقٌ وكَئيبٌ، لا يقطَعُه سوى غَرغَرَةِ النهر والهَمْهَمَةِ في الهواء من فوقنا.

أعتقد إن كلانا كان يفتقد صُحبَةَ الرِّيح الصَّاخِبَة.

في نهاية المطاف، في اللحظة التي طالت عندها هَبَّةٌ شارِدَة، كما لو كانت الريح على وشك الهُبوب مَرَّةً أخرى، بلغتُ نقطةَ التَّشبُّع الخاصَّة بي، النقطة التي يصبح من الضروري تمامًا عندها أن ألتمس

تَخَفُّفًا في الحديث الصريح، وإلَّا سأفضح نفسي ببعض المُغالاة الهيستيرية التي قد يكون أثرها علينا أسوأ كثيراً. رَكَلتُ النَّارَ حتى تَوهَّجَت، وتحوَّلتُ إلى صاحبي فجأةً. نظر إليَّ في تأهُّبٍ، فقُلتُ له:

- لا أستطيع إخفاءَ الأمر أكثر من ذلك، لا يعجبني هذا المكان، ولا الظلام، ولا الضوضاء، ولا الشُّعورُ المُريعُ الذي يُساوِرُني، شيءٌ ما هنا يَقهَرُني تمامًا. أشعر بخوفٍ كئيب، وتلك هي الحقيقة المُجرَّدة. إن كان الشاطئ الآخر مُختَلِفًا، أقسم أنني كنتُ لأُقدِمُ على السِّباحة إليه.

تحوَّل وجهُ السويدي إلى البياض الشديد تحت سُمرَةِ الشمس والريح الداكنة. حدَّق مباشرةً في وجهي، وأجاب بهدوء، لكنَّ صوتَه وَشَى بانفعاله البالغ من خلال هدوئه غير الطبيعي. بأي حال من الأحوال، كان الرجل القويَّ فينا في تلك اللحظة. كان الأكثرَ رباطَةَ جَأشٍ، على الأقلِّ. قال بنبرة طبيبٍ يُشَخِّص مَرَضًا خطيراً:

- إنها ليست بالحالَةِ المادِّيَّة التي يُمكِنُنا الإفلات منها عن طريق الهَرَب، يجب أن نبقى في مكاننا وننتظر. توجد قُوًى قريبةٌ هنا بوسعها أن تقتل قطيعًا من الفِيَلَةِ في ثانِيَةٍ بنفس السهولة التي نستطيع بها -أنا أو أنتَ- أن نَسحَقَ ذُبابة. فرصتنا الوحيدة هي أن نحافظ على سكوننا التام. ربما يُنقِذُنا عَدَمُ الاعتدادِ بنا.

حَمَلَ تَعبيرُ وجهي عشراتِ الأسئلة، لكن لم تُسعِفْني الكلمات. كان الأمر بالضبط مثل الإنصاتِ إلى التَّوصيفِ الدَّقيق لمرضٍ قد حَيَّرَتني أعراضُه.

واصَلَ قائِلًا:

- أعني أنها، بالرغم من وعيها بحضورنا المزعج، لم تَعثُر علينا حتى الآن، "لم تُحدِّد موقِعَنا" -كما يقول الأمريكيون- إنها

تَتخبَّـط مــن حولهــا مثــل رجــالٍ يبحثــون عــن تَــسرُّبٍ للغــاز. المجـداف والقــارب والتَّمويــن- كُلُّهــا تُثبِــتُ ذلــك. أعتقــد أنهــا تشـعر بنــا، لكنهـا لا تسـتطيع أن ترانـا بالفعـل. ينبغــي أن نُحافِـظَ عـلى هـدوء عقلنـا، إنَّ مـا تشـعر بـه هـو عَقلُنـا. يجـب أن نسـيطر عــلى أفكارنــا، وإلَّا انتهــى أَمرُنــا.



تَلَعثَمتُ، مُتجمِّدًا من هَوْل تلميحه:

- تَقصِدُ الموت؟

قال:

- أسـوأُ بكثـير. المـوت، حسـب مُعتَقَـدِ المـرء، إمَّـا أن يعنـي الفَنـاءَ أو التَّحـرُّر مـن محدوديَّـة الحـواسِّ، لكنـه لا ينطـوي عـلى تغيـير الشَّـخصيَّة. أنـت لا تَتحـوَّل فجـأةً لمُجـرَّد أن الجسـم قـد ذهـب. لكــن هــذا يعنــي تَحــوُّلًا جذريًّــا، تَغَــيُّرًا كامِــلًا، فُقــدانٌ رهيــبٌ للــذات باســتبدالها، أســوأ بكثــيرٍ مــن المــوت، وهــو ليــس حتــى فَنــاءً. لقــد حــدث أن خَيَّمنــا في بُقعَــةٍ تُلامِــسُ منطِقَتَهــا فيهــا منطَقَتُنــا، حيــث انســدل بينهــما حجــابٌ رقيــقٌ.

يا للهول! كان يستخدم عبارتي ذاتها، كلماتي بِحَقٍّ. أضاف قائِلًا:

- هي مُنتَبِهَةٌ إذن لوجودنا في جوارها.

سألتُ:

- لكنْ ما هي؟

نسـيتُ ارتجـاف الصَّفصـاف في الهـدوء الخـالي مـن الريـاح، والهمهمـة في الهـواء، وكلَّ شيءٍ، عـدا أننـي كنـتُ مُنتَظِـرًا إجابـةً أتخـوَّف منهـا فـوق مـا قـد يحتملـه الوصـف.

خفـض صوتـه فـورًا ليجيـب، مُنحَنِيًـا للأمـام قليـلًا فـوق النـار، تَغـيُّرٌ لا يُمكِـن تَحديـدُه في وَجهِـه جَعَلَنـي أتفـادى عينيـه، وأخفِـضُ بَـصَري إلى الأرض.

قال:

- طيلـةَ حيـاتي، كنـتُ واعِيًـا بشـكلٍ واضـحٍ وبغرابـةٍ لمنطقـة أخـرى -ليسـت نائيَـةً للغايـة عـن عالَمِنـا مـن جِهَـة، ومختلفـة بالكامـل في النـوع مـن جِهَـةٍ أخـرى- حيـث تجـري أشـياءُ عَظيمـةٌ دون تَوقُّـف، حيـث تَعـبُرُ شَـخصيَّاتٌ ضَخمَـةٌ ومُفزِعَـة، عـلى عَجَـلٍ؛ بُغيَـةَ أهـدافٍ جِسـامٍ مُقارَنَـةً بـأيٍّ أمـور أرضيـة، إن صعـود وسـقوط الأُمَـم، وأقـدار الإمبراطوريـات، ومصير الجيـوش والقـارات- جميعَهـا كمثقـالِ ذَرَّةٍ، أهـداف جِسـام، أعنـي بهـا، تلـك التـي تتعامَـل مباشرةً مـع الـروح، وليـس بشـكل غـير مبـاشر مـع تجليـات الـروح...

- فقط أقتَرِحُ الآن...

بـادَرتُ بالـكلام، سـاعيًا إلى مُقاطَعَتِـه؛ لشـعوري بأنّنـي كنـتُ وَجهًـا لوجـهٍ أمـام رَجُـلٍ مجنـون. لكنـه سرعـان مـا تجـاوَزَني بسَـيلِه الـذي كان آتِيًـا لا محالَـةَ.

- أنـتَ تعتقـد أنهـا رُوحُ العنـاصر، وأنـا اعتقَـدتُ أنهـا رُبَّمـا كانـت آلِهَـةً قديمـة. لكنَّنـي أُخـبِرُكَ الآن أنَّهـا ليسَـت شـيئًا مـن هـذا. هذه قـد تكـون كيانـاتٍ مَفهومَـةً؛ لأن لديهـا صِـلاتٍ بالبَـشَر، تعتمـد عليهـم في العبـادة والتَّضحيـة، بينـما هـذه الكائنـات التـي تُحيـط بنـا الآن ليـس لديهـا أدنى علاقـة بالجنـس البـشري، وإنهـا مجرَّد مُصادَفَـةٍ أن يكـون مكانهـا في هـذه البُقعَـة بالضَّبـط ليتـماسَّ مـع مَكانِنـا.

إن المفهـوم المُجـرَّد، الـذي جَعَلتـه كَلماتُـه مُقنِعًـا، بطريقـةٍ أو بأخـرى، بينـما أسـتمع إليهـا هنـاك في السـكون المُظلِـم لتلـك الجزيـرة الوحيـدة، جعلنـي أرتجـف قليـلًا مـن رأسي إلى قدمـيَّ. وجـدتُ أنـه مـن المسـتحيل أن أُسَـيطِرَ عـلى حـركاتي.

بادَرتُ مرَّةً أخرى قائِلًا:

- وماذا تقترح؟

أجابني:

- قربـانٌ، ضحيَّـة، قـد تُنقِذُنـا بتشـتيت انتباههـا حتـى نتمكَّـن مـن الهـرب.

وواصل:

- بالضَّبـط كـما تتوقَّـف الذِّئـابُ عـن افـتراس الـكلاب فتمنـح الزَّلَّاقَـةَ انطلاقـةً أخـرى. سـوى أننـي لا أرى فرصـةً لأيِّ ضَحيَّـةٍ أخـرى الآن.

حدَّقتُ فيه مَشدوهًا. وَميضُ عينَيْه كان مُخيفًا. لم يَلبَثْ أن واصَلَ.

IV

- إنــه الصَّفصــاف، بالتأكيــد. يــواري الصفصــافُ الكائِنــاتِ الأُخــرى، لكــن تلــك الكائنــات الأخــرى تتحسَّــس مــن حولهــا باحِثَــةً عنَّــا. إذا تركنــا عقولنــا تــشي بخَوفِنــا، نكــون انتهينــا، انتهينــا تمامًــا.

تَطلَّــع إليَّ بتعبــيرٍ هــادئ للغايــة، عــازمٍ للغايــة، صــادِقٍ للغايــة، حتــى إنــه لم تَعُــد لــديَّ أي شــكوكٍ في ســلامَةِ عَقلِــه. كان ســليمَ العَقــلِ مثلــما يكــون أيُّ إنســان.

أضاف:

- إذا اســتطعنا أن نَصمــدَ خــلال الليــل، ربمــا تَمكَّنّــا مــن الهــرب في ضــوء النهــار مــن دون أن تلاحظنــا، أو بالأحــرى، مــن دون أن تَكتَشِــفَنا.
- لكن هل تَظنُّ حَقًّا أن تضحيةً قد...

بمجرَّد أن تكلَّمتُ، أتت هذه الهَمهَمَةُ الشبيهة بالجونج قريبةً للغاية فوق رؤوسنا، لكنَّ وجهَ صديقي المذعور هو ما أمسك بفمي حقًّا. رفع يده هامِسًا:

- صَهٍ! لا تَذكُرْها أكثرَ ممَّا تُطيق. لا تُشِرْ إليها بالاسم. أن تُسَمِّيَها يعني أن تكشِفَ عنها، إنها إشارة لا يُمكِن تَدارُكُها، ويتمثَّل أَمَلُنا الوحيد في تجاهُلِها، عساها أن تتجاهلنا.

- حتى في التفكير؟

كان مُنفَعِلًا للغاية.

- خصوصًا في التفكير. تتردَّد أصداء أفكارنا في عالَمِها. ينبغي أن نخرجها من عقولنا بأي ثمن، إذا كان ذلك مُمكِنًا.

حرَّكتُ النارَ حتى أمنَعَ الظلام من أن يُخيِّمَ على كُلِّ شيء. لم أَتُقْ للشَّمس قَطُّ كما كنتُ أتوق إليها حينها في اسوداد لَيلِ الصَّيف الفظيع.

واصَلَ حديثَه فجأةً:

- هل كنتَ مُستَيقِظًا طوالَ الليلة السابقة؟

- لقد نِمتُ بشكلٍ سيِّئ بعد الفجر بقليل.

أجَبته مُراوِغًا، في محاوَلَةٍ لاتِّباع تعليماته، التي أدرَكتُ أنها صحيحةٌ بشكلٍ غريزيٍّ، وأضَفتُ:

- لكنَّ الرِّيحَ، بالطَّبع.

- أعرف. لكنَّ الرِّيحَ لا تُفسِّر كُلَّ الضَّوضاء.

- إذن فقد سمِعتَها أنتَ أيضًا؟

- سَمِعتُ صوتَ الخطوات الصغيرة المُتزايِدَة التي لا تُحصَى.

ثم أضاف بعد تَردُّد قصيرٍ:

- وذلك الصَّوت الآخر...

- تقصد فوق الخَيمَة، والضغط فوقنا بواسطة شيء هائِلٍ عملاق؟

أومأ برأسه بشكل ملحوظٍ.

قلتُ:

- كانت تُشبِه بدايةَ نَوعٍ من الاختناق الداخلي؟

- نعم، جزئِيًّا. بَدَا لي أن ثِقَلَ الجَوِّ المحيط كان قد تَغيَّر، ازداد بشكلٍ هائِلٍ، بحيث لا بُدَّ أننا كُنَّا نُسحَق.

- وذلك!

واصَلتُ، كنتُ عازِمًا على طرح كل ما بداخلي، مُشيراً لأعلى حيث كانت النغمة الشبيهة بالجونج تُهَمهِمُ من دون انقطاع، صاعِدَة وهابِطَة مثل الريح.

- ما رأيك في ذلك؟

همس بنبرةٍ جادَّة:

- إنه صوتُها، صوتُ عالَمِها، الهمهمة التي في منطقتها. إن الحاجز هنا رقيقٌ لدرجة أن الصوت يتسرَّب بطريقةٍ ما. لكنَّكَ إذا دَقَّقتَ السَّمع؛ ستجد أنه ليس لأعلى أكثرَ منه حَولَنا. إنه في الصَّفصاف. إن الصَّفصاف نفسه يُهَمهِمُ؛ لأن الصفصاف هنا جُعِلَ كرمزٍ للقُوى التي تُجابِهُنا.

لم أتمكَّن من مُتابَعَةِ ما قصده بالضبط، مع ذلك لم يكن هناك شَكٌّ أن الخاطر والفكرة في عقلي هما الخاطر والفكرة في عَقلِه. لقد لاحَظتُ ما لاحَظَه، فقط بقدرٍ أقلَّ منه في قوَّة التَّحليل. كان على طرف لساني أن أُخبِرَه أخيراً عن هَلاوِسي بشأن الأشكال الصَّاعِدَة

والشُّجَيرات المُتحرِّكة، عندما اندفع بوجهَه فجأةً مُقتَرِبًا مرَّةً أخرى من وجهي عبر ضوء النار وبدأ يتحدَّث بهَمسٍ جادٍّ للغاية. لقد أثار دهشتي بهدوئه ورَباطَةِ جَأشِه، وسيطرته الواضحة على الموقف. هذا الرجل الذي قد حَسِبتُه -لسنواتٍ- عديمَ الخيال، ومُتبَلِّدَ الحِسِّ! قال:

- أَنْصِتْ الآن، إن الشيء الوحيد الذي علينا أن نفعله هو أن نستمرَّ كما لو أن شيئًا لم يحدث، نتابع عاداتِنا المألوفةَ، نذهب للفِراش، وهكذا دواليك. نتظاهر بأننا لا نشعر بشيء ولا نلاحظ شيئًا، إنها مسألةٌ تَخُصُّ العقل بشكلٍ كامل، وكلَّما فكَّرنا فيها أقلَّ كُلَّما زادت فرصتنا في الهرب. أهم شيء، ألَّا تفكِّر؛ لأن ما تُفكِّر فيه يتحقَّق.

تمكَّنتُ من الرَّدِّ، مبهورَ الأنفاس من أثر كلماتِه وغرابتها كُلِّها:

- حسنًا، سأحاول، لكن أوَّلًا، أخْبِرْني شيئًا واحِدًا إضافيًا. قُلْ لي ما رأيُكَ في تلك التجاويف المُنتَشِرَة في الأرض في كلِّ مكانٍ من حولنا، تلك الأقماعُ الرَّمليَّة؟

- لا!

صاح، ناسِيًا في غَمرَةِ انفعاله أن يَهمِسَ.

- لا أجرؤ، ببساطَةٍ لا أجرؤ أن أصيغ الفكرةَ في كلمات. إذا لم تَكُن قد خَمَّنت فهذا يسعدني. لا تحاول أن تفعل. لقد وَضَعت الفكرةَ في عقلي، حاوِلْ قَدرَ استطاعَتِكَ أن تَمنَعَها من وضعها في عَقلِكَ.

خفَّض صوتَه مرَّةً أخرى لمستوى الهمس قبل أن ينتهي، ولم أضغط عليه ليُفَسِّرَ. كان هناك بالفعل قَدرٌ من الرُّعب بداخلي يكافئُ تقريبًا القَدرَ الذي يمكنني تَحمُّله. وَصَلَت المُحادَثَةُ لنهايتها، وانهمكنا في تدخين غليونَيْنا في صَمتٍ.

ثـم حـدث شيءٌ مـا، شيءٌ غـيرُ مُهـمٍّ عـلى مـا يبـدو، كـما هـو الحـال عندمـا تكـون الأعصـاب عـلى قَـدرٍ كبـير مـن التَّوتُّـر، وهـذا الـشيء الصغـير الـذي شـغل فـترةً زمنيـة قصـيرة مَنَحنـي زاويـةَ رُؤيَـةٍ مُختَلِفَـة كُلِّيًّـا. صادف أن نظـرت إلى حِـذائي الرَّمـليِّ -مـن النـوع الـذي نسـتخدمه للقـارب- شيء مـا يتعلَّـق بالثُّقـب الخـاص بأَخمَـصِ القَـدَم أعـاد إلى ذهنـي -فجـأةً- مَتجَـرَ لنـدن حيـث قـد اشـتريتُه، والصعوبـة التـي لاقاهـا الرَّجـلُ في إيجـاد مـا يناسـبني، وتفاصيـل أخـرى للموضـوع، غـير شَـيِّقَة ولكنهـا عَمليَّـةٌ. جـاء في أعقابهـا، عـلى الفـور، مشـهدٌ شـامِلٌ للعالَـمِ الحديـث المُتشـكِّك الـذي اعتَـدتُ أن أتحـرَّكَ داخلـه في الوطـن. فكَّـرتُ في لحـم البقـر المشـوي، والجعَّـة، والسـيارات، ورجـال الشرطـة، وفِـرَق الموسـيقى النحاسـية، وعـشرات الأشـياء الأخـرى التـي تكشـف عـن روح الاعتياديَّـة والمنفعـة. كان التأثـير فوريًّـا ومُدهِشًـا حتـى بالنسـبة لي. مـن الناحيـة السـيكولوچية، أفـترض أنـه كان مجـرَّدَ رَدِّ فِعـلٍ مفاجـئ وعنيـف بعـد ضغـط الحيـاة في جَـوٍّ مـن الأشـياء التـي لا بُـدَّ أن تبـدو مسـتحيلةً وغـيرَ قابِلَـةٍ للتصديـق بالنسـبة للوعـي العـادي. لكـن، أيًّـا كان السـبب، فإنـه نـزع التعويـذةَ مـن قلبـي، للَحظـاتٍ، وجعلنـي أشـعر بالتحـرُّر وعـدم الخـوف لأقَـلَّ مـن دقيقــة. رفَعـتُ رأسي مُتطلِّعًـا إلى شريـكي المُخالِـف. وصِحـتُ ضاحِـكًا بصَخَـبٍ في وجهـه:

- أنتَ وَثَنيٌّ قديمٌ لَعين!

وواصَلتُ:

- أنتَ أحمَقُ واسِعُ الخيال! أنت وَثنيٌّ تُؤمِن بالخُرافات! أنتَ...

توقَّفـتُ في وسـط الـكلام، اسـتحوذ عـليَّ الرعـب القديـم مـن جديـد. حاوَلـتُ أن أخنـق صـوتي وكأنـه شيءٌ مُدنِّـس. لقـد سَـمِعها السـويديُّ أيضًـا، بالتأكيـد، هـذه الصرخـة الغريبـة في الظـلام فوقنـا، وذلـك الهبـوط المفاجـئ في الهـواء كـما لـو أن شـيئًا قـد اقـترب.

امتقع وجهُه وصار أبيضَ كالرَّماد من تحت السُّمرَة. وقف أمام النار مُستقيمَ الظَّهر، مُنتَصِبَ القامَةِ، يُحدِّق في وجهي.

قال بنوعٍ من العَجزِ والاهتياج:

- بعد ذلك، لا بُدَّ أن نذهب! لا نستطيع أن ننتظر الآن، يجب أن نُقوِّضَ المُخيَّمَ في التَّوِّ ونواصل... الإبحار في النهر.

رأيتُ أنه يتحدَّث بوحشيَّةٍ شديدة، كان رُعبٌ بالِغٌ يُملي عليه كلماته، الرُّعب الذي قد قاومه طويلًا جدًّا، لكنه تمكَّن منه أخيرًا.

- في الظَّلام؟

هتَفتُ، وأنا أرتجف من الخوف عقب فَوْرَتي الهيستيريَّة، لكنني لا زِلتُ أُدرِكُ موقِفَنا أفضلَ منه. وأضَفتُ:

- جنونٌ مُطلَقٌ! النهر في حالةِ فَيضانٍ، وليس لدينا سوى مجدافٍ واحد. كما أننا بذلك إنما نتوغَّل في أرضها! لا يوجد شيءٌ لخمسين ميلًا أمامنا سوى صفصافٍ، صَفصافٍ، صفصاف!

جلس مرَّةً أخرى نصفَ مُنهارٍ. انعكَسَت المواقِفُ فجأةً، من خلال تلك التَّغيُّرات المُعقَّدة التي تُحبُّها الطبيعة، وانتقَلَت السَّيطرَةُ على قوانا إلى يديَّ. لقد وصل عَقلُه أخيرًا إلى النقطة التي بدأ يضعف عندها.

- أيُّ شيء لعين تَمَلَّكَكَ لتأتي بمثل هذا الفعل؟

همس بها وقد اكتسى صوتُه ووجهُه بذهولِ رُعبٍ حَقيقيٍّ. دُرتُ حول النار عابِرًا إلى الجانب الذي يَشغَلُه. أخَذتُ يَدَيه بين كفَّيَّ، وجَثَوتُ على رُكبَتيَّ إلى جانِبِه ونظرتُ في عينيه المذعورتين بشكل مباشر. قلتُ بحَزمٍ:

- سنُغذِّي النار لمرَّةٍ واحدة إضافيَّة، وبعدها نأوي لفراشنا لما تَبقَّى من الليل. عند شروق الشمس سنكون مُنطلِقَيْن بأقصى

سرعـة باتجـاه "كومـورن". الآن، اسـتَجْمِعْ نفسَـكَ قليـلًا، وتذكَّـر نصيحَتَـكَ بعـدم التفكـير فيـما يخيـف!

لم يَقُـلْ شـيئًا، ورأيـتُ أنـه سـيوافق ويلتـزم. إن النهـوض والقيـام برحلـة في الظـلام لجَمْـعِ الأخشـاب، كان نوعًـا مـن التَّخَفُّـف، بدرجـة مـا. بقينـا عـلى مقربَـةٍ مـن بعضنـا البعـض، مُتلامِسَـيْن تقريبًـا، نتلمَّـس طريقنـا بـين الشُّـجَيرات وعـلى طـول الضِّفَّـة. لم تتوقَّـف الهمهَمـةُ في الهـواء قَـطُّ، بـل بَـدَا لي أنهـا تـزداد ارتفاعًـا كُلَّـما ازددنـا بُعـدًا عـن النـار. كان شـيئًا يُثـير القُشَـعريرة! كُنَّـا نُنَقِّـب في منتصـف أَجَمـةٍ كثيفـة مـن شُـجَيرات الصَّفصاف حيـث كانـت بعـضُ الأخشـاب الطافيـة مـن فَيضـانٍ سـابِقٍ قـد عَلِقَـت في مـكانٍ مُرتَفِـعٍ بـين الأغصـان، عندمـا أطبَقَـت قَبضَـةٌ عـلى جسـدي كادَت تُسـقِطُني عـلى الرمـال. كان السـويديَّ. لقـد سـقط باتجاهـي، وكان يتشـبَّث بي ليسـتند عـليَّ. سَـمِعتُ أنفاسَـه تعلـو وتهبـط في لُهـاثٍ قصـير. همـس:

- انْظُرْ! بِحَقِّ الرَّبِّ!

وللمـرَّة الأولى في حيـاتي أدرَكـتُ مـا يعنيـه أن تسـمع دمـوعَ الرُّعـبِ في صـوت إنسـان. كان يشـير إلى النـار، عـلى بُعـد نَحـو خمسـين قَدَمًـا. تَبِعـتُ اتِّجـاهَ إصبعـه، وأُقسِـمُ أن قلبـي قـد انخلـع.

كان هناك شيءٌ يتحرَّك أمام الوَهَجِ الخافت.

رأيتُـه مـن خـلال حجـابٍ انسـدل أمـام عينـيَّ، مُغبَّـشٌ قليـلًا، مثـل السـتار الرقيـق الـذي يُسـتَخدَمُ في خلفيَّـةِ خشـبة المسـرح. لم يَكُـن بهيئـة إنسـانٍ ولا حيـوان. أعطـاني انطباعًـا غريبًـا بأنـه كبـيرٌ مثـل العديـد مـن الحيوانـات المُجتَمِعَـة معًـا، مثـل حصانَـيْن، أو ثلاثـة، تتحـرك عـلى مَهـلٍ. وصـل السـويديُّ، هـو الآخـر، إلى نتيجـةٍ مُشـابِهَة، عـبَّر عنهـا بشـكلٍ مُختَلِـف؛ فقـد اعتقـد أنـه اتَّخَـذ هيئـةَ وحَجـمَ أَجَمـةٍ مـن شُـجَيرات الصَّفصـاف، مسـتديرةٍ عنـد قِمَّتهـا، وتتحـرَّك عـلى سـطحها في كلِّ مـكان، قـال فيـما بعـد: كانـت تَلتَـفُّ حـول نفسـها كالدُّخـان.

انتحب في وجهي قائلًا:

- لقد شاهَدتُها تستقرُّ في الأسفل من خلال الشُّجَيرات.

- انظُر، بحقِّ الرَّبِّ! إنها آتيَةٌ في هذا الاتجاه! أوه، أوه!

أطلَقَ صَرخةً اعتراها نوعٌ من الصَّفير، قبل أن يُضيف:

- لقد عَثَرَت علينا.

ألقيتُ نظرةً مذعورة، مَكَّنَتني فقط أن أرى الأشكالَ المُظلَّلة وهي تتمايَلُ مُتَّجِهَةً إلينا عبر الشُّجَيرات، ثم انْهَرتُ إلى الوراء مُصطَدِمًا بالأغصان، التي فَشَلَت -بالطَّبع- في تَحَمُّل وزني، وهكذا سَقَطتُ على الرِّمال والسويديُّ فوقي في هيئة كَومَةٍ مُتعثِّرَة. في الحقيقة، بالكاد أدرَكتُ ما كان يجري. كنتُ واعيًا -فقط- بنوعٍ من الإحساس المُغلَّف بخوفٍ جَليديٍّ اقتلع أعصابي من غطائها الجَسَديِّ، وفتَلَها في كُلِّ اتجاه، وأعادها مُرتَعِدَةً إلى مكانها. كانت عيناي مُطبَقَتَيْن تمامًا، شعرتُ بغصَّةٍ في حلقي، شعورٌ بأن وعيي كان يتضخَّم ويتمدَّد في الفراغ، سرعان ما أفسح الطريقُ لشعورٍ آخر بأنني كنتُ أفقد الوعيَ كُلِّيًّا، وأُشرِفُ على الموت.

سَرَى داخلي تَقلُّصٌ حادٌّ من الألم، وكنتُ مُدرِكًا أن السويديَّ قد قبض عليَّ بطريقةٍ جَعَلَته يُؤلِمُني بشكل فَظيع، كانت طريقة تَعلُّقِه بي وهو يسقط.

لكنَّه كان الألم الذي أنقذني، كما أَعلَن بعد ذلك، فقد تَسبَّب في نسياني لها والتفكير في شيء آخر في اللحظة التي كانت على وَشكِ العثور عليَّ فيها. لقد حَجَبَ عقلي عنها في لحظة الاكتشاف، بل في اللحظة المناسبة للتَّملُّص من اختطافها الرهيب لي. في الحقيقة، هو نفسه، كما يقول، غاب عن الوعي في نفس اللحظة؛ وذلك هو ما أنقذه.

كل ما أعرفه هو أنَّني في توقيتٍ لاحِقٍ -بعيدًا كان أم قريبًا- هو أمرٌ من المستحيل أن أُحدِّدَه، وجدتُ نفسي أتسلَّق إلى خارج شبكة الأغصان الزَّلِقة، ورأيتُ صاحبي يقف أمامي مادًّا يَدَه لمساعدتي. حدَّقتُ فيه بعينَيْن زائِغتَيْن، مُمسِّدًا الذراع الذي قد ثناه لي. لم يُواتِني الكلام، بطريقةٍ ما. سمِعتُه يقول:

– لقد غِبتُ عن الوعي للَحظَةٍ أو اثنتين.

وأضاف:

– ذلك ما أنقذني. جعلني أتوقَّف عن التفكير فيها.

انتابني خَدَرٌ. نَطقتُ بفكرتي الوحيدة المُترابِطَة في تلك اللحظة:

– لقد كِدتَ تَكسرُ ذراعي إلى جُزأيْن.

أجاب:

– ذلك هو ما أنقَذَكَ!

وأضاف:

– لقد تَمكَّنَّا، فيما بيننا، أن نُغيِّر مسارَها عند نقطةٍ ما. لقد توقَّفَت الهَمهَمَةُ. ذهَبَت، في الوقت الحاضر على أيٍّ حال!

تَملَّكَتني مَوجَةٌ من الضحك الهيستيريِّ مرَّةً أخرى، وانتَقَلَت، هذه المرَّةَ، إلى صديقي أيضًا، عاصفة كبيرة شافِيَة من الضَّحك الرجراج جَلَبَت علينا شعورًا هائِلًا بالراحة. اتَّخذنا طريقنا عائِدَيْن إلى النار، وغَذوناها بالأخشاب؛ فتوهَّجَت في الحال. رأينا بعد ذلك أن الخيمة قد سقَطَت على الأرض في كومَةٍ مُتشابِكَة.

التقطناها، وخلال مُعالَجَتِها تعثَّرَت أقدامُنا وعَلِقَت بالرِّمال أكثرَ من مَرَّة.

عندمـا انتصَبَـت الخيمـةُ مَـرَّةً أخـرى، وأضـاءت النـارُ الأرضَ لِعِـدَّة يـارداتٍ مـن حولنـا، هتـف السـويديُّ:

- إنها تلك الأقماعُ الرَّمليَّة.

ثم أضاف:

- وانظُرْ إلى حجمها!

كانـت هنـاك حُفَـرٌ عميقـة ذات شـكلٍ مخروطـيٍّ في الرمـال، منتـشرة في كلِّ مـكان حـول الخيمـة ومَوضِـعِ النـار، حيـث قـد شـاهدنا الظِّـلالَ المُتحرِّكَـة، تُشـبِه بالضَّبـط تلـك التـي قـد وجدناهـا بالفعـل في أنحـاء الجزيـرة، سـوى أنهـا تزيـد عنهـا بكثـيرٍ في الحجـم والعُمـق، شُـكِّلَت بجَـمالٍ، وباتِّسـاعٍ كافٍ، في بعـض الحـالات، لأن تسـمح بدخـول قَدمـيَّ وسـاقيَّ بأكملهـم.

لم يَنبَـس أيٌّ مِنَّـا بكلمـة. كان كلانـا يعـرف أن النـوم هـو آمَـنُ شيءٍ نسـتطيع فِعلَـه، ووفقًـا لذلـك، أوينـا إلى فراشـنا دونمـا مزيـد مـن التأخـير، بعـد أن ألقينـا بالرمـال عـلى النـار، واصطحبنـا معنـا كيـسَ التَّمويـن والمِجـدافَ إلى داخـل الخيمـة، القـارب، أيضًـا، أسـندناه إلى نهايـة الخَيمَـة، بحيـث تلمسـه أقدامنـا، فنَنزَعِـج ونسـتيقظ مـن أقـلِّ حركَـةٍ.

وفي حالـة الطـوارئ -أيضًـا- فإننـا أوينـا إلى الفـراش مُرتَديـن ملابِسَـنا مـرَّةً أخـرى، مُتَحضِّريـن لانطلاقَـةٍ مُفاجِئَـة.

كانـت نِيَّتـي الراسـخة أن أرقُـدَ مُتيقِّظًـا طـوال الليـل وأراقـب، لكـنَّ الإجهاد العصبـيَّ والجسـدي قـضى بخـلاف ذلـك، وجـاءني النـوم بعـد حـينٍ بغطـاء النِّسـيان المُسـتَحَبِّ. الحقيقـة أن صاحبـي أيضًـا دخـل في النـوم بسرعـة. في البدايـة كان يَتَململَـلُ وينهـض باسـتمرار، ليسـألني إن كنـتُ "سَـمِعتُ هـذا" أو "سَـمعتُ ذلـك." يتقلَّـب في فِراشـه المصنـوع مـن الفِلِّـين، ويقـول إن الخيمـة كانـت تتحـرَّك والنهـر قـد ارتفـع فـوق مسـتوى

الجزيرة، لكنني في كلِّ مَرَّةٍ، كنت أذهب إلى خارج الخيمة، وأعود لأُطَمئِنُه أن كلَّ شيءٍ على ما يُرام، وأخيرًا هَدَأ ورَقَدَ ساكِنًا.

ثم أصبح تَنفُّسه مُنتَظِمًا، بعد فترة، وسَمِعتُ صوت شَخيرِه الذي لا يُخطَأ، للمرة الأولى والوحيدة في حياتي يكون للشَّخير تأثيرٌ مُستَحَبٌّ ومُهدِّئ.

أذكر أن هذه كانت آخرَ فِكرَةٍ في عقلي قبل أن يغلِبَني النُّعاس.

استيقظت على صعوبة في التَّنفُّس، لأجد الغطاء على وجهي، لكنَّ شيئًا آخر بالإضافة للغطاء كان يضغط عليَّ، كان أوَّل ما خطر لي أن صاحبي قد تَدَحرجَ من فِراشه إلى فِراشي في أثناء نومه. نادَيتُه وجَلَستُ، وفي نفس اللحظة خَطَرَ لي أن الخيمة كانت مُطوَّقة. صوت الطقطقة المُتعدِّدة الناعمة ذلك كان مَسموعًا مرَّةً أخرى في الخارج، يملأ الليلَ بالرُّعب.

نادَيتُه مرَّةً أخرى، بصوتٍ أعلى من ذي قبل. لم يُجِب، لكنني افتقدتُ صوت شَخيره، ولاحَظتُ أيضًا أن مصراع باب الخيمة كان مُنسَدِلًا، كانت هذه خطيئةً لا تُغتَفَرُ، زَحَفتُ إلى الخارج في الظلام لأُعلِّقَه بشكلٍ آمِن، وعندها أدرَكتُ، لأوَّل مرَّةٍ، بشكلٍ مُؤكَّدٍ أن السويديَّ ليس هنا، لقد ذهب.

اندَفَعتُ للخارج في جَريٍ مجنون، وقد استولى عليَّ هياجٌ مُروِّع، وفي اللحظة التي أصبَحتُ عندها بالخارج غَرَقتُ في سَيلٍ من الهَمهَمَةِ أحاط بي تمامًا وكان يصدر من كُلِّ ناحية في السماء في نفس الوقت. كانت تلك الهَمهَمَةَ المألوفةَ نفسها، وقد جُنَّ جنونُها! وكأنه سِربٌ من النَّحل الكبير غير المرئيِّ في الهواء من حولي. بدا أن الصَّوتَ يُكثِّف الهواءَ ذاتَه، وشعرتُ أن رِئَتَيَّ تعملان بصعوبة.

لكنَّ صديقي كان في خطر، ولا يسعني أن أتردَّد.

كان الفجر على وشك الانبلاج، وانتشر ضوءٌ خافِتٌ مُبيَضٌّ فوق السُّحُب، صاعِدًا من الشريط الرفيع للأفق الواضح. لم تَكُن الرِّيح تتحرَّك. بوسعي فقط أن أتبيَّن الشُّجيرات والنهر من ورائها والبُقَع الرملية الشاحِبَة. ركَضتُ، في غمرة انفعالي، بشكلٍ مَحموم، جيئةً وذهابًا حول الجزيرة، مُنادِيًا باسمه، صارِخًا بأعلى صوتي بأوَّل كلماتٍ خَطَرَت على بالي. لكنَّ الصَّفصاف كَتَمَ صوتي، وطَغَت الهَمهَمَةُ عليه، حتى أن الصوت لم يرتَحِلْ سوى لأقدامٍ قليلةٍ من حولي. اندَفَعتُ بين الشُّجَيرات، مُتعثِّرًا بتَهوُّرٍ، ساقِطًا فوق الجذور، ساحِجًا وجهي باندفاعي في كل اتجاه بين الأغصان المنيعة.

ثُمَّ، بشكل غير مُتوَقَّعٍ تمامًا، وَصلتُ إلى رأس الجزيرة لأرى شَكلًا قائِمًا مَرسومًا على خلفيَّةِ الماء والسماء. كان السويديَّ. وقد وضع قدمًا في النهر بالفعل! لحظة أخرى ويغوص في الماء.

ألقيتُ بنفسي عليه، مُطوِّقًا خَصرَه بذراعيَّ وسَحَبتُه في اتجاه الشاطئ بكلِّ ما أوتيتُ من قُوَّةٍ. قاوَمَني مُقاوَمَةً عنيفةً، بالطَّبع، مُصدِرًا ضوضاءَ، طوال الوقت، تُشبِه بالضَّبط تلك الهمهمة اللعينة، ومُستَخدِمًا في سَوْرَةِ غَضَبِه عباراتٍ أجنبيَّةً غريبةً عن "الدخول إليها،" و"السَّير على طريق الماء والرِّيح،" والله وحده يَعلَمُ ما قاله بالإضافة إلى ذلك، وهو ما حاوَلتُ عَبَثًا أن أتذكَّره فيما بعد، إلا أنه أصابني بغَثَيان الرُّعب والدهشة لدى سماعي له. لكنَّني تَمكَّنتُ -في النهاية- أن أذهب به إلى أمانِ الخَيمَةِ النِّسبيِّ، وألقيتُ به على الفِراش، وهو مقطوع الأنفاس يتلفَّظ باللعنات، واحتضَنتُه حتى مَرَّت النَّوبَةُ. أظُنُّ أن الصورة المفاجئة الذي انتهى بها كُلُّ شيءٍ وأصبح هادِئًا، يتوافَق مع ما حدث، بالمِثل، من تَوقُّفٍ مفاجئٍ للهَمْهَمَةِ والطَّقْطَقَةِ بالخارج. أعتقد أن هذا ربَّما كان -على الأغلب- أغربَ ما في الأمر برُمَّتِه. حيث فتح عينَيْه لِتَوِّه وأدار لي وجهَه المُتعَبَ ليُلقي الفَجرُ بضَوئه الشَّاحب عليه من خلال المدخل، وتكلَّم، مثل طِفلٍ خائفٍ بالضَّبط:

- إنها حياتي، يا صديقي القديم، أنا مَدينٌ لك بحياتي. لكنْ كُلُّ شيءٍ انتهى الآن، على أيِّ حال. لقد عثرت على ضحيَّةٍ لتحلَّ مَحلَّنا!

ثم سقط للخلف على غطائه ودخل في النوم تحت نظري، حرفيًّا. لقد انهار ببساطة، وبدأ يشخِّر من جديد بشكل طبيعيٍّ كما لو أنَّ شيئًا لم يحدث، وكأنه لم يحاوِلْ أبدًا أن يُقدِّمَ حياته كضحيَّةٍ عن طريق الغَرَق. وعندما أيقَظَه ضَوءُ الشَّمس بعد ثلاث ساعات -هي ساعاتٌ من اليَقَظَةِ المُستمرَّة بالنسبة لي- كان من الواضِح لي أنه لا يتذكر شيئًا، على الإطلاق، ممَّا قد أَقْدَمَ على فعله، حتى أنني رأيتُ أن من الحكمة أن أُحافِظَ على سَلامي، وألَّا أسأل أسئلةً خَطِرَة.

لقد استيقظ بشكلِ طبيعيٍّ، وبسهولة، كما سَبَقَ أن قُلتُ، عندما كانت الشمس قد ارتقت، بالفِعل، في سماءٍ ساخِنَةٍ خاليَةٍ من الرياح، ونهض على الفور وشَرَعَ في إعداد النار لتجهيز الإفطار. تَبِعتُه بقَلقٍ عند الاستحمام، لكنَّه لم يَعمَدْ إلى الغوص في الماء، غَمَسَ رأسه فقط، وأبدى مُلاحَظَةً ما عن برودة الماء الزائدة. ثم قال:

- لقد بدأ النَّهرُ في الانخفاض أخيراً، وهذا شيء يُسعِدُني.

قلتُ:

- لقد توقَّفَت الهَمهَمَةُ أيضًا.

رفع بصره نحوي بهدوءٍ وبأسلوبه الطبيعي في التَّعبير. من الواضح أنَّه يتذكَّر كُلَّ شيءٍ باستثناء مُحاوَلَتِه الانتحار. قال:

- لقد توقَّف كُلُّ شيء، لأن...

لقد تردَّد. لكنني أدركتُ أن في رأسه مَرجعيَّةٌ لتلك الملاحظة التي قد أبداها قبل أن يغيب عن الوعي مُباشَرَةً، وكنتُ مُصمِّمًا على مَعرِفَتِها. قلتُ بضحكَةٍ صغيرة مُصطَنَعة:

- لأنها قد عَثَرَت على ضحيَّةٍ أخرى؟

أجاب:

- بالضَّبط! أشعر بذلك بشكلٍ مُؤكَّدٍ كما لو كنتُ... كما لو كنتُ... أقصد أنني أشعر بالأمان التَّامِّ من جديد.

بدأ يتطلَّع من حوله في استغراب. كان ضوءُ الشمس يسقط في بُقَعٍ ساخنة على الرمال. لم تكن هناك ريحٌ. كان الصفصاف ساكِنًا. انتصب على قَدَميْه ببطء. ثم قال:

- تعالَ، أظنُّ أننا إذا بحثنا، سنجدها.

انطلق في الجري، وتَبِعتُه. لَزِمَ الضِّفافَ، مُنَقِّبًا بعصاه بين الخُلجان الرَّمليَّة والكهوف والمياه الخلفيَّة القليلة، وأنا أتْبَعُه عن قُربٍ دائِمًا. هَتَفَ في الحال:

- آه!

نبرةُ صوته أعادت إليَّ -على نحوٍ ما- إحساسًا حيًّا بِرُعبِ الأربع والعشرين ساعة الماضية، فهرعتُ لأنضمَّ إليه. كان يشير بعصاه إلى شيءٍ أسودَ كبيرٍ استلقى نِصفُه في الماء ونصفه على الرمال. بدا أنه علِقَ ببعض جذور الصفصاف الملتوية بحيث لم يَستَطِع النهرُ أن يسحبه. لا بُدَّ أن البُقعَةَ كانت تحت الماء قبل ساعاتٍ قليلة.

قال بهدوء:

- انظُرْ، إنها الضحية التي جَعَلَت هَرَبَنا مُمكِنًا!

وعندما نَظَرتُ من فوق كتفه رأيتُ أنه أراح عصاه على جُثَّة رَجُلٍ. قَلَبَها. كانت جُثَّةَ فلَّاحٍ، وكان الوجه مَخفيًّا في الرمال. من الواضح أن الرَّجُلَ قد غرق، لكن قبل ساعات قليلةٍ، ولا بُدَّ أن جُثَّتَه قد انجرفت على جزيرتنا في وقتٍ قريب من ساعة الفجر، في الوقت نفسه الذي كانت النَّوبَة عنده قد مَرَّت.

قال:

- يجب أن نَمنَحَه دَفنَةً لائِقَة، كما تعرف.

أجبت:

- أَفتَرِضُ ذلك.

ارتجفتُ قليلًا على الرَّغم منِّي، حيث كان هناك شيء في ذلك الرجل الغريق المسكين جعلني أَشعُر بالبرودة.

رمَقَني السُّويديُّ بنظرةٍ حادَّةٍ، وعلى وجهه تعبيرٌ لا يُمكِنُ تَفسيرُه، وبدأ يتسلَّق إلى أسفل الضِّفَّة. تابَعتُه بأناةٍ أكبر.

لاحَظتُ أن التَّيَّار قد مَزَّق الكثير من الملابس عن الجسد، بحيث بَقِيَت الرَّقَبةُ وجزءٌ من الصَّدر عاريَيْن.

في منتصف الطريق إلى أسفل الضِّفَّة، توقَّف صاحبي، فجأةً، ورفع يده مُحذِّرًا، لكن إمَّا أن قدمي انزلقت أو أنني قد اكتسبتُ الكثير من الزَّخَم لأنْ أُرغِمَ نفسي بسرعة على التوقُّف؛ لأنني اصطَدَمتُ به ودفعته فقفز إلى الأمام كي يُنقِذَ نفسه. هَوَينا معًا على الرمال الصُّلبة، حتى أن أقدامنا أثارَت الرَّشَاشَ في الماء. وقبل أن نتمكَّن من فِعلِ أيِّ شيء، اصطدمنا بالجُثَّة صَدمَةً قويَّةً إلى حَدٍّ ما.

نَدَّت عن السويدي صرخةٌ حادَّة. وارتَدَدتُ أنا إلى الخلف كما لو أنني أُصِبتُ بطَلقَةٍ.

في اللحظة التي لَمَسنا فيها الجُثَّة، تصاعد من سطحها صوتُ هَمهماتٍ مُرتَفِعَة، صوتُ العديد من الهمهمات، التي مَرَّت في فوضى كبيرة وكأنها لأشياء مُجنَّحَة في الهواء من حولنا، واختفت لأعلى في السماء، ازدادت خفوتًا على خفوتٍ حتى توقَّفَت أخيرًا على بُعد. كان الأمر كما لو أننا أزعجنا مخلوقاتٍ حَيَّةً غيرَ مَرئيَّةٍ أثناء عملها.

أمسـك بي صاحبـي، وأظـنُّ أنَّنـي أَمسَـكتُ بـه، لكـن قبـل أن يُتـاحَ الوَقـتُ الـكافي لأيٍّ مِنَّـا كي يفيـق مـن الصَّدمَـة غـير المتُوقَّعـة، رأينـا أن حركـة التيـار راحَـت تُديـر الجُثَّـةَ حتـى تحـرَّرَت مـن قبضـة جـذور الصَّفصـاف. بعـد لحظـةٍ كانـت قـد انقلَبَـت بشـكلٍ كامِـلٍ، أصبـح الوَجـهُ الميِّـتُ لأعـلى، يُحـدِّق في السـماء. تمـدَّدَت عـلى حافَّـة المجـرى الرئيـسيِّ. مـا هـي إلَّا لحظـة أخـرى وسـتُجرَف بعيـدًا.

انطلـق السـويديُّ ليُنقِذَهـا، صارِخًـا، مـرَّةً أخـرى، بـشيء لم أتمكَّـن مـن التقاطـه عـن "الدَّفنَـة اللائِقَـة"، ثـم سـقط فجـأةً عـلى رُكبتَيْـه فـوق الرمـال، وغَطَّـى عينيـه بيديـه. كنـتُ إلى جـواره في لحظـةٍ.

رأيتُ ما كان قد رآه.

بمجـرَّد أن مـال الجسـدُ نحـو التَّيَّـار، اسـتدار الوَجـهُ والصَّـدرُ المكشـوف تجاهَنـا بشـكلٍ كامِـلٍ، وأظهـرا بوضـوحٍ كيـف كانـت البَـشرَةُ واللَّحـمُ مُحَزَّزَيْـن بثقـوبٍ صغـيرة، شُـكِّلَت بجَـمالٍ، ومشـابِهَةٍ تمامًـا للأقـماع الرمليَّة التـي قـد وجدناهـا في شَـتَّى أنحـاء الجزيـرة. سَـمِعتُ رفيقـي يُتَمتِـمُ مـن بـين أنفاسـه اللاهِثَـة:

- إنها علامَتُها! علامَتُها البَشِعَة!

الوِنديجو

I

خـرج عـددٌ كبـيرٌ مـن رحـلات الصيـد في تلـك السَّـنة مـن دون العثـور علـى كثـير مـن الآثـار الحديثـة؛ إذ كانـت الأيائـل خَجولَـةً على غـير المعهود، وعـاد شـتَّى جبابـرة الصَّيـد إلى أحضـان عائِلاتِهـم بأفضـل مـا أمكـن لقَرائِحِهـم أن تَجـودَ بـه مـن حُجَـج. عـاد الدكتـور "كاثـكارت"، ضمـن آخريـن، مـن دون غنيمـةٍ، لكنـه عِوَضًـا عـن ذلـك، حمـل معـه ذكـرى تجربةٍ، صرَّح بأنها تساوي كُلَّ ما قـد قُنِص يومًا مـن فحـول الأيائـل. إلَّا أن "كاثـكارت"، ابـن أبرديـن، كانـت لـه اهتمامـات أخـرى بجانـب الأيائـل، مـن ضمنهـا شَـطَحاتُ العَقـلِ البَـشريِّ. مـع ذلـك، لم يَـرِدْ أيُّ ذِكـرٍ لهـذه القصـة بالـذَّات في كتابـه عـن الهَلْوَسَـة الجماعيـة؛ لسـبب بسـيط -هكـذا أَسَرَّ، ذات مـرَّةٍ، إلى زميـلٍ لـه في الجامعـة- أنـه هـو نفسـه لعـب دورًا مبـاشرًا في جـزءٍ منهـا، لدَرَجَـةٍ لا تسـمح لـه بتكويـن حُكـمٍ صائـب عـلى الأمـر برُمَّتـه...

بالإضافة إليه وإلى دليله، "هانك ديڤيز"، كان هناك الشاب "سيمبسون"، ابن أخيه، طالِبُ لاهوتٍ نُذِرَ للخدمة في "وي كيرك" -كان حينها في زيارته الأولى للغابات الخلفية الكَنَديَّة- ودليل الأخير، "ديفاجو". كان "چوزيڤ ديفاجو" كَنَديًّا من أصل فرنسي، شَرَدَ عن مقاطعته الأصلية، "كيبيك"، قبل سنوات، وقد عَلِقَ في "رات بورتاچ" عندما كانت السِّكَك الحديدية الباسيفيكية الكنديَّة قَيْدَ الإنشاء، وهو رَجُلٌ -بالإضافة إلى درايَتِه التي لا تُبارَى في شؤون الغابات وخبايا الأدغال- يستطيع أيضًا أن يُغنِّي أغاني الرَّحَّالة القديمة، ويروي حكاياتِ صَيدٍ رائعة فوق ذلك. وكان أيضًا مُعَرَّضًا -بشكلٍ عميقٍ- لتلك التعويذة الفريدة التي تُلقيها البَرِّيَّةُ على أشخاصٍ مُتَوحِّدين بعينهم، وقد أحبَّ العُزلَةَ البَرِّيَّةَ بنوعٍ من العاطفة الرومانسية التي كادت تبلغ حَدَّ التَّسلُّط. لقد فَتَنَته حياةُ الغابات الخلفيَّة، بلا شَكٍّ، من زاويَةِ قُدرَتِه الفائقة على التَّعاطي مع غموضها.

كان "هانك" هو الذي اختاره في هذه الرحلة على وجه الخصوص. كان يعرفه ويُقسِمُ بقدراته، ويَسبُّه كذلك، كدُعابَةٍ بين الأصدقاء، وبما أنَّه كان يملك مُفرَدات سبابٍ مُذهِلَة، وإن كانت بلا أيِّ معنى، فإن المحادثة بين رَجُلَيْ الغابات الشَّديدَيْن صاحِبَي البأس غالِبًا ما كانت من النَّوع المفعَم بالحياة. مع ذلك، ارتضى "هانك" بأن يَكبتَ نَهرَ الشَّتائم هذا، قليلًا؛ احترامًا للدكتور "كاثكارت" رئيسه القديم في الصيد، الذي كان -بالطَّبع- يُخاطِبُه بقَولِه "دوك"؛ تماشيًا مع العادة السائدة في البلاد، وكذلك لأنه فَهِمَ أن سيمبسون الصغير كان بالفعل "كاهِنًا إلى حَدٍّ ما". كان لديه -مع ذلك- اعتراضٌ بشأن "ديفاجو"، اعتراضٌ واحِدٌ لا غيرَ، وهو، أن الكندي الفرنسي كان يُبدي أحيانًا ما يَصِفُه هانك بأنه "نِتاجُ عَقلٍ مَلعونٍ وكئيب". بمعنى أنه يصبح أحيانًا نموذجًا للنَّمَط اللاتيني، ويُعاني نوباتٍ من نوع من التَّجهُّم الصامت، لا يستطيع عندها أيُّ شيء أن يحمله على الكلام. بمعنى آخر،

كان خياليًّا وسوداويًّا. وكقاعدة، فإن التَّعرُّض لتعويذة الحضارة طويلًا كان السَّببَ وراء النوبات؛ إذ أن بضعة أيام في البَرِّيَّة من شأنها أن تُداويَها تمامًا.

كانت هذه -إذن- مجموعة الأربعة الذين وجدوا أنفسهم معًا، في الأسبوع الأخير من أكتوبر من "عام الأيائل الخجولة" هذا، وقد توغَّلوا في البَرِّيَّة شمال "رات بورتاج"، وهي منطقة مُقفِرَة ومهجورة. كان هناك أيضًا "بانك"، وهو هنديٌّ رافَقَ د. "كاثكارت" و"هانك" في رحلات صَيدِهم في السنوات السابقة، وكان يقوم بمهامِّ الطاهي. اقتصر واجِبُه على البقاء في المخيَّم، وصيد الأسماك، وإعداد شرائح لحم الطَّرائِد والقهوة في غضون دقائق قليلة. كان يرتدي ثيابًا رثَّةً وَرِثَها عن سادَةٍ سابقين، وبخلاف شَعرِه الأسود الخَشِن وبشرته الداكنة، لم يكن يبدو -في ثياب المدينة هذه- هنديًّا أحمر حقيقيًّا، أكثر ممَّا يبدو زنجيَّ مَسرَحٍ أفريقيًّا حقيقيًّا. لكنه، مع كل ذلك، ظلَّ يحتفظ في داخله بغرائز عِرقِه المحتَضَر: بقي صَمتُه المتحفِّظُ وجَلَدُه، وبَقِيَت أيضًا خُرافاتُه.

كان الفريق المتحلِّق حول النار المتوهِّجة في تلك الليلة يائسًا؛ إذ مَرَّ أسبوعٌ من دون أن تظهر علامَةٌ واحدة على وجودٍ حديثٍ لأيِّلٍ ما. غنَّى "ديفاجو" أغنيته وانغمس في قصة، لكن "هانك" نَبَّهَه مرارًا، بمِزاجٍ مُتكدِّر، إلى أنه "يواصل العَبَثَ بالوقائع لدرجةِ أنَّها -تقريبًا- لم تصبح سوى كذبةٍ مكشوفة" حتى دخل الفرنسي أخيرًا في صَمتٍ عابِس لا يبدو أي شيء قادرًا على كَسرِه. كان الدكتور "كاثكارت" وابن أخيه مُستَنفَدي القوى بعد يومٍ مرهق. كان "بانك" يغسل الأطباق وهو يُهَمهِمُ بينه وبين نفسه تحت عريش الأغصان حيث نام لاحقًا أيضًا. لم يُزعِج أحَدٌ نفسَه بتحريك النار التي تحتضر ببطء. كانت النجوم تلتمع فوقهم في سماء شتوية تمامًا، وكان هناك القليل من الرياح لدرجة أن الجليد أخذ -بالفعل- يتشكَّل خُلسَةً على طول

شـواطئ البحـيرة السـاكنة مـن خلفهـم. تَسـلَّل صَمـتُ الغابـة الشاسـعة المصغِيَـة ولفَّهـم.

قطع "هانك" الصَّمتَ فجأةً بصوته الأنفيِّ قائلًا:

- أنا أُفضِّل أن نستكشف أرضًا جديدة غدًا يا دوك.

أبدى ملاحظته بحماس، مُتَطلِّعًا إلى مُستَخدِمه، قبل أن يضيف:

- ليس لدينا أي فرصة هنا.

قال "كاتكارت" باقتضابه المعهود:

- أوافق.

وأضاف:

- أعتقد أن الفكرةَ جَيِّدة.

واصل "هانك" بثِقَةٍ:

- هـي فكـرةٌ جيِّـدة بالتأكيـد يـا زعيـم، الآن أرى أن أمـضي أنـا وأنـت غَربًـا، عـلى طريـق بحـيرة "جـاردن" عـلى سـبيل التغيـير! لم يسـبق لأيٍّ مِنَّـا أن وَطِـئ تلـك البقعـة الهادئـة.

- أنا معكَ.

- وأنــت يــا "ديفاجــو"، اصطحــب السـيد "سيمبسـون" في القــارب الصغـير، تَخَـطَّ البحـيرة، ثـم احمِـلْ القـارب إلى "فيفتـي آيلانـد ووتـر"، وألْـقِ نظـرة مُدقِّقـة عـلى ذلـك الشـاطئ الجنـوبي. لقـد احتشَـدَت الأيائـل هنـاك العـامَ المـاضي بكثافـة كبـيرة، ومَـن يدري، لعلَّهـا تُكـرِّر فِعلَتَهـا هـذا العـامَ لمجـرَّد مُعابَثَتِنـا.

أبقــى "ديفاجــو" عينيــه مُثبَّتَتَــيْن عــلى النــار، ولم يَتفــوَّه بــشيء عــلى سـبيل الإجابـة، ربمـا ظَـلَّ مُسـتاءً مـن مقاطعـة قِصَّتـه.

أضاف "هانك" مؤكِّدًا، كما لو كانت لديه معلومات:

- لم يسلك أحدٌ ذلك الطريقَ هذا العام، وسأراهن على ذلك بآخر دولارٍ معي.

ألقى على شريكه نظرةً حادَّةً متفحِّصَةً، واختتم كلامه، كما لو كان الأمر قد حُسِم:

- من الأفضل أن تأخذ الخيمة الحريريَّةَ الصغيرة وتبقى بعيدًا لبضع ليالٍ.

كان "هانك" قد اعتُمِدَ مُنظِّمًا عامًّا للصيد، ومسؤولًا عن الفريق.

كان من الواضح لأي شخص أن "ديفاجو" لم يتحمَّس للخُطَّة، لكن بدا أن صَمتَه يحمل ما هو أكثر من الرفض العادي، ومَرَّ عبر وجهه، القاتم الحسَّاس، تعبيرٌ غريب يشبه وميضًا من ضوء النار، لكنه لم يكن سريعًا بحيث لا يلحظه الرجال الثلاثة.

قال "سيمبسون"، بعد ذلك في الخيمة، مُخبِرًا عَمَّه:

- لقد شعر بالفزع لسببٍ ما.

لم يجِرْ الدكتور "كاثكارت" جوابًا مباشِرًا، على الرغم من أن النظرة قد استرعت انتباهَه، في حينها، بدرجةٍ كافية لأَنْ يُسجِّل ملاحَظةً ذِهنيَّةً بخصوصها. لقد تسبَّب له التعبير في قَلَقٍ عابِر، لا يستطيع تفسيره على نحو تامٍّ في الوقت الحالي.

لكن "هانك" كان -بالطَّبع- أوَّلَ مَن لاحظ ذلك، والشيء الغريب أنه بدلًا من أن ينفعل أو يغضب من مُمانَعَة الآخر، بدأ -من فَورِه- يُمازِحُه بعضَ الشيء، قائلًا:

- لكن ليس هناك سبب محدَّد لعدم وجود أحدٍ هناك هذا العام.

ثم أضاف بنبرَةٍ اعتراها خُفوتٌ ملحوظ:

- ليس السبب الذي تقصده، على أيٍّ حال! كانت الحرائق هي ما أَبعَدَ الناس في العام الماضي، وأعتقد أن هذا العام... أعتقد أن هذا ما حدث، هذا كلُّ ما في الأمر!

كان واضحًا من أسلوبه أنه يريد تشجيعه.

رفع "جوزيف ديفاجو" عينيه للَحظَةٍ ثم أخفضهما مرَّةً أخرى. انسلَّت نسمةُ ريحٍ من الغابة، وأثارت الجمرات في تَوَهُّجٍ عابر. لاحَظَ الدُّكتور "كاثكارت" تعبيرَ وَجهِ الدليل مرَّةً أخرى، ومرَّةً أخرى لم يعجبه. لكن هذه المرة وَشَت طبيعة النظرة بنفسها. التقط -على الفور- في تلكما العينين، بَريقَ رَجُلٍ مذعورٍ للغاية، لقد أَزعَجَه ذلك لدرجةٍ لا يستطيع أن يُجاهِر بها. تساءَل وهو يضحك ليُخفِّف من وَقعِ الأمور قليلًا:

- هل يوجد هنودٌ أشرار على الطريق؟

كان "سيمبسون" نعسانًا لدرجة أنه لم ينتبه للمُزحَة، ذهب إلى الفِراش وهو يتثاءب بشدَّة، أضاف كاثكارت عندما أصبح ابن أخيه أبعدَ من أن يستطيع سماعه:

- أم... أم أن هناك أي شيء ليس على ما يُرام في المنطقة؟

قابل "هانك" نظرته بأقَلَّ من صراحته المعهودة، وأجاب بمَرَحٍ:

- هو مذعورٌ فحسب، مذعورٌ للغاية من بعض الحكايات الخرافية القديمة! هذا كل ما في الأمر، أليس كذلك، أيُّها الرفيق العزيز؟

وركل "ديفاجو" بودٍّ على قدمه الممدَّة داخل الحذاء الجلدي بقرب النار.

نظر "ديفاجو" لأعلى بسرعة، كأنما أفاق من حُلم يَقَظةٍ، حلم، لم يمنع مع ذلك متابعته لما دار من حوله. أجاب في حُمَيَّا التحدي:

- لستُ مذعورًا من شيء، ما من شيء في الأدغال بمقدوره أن يثير ذعر "چوزيف ديفاجو"، إيَّاكَ أن تنسى ذلك!

جعلت الحرارة الطبيعية، التي تحدَّث بها، من المستحيل معرفةَ إذا ما كان قد قال الحقيقةَ الكاملة أو جزءًا منها فقط.

التفت "هانك" صوبَ الدكتور. كان بصَدَدِ أن يضيف شيئًا عندما توقَّفَ فجأةً ونظر حوله. صوتٌ قريب في الظلام من خلفهم جعلهم يَجفلون ثلاثتُهُم. لقد كان "بانك" العجوز، الذي خرج من تحت عَريشِه بينما يتحدَّثون ووقف مُنصِتًا، في هذه اللحظة، خارج دائرة ضوء النَّار مباشرة.

همس "هانك" وهو يغمز بعينه:

- في وقتٍ آخر يا "دوك"!

وأضاف:

- عندما لا تعود المقاعِدُ الخلفيَّةُ مُفضَّلةً على الأمامية!

ثم انتفض واقفًا، وصَفَعَ الهنديَّ على ظهره وصاح في صخبٍ:

- اقترِبْ من النار ودَفِّئ جِلدَكَ الأحمر القَذِرَ قليلًا.

ثم جرَّه صَوبَ الشُّعلَة وألقى إليها بالمزيد من الخشب، وقال:

- لقد قدَّمتَ إلينا طعامًا رائعًا قبل ساعة أو اثنتين.

وواصل الكلام بحرارَةٍ، كما لو كان يُولِّي أفكارَ الرجل وجهةً أخرى:

- وليس من المسيحية في شيءٍ أن نترك رُوحَكَ العجوز تتجمَّد هناك بينما نَنعَمُ نحن بكلِّ الخير والدفء.

انتقل "هانك" ودَفَّأ قدَمَيْه، وهو يبتسم بفتورٍ لثرثرة الآخر التي لم يفهم سوى نِصفِها، لكنه لم يَقُلْ شيئًا. ما لبث الدكتور كاثكاركت، وقد رأى أن من المستحيل إجراء المزيد من المحادثات، أن حذا حذوَ ابن أخيه وانتقل إلى الخيمة، تاركًا الرجال الثلاثة يُدخِّنون حول النار المتوهِّجة في تلك اللحظة.

ليس من السَّهل على المرء أن يخلع ملابسه في خيمةٍ صغيرة من دون أن يوقِظَ رفيقه، و"كاثكارت"، بما هو عليه من صَلابَةٍ وتَوقُّدٍ على الرغم من تَخطِّيه الخمسين، فَعَلَ ما قد يَصِفُه هانك بـ "توقير نهايَةِ يَومِه" في الخلاء. لاحظ خلال العملية أن بانك رجع إلى عريشه في هذه الأثناء، وأن هانك وديفاجو قد عادا إلى التَّعامُل مثل المطرقة والكَمَّاشة، أو بالأحرى، مثل المطرقة والسِّندان، والكندي الفرنسي الضئيل هو السِّندان. كان الموقف بِرُمَّتِه يشبه كثيراً الصورةَ المسرحيَّة التقليدية لميلودراما الغرب: تضيء النارُ وجهَيْهِما ببُقَعٍ حمراء وسوداء على التَّناوُب. يلعب ديفاجو، بقبَّعتِه المائلة وحذائه الجِلديِّ، دور الشرير في "أراضي الغرب المقفِرَة". وهانك، بوجهه الطَّلقِ ورأسه العاري وهِزَّة كتِفَيْه المستهينة، هو البطل النَّزيه المخدوع. وبانك العجوز، يتنصَّت في الخلفيَّة، مُضفيًا جَوًّا من الغموض. ابتسم الدكتور بينما كان يلاحظ التفاصيل، لكنه شعر في الوقت نفسه بشيء ما ينقبض قليلًا في أعماقه، بالكاد يعرف ما هو، كما لو أنَّه هَبَّةُ تحذيرٍ كادت أن تكون غير محسوسَةٍ، لامَسَت سطحَ رُوحِه وذهبت مرَّةً أخرى قبل أن يتمكَّن من الإمساك بها. كان على الأرجح شيئًا ذا صِلَةٍ بذلك "التعبير المروَّع" الذي رآه في عينَيْ ديفاجو. "على الأرجح"... إذ بخلاف ذلك فقد أفلَتَ هذا الملمحُ من الانفعال العابر من تحليله الدقيق عادةً. كان واعيًا على نحوٍ غامِضٍ أن ديفاجو قد يُسَبِّبُ متاعِبَ بطريقةٍ ما... لم يكن دليلًا موثوقًا كهانك، على سبيل المثال... ليس بوسعه الذهاب إلى أبعد من ذلك...

راقَبَ الرِّجالَ لبُرهَـةٍ مـن الزمـن قبـل أن يغـوص في الخيمَـةِ سَـيِّئَةِ التَّهويَـة، حيـث كان سيمبسـون يَغـطُّ في نومـه بالفعـل. رأى هانـك يَسـبُّ كأفريقـيٍّ مُلتـاثٍ في حانَـةِ زنـوجٍ في نيويـورك. لكنـه كان سـبابَ "المـودَّة". كانـت الشـتائم اللاذعـة تنطلـق بحُرِّيَّـةٍ؛ إذ أن سـبب كَبتِهـا كان نائمًـا. كان في تلـك اللحظـة يضـع ذراعـه بمـا يشـبه الحنـان عـلى كتـف رفيقـه، وتحـرَّكا معًـا إلى داخـل الظِّلال حيـث انتصَبَـت خَيمَتُهـما تومِـضُ بِوَهـنٍ. حـذا بانـك -أيضًـا- حَذوَهـما بعـد لحظـةٍ، واختفـى بـين أَحرِمَتِـه العَبِقَـة في الاتِّجـاه المعاكـس.

بعـد ذلـك انتقـل الدكتـور كاثـكارت، بالمثـل، إلى الداخـل، وبقـي الإرهـاق والنـوم يقاومـان فضـولًا مُبهَـمًا في ذهنـه لمعرفـة مـا الـذي قـد أثـار خـوف ديفاجـو في المنطقـة التـي عـلى طريـق فيفتـي آيلانـد ووتـر، مُتسـائِلًا كذلـك عـن السـبب الـذي جعـل وجـود بانـك يَحـولُ بـين هانـك وبـين إتمـامِ مـا أراد أن يقـول. ثـم غَلَبَـه النَّـومُ. سـوف يعـرف في الغـدِ. سـيخبره هانـك بالقصـة بينـما يجِـدَّان في أثـر الأيائـل المراوِغَـة.

هبـط صَمـتٌ عَميـقٌ عـلى المخيَّـم الصغـير، المنغَـرِس بجـرأةٍ شـديدةٍ بـين فَـكَّيْ البَرِّيَّـة. التمَعَـت البُحَـيرَةُ مثـل لـوحٍ مـن الزُّجـاج الأسـود تحـت النجـوم. كان الهـواءُ البـارد واخِـزًا، والروائـح الخفيفـة الباردة للشـتاء المقبِل تَكمُــن، بالفعـل، في تيَّـارات الليـل التـي تَصُـبُّ مَدَّهـا الصَّامِـتَ القـادم مـن أعـماق الغابـة، والمحمَّـل برسـائل مـن التـلال البعيـدة والبُحَـيرات التـي بـدأت تتجمَّـد لِتوِّهـا. ربمـا لم يكـن الرِّجـالُ البِيـضُ، بحاسَّـةِ شَـمِّهم الضعيفـة، ليَحدُسـوا بهـا أبـدًا. كان مـن شـأن رائحـة حَـرقِ الأخشـاب أن تُخفـي عنهـم هـذه الإشـاراتِ شِـبهَ الكهربائيـة للطَّحالـب واللحـاء ومُسـتَنقعٍ يَنشَـطُ عـلى بُعـدِ مائـة ميـل. حتـى هانـك وديفاجـو، بمـا هـم عليـه مـن تواطُـؤ سِرِّيٍّ مـع روح الغابـة، كانـا عـلى الأرجـح سيُوَسِّـعان فتحـات أنفَيهِـما الدَّقيقَـين مـن دون جـدوى...

لكـن بعـد سـاعةٍ، عندمـا نـام الجميـعُ كالموتى، انسـلَّ بانك العجـوز من بـين أَحرِمَتِـه وانحـدر صـوبَ شـاطئ البحـيرة صامتًـا كالظِّـل، كـما يسـتطيع ذَوُو الدمـاء الهنديـة فقـط أن يتحرَّكـوا. رفـع رأسـه وتطلَّـع حولـه. قَلَّـلَ الظـلام الكثيـف مـن نفـع حاسَّـةِ البـصر، لكنـه، مثـل الحيوانـات، كان يمتلـك حـواسَّ أخـرى لا يسـتطيع الظـلامُ أن يُعطِّلَهـا. أصـاخ السَّـمعَ ثـم تَشـمَّم الهـواء. وقـف بـلا حـراكٍ مثـل سـاق نبـات الشـوكران. رفـع رأسـه ثانيـةً، بعـد خمـس دقائـق، وتشـمَّم الهـواء، ومـن ثَـمَّ مَـرَّةً أخـرى. عندمـا ذاق الهـواءَ القـارص، سَرَى عـبر جسـمه تنميـلٌ في أعصابـه الهادئـة، من دون أن تُفصِـحَ عنـه أي علامـات خارجيـة. دمـج نفسـه بعـد ذلـك في السَّـوادِ المحيـط بطريقـةٍ لا يُدرِكُهـا سـوى الرجـال البَرِّيِّـين والحيوانـات، اسـتدار، مُسـتَمرًّا في التحـرُّك كالظِّـل، وعـاد خلسـةً إلى عريشـه وفِراشـه.

وبعـد فـترة وجيـزة مـن نومـه، أثـار تَغـيُّر الريـح -الـذي حَـدَسَ بـه- انعـكاسَ النجـوم عـلى البحـيرة برِفـقٍ. أتـت مـن الاتجـاه الـذي كان يُحـدِّق فيـه، صاعـدة بـين التـلال البعيـدة في المنطقـة وراء فيفتـي آيلانـد ووتـر، ومـرَّت فـوق المخيَّـم النائـم مُتَخلِّلَـةً قِمَـمَ الأشـجار الكبـيرة بهَمهَمَـةٍ خافتة ومُتنهِّـدة كادت أن تبلـغ مـن الضَّعـف درجـةً لا تجعلهـا مسـموعَة. مـرَّت معهـا في مسـارات الليـل الخاويـة رائحـة ضعيفـة عجيبـة، مثـيرة للقلـق بشـكل غريـب، لكنهـا كانـت خفيفـةً للغايـة، ومرتفعـة للغايـة حتـى بالنسـبة إلى أعصـاب الهنـدي المرهفـة كالشَّـعرة، رائحـة شيء يبـدو ليـس مألوفًـا، ومجهـولًا تمامًـا.

في هـذا الوقـت بالتحديـد، تقلَّـب كُلٌّ مـن الكنـدي الفرنـسي والرجـل ذو الدِّمـاء الهنديـة في نومـه بانزعـاجٍ، مـع ذلـك لم يسـتيقظ أيٌّ منهـما. رحـل شَـبَحُ تلـك الرائحـة الغريبـة عـلى نحـوٍ لا يُنـسَى، بعـد ذلـك، وضـاع عـلى البعـد وسـط تشـابُكات الغابـة الشَّـاغِرَة.

II

في الصبـاح، كان المخيَّـم مُسـتَيقِظًا قبـل شروق الشـمس. تسـاقَطَت الثلـوج بشـكل خفيـفٍ أثنـاء الليـل، وكان الهـواءُ قارِسًـا. قـام بانـك بواجِبـه في وقـتٍ مُبكِّـر؛ إذ وصَلَـت روائِـحُ القهـوَة ولحـم الخنزيـر المحمَّـر إلى كُلِّ خَيمَـةٍ. كانـوا يتمتَّعـون جميعًـا بمعنويّـاتٍ مُرتفعـة.

صـاح هانـك بقـوة، وهـو يراقـب سيمبسـون ودليلـه يحمِّلـون القـارب الصغـير بالفعـل:

- لقـد تحوَّلَـت الريـح! أصبَحَـت بعـرض البُحَـيرة، تُناسِـبكم تمامًـا أيُّها الرِّفـاق. والثلـج سـيصنَعُ مَسـاراتٍ رائِعـةً! إذا كان هنـاك أيُّ أيائِـلَ تَتسـكَّع، فليـس لديهـا فرصـة كبـيرة لتشـتَمَّ رائِحَـةَ مُؤخِّراتِكـم مـع بقـاء الريـح عـلى حالهـا.

وأضاف بمرحٍ، مانحًا الاسم -لمرَّةٍ- نُطقَه الفرنسي:

- حظٌّ سعيد يا مسيو ديفاجو.

ردَّ ديفاجو التمنِّيات الطيبة، كان في أفضل معنويات كما هو واضح، وقد ذهب عنه المزاج الصامت. قبل الساعة الثامنة كان المخيَّم قد أصبح خالِصًا لبانك العجوز، كان كاثكارت وهانك يتقدَّمان على الطريق المؤدِّي غربًا، بينما القارب الذي يحمل ديفاجو وسيمبسون، مع الخيمة الحريرية وطعامٍ ليومين، أصبح بالفعل بُقعَةً سوداء تتمايل في قلب البحيرة ماضِيَةً في اتجاه الشرق.

خفَّت حِدَّة الهواء الشتوية حينئذ بتأثير من الشمس التي اعتلت التلال المشجرة وتوهَّجَت بدفء مُترَفٍ فوق عالَمِ البُحَيرَةِ والغابة في الأسفل، انطلقت طيورُ الغاق تحفُّ الماء عبر الرذاذ اللامع الذي حملته الريح، نفَضَت الطيور الغوَّاصَةُ رُؤوسَها التي تَقطُر، في الشمس، وانطلقت بأناقَةٍ خارجة من المشهد مرَّةً أخرى. وعلى مدى البصر انتَصَبَت تَشابُكاتُ الدَّغلِ اللانهائي المحتشد، المهجور بامتداده وعَظَمَتِه المنعَزِلَيْن، لم تَطَأه قَدَمُ بَشَرٍ، يمدُّ بساطَه الهائل غير المنقَطِع حتى شواطئ خليج هدسون المتجمِّدة.

كان سيمبسون يرى ذلك كُلَّه للمرَّة الأولى، بينما يُجدِّف بقوَّة في مُقدِّمة القارب المتراقص، وكان مفتونًا بجَمالِه الصَّارم. تَشرَّب قلبُه حسَّ الحرية والفضاءات الشاسعة، تمامًا كما تشرَّبَت رئتاه الريحَ الباردة المعطَّرة. وراءه في المقعد الخلفي، كان ديفاجو يوجِّه القارب المصنوع من خشب البتولا وكأنه شيءٌ حيٌّ، وهو يغنِّي مقاطع من ترنيمته المحلية، ويجيب ببشاشة عن جميع أسئلة مُرافِقِه. كان كلاهما فَرِحًا وخَلِيَّ البال. فالرجال يفقدون، في مثل هذه المناسبات، الفروق السطحية والدنيويَّة. يصبحون بشرًا يعملون معًا لغايَةٍ مُشتَرَكة. كان سيمبسون ربَّ العَمَل، وديفاجو المستخدَم مجرَّدَ رَجُلَين، وسط هذه القوى البدائية، "الدليل والمستدِلّ به". تولَّت المعرفة المتفوِّقة القيادة، بالطبع، وحلَّ الشابُّ في موقع شبه المرؤوس من دون أن يفكِّر مرَّتَيْن. لم يخطر له قَطُّ أن يعترض عندما أسقط ديفاجو لقب "السَّيِّد" وخاطَبَه

مُستَخدِمًا "قُلْ لي يا سمبسون"، أو "يا ريس سيمبسون"، هكذا كان الحال طوال الوقت قبل أن يَصِلَا إلى الشاطئ الأبعد بعد اثني عشر ميلًا من التجديف الشَّاقِّ في مواجهة الريح المناوِئَة. لم يَزِدْ أن ضحك، وأعجبه الأمر، ثم توقَّف تمامًا عن مُلاحَظَتِه.

هذا لأن "طالب اللاهوت" كان شابًّا ذا مواهب وشخصية، مع أنه، بالطبع، لم يكن قد ارتحل كثيرًا حتى تلك اللحظة، ولأن المقياس الضخم للأشياء حَيَّره في هذه الرحلة، التي رأى فيها للمرَّة الأولى بلدًا بخلاف بلده وسويسرا الصغيرة. أدرك أن السَّمع عن الغابات البدائية شيء، ورؤيتها شيء آخر تمامًا. في حين أن الإقامة فيها والسعي إلى التَّعرُّف على حياتها البَرِّيَّة، كانا أيضًا، معرفة ليس بوسع إنسان واعٍ أن يطَّلِع عليها من دون تغييرٍ مؤكَّدٍ في قِيَمِه الشخصية التي كانت، حتى ذلك الحين، ثابتة ومُقدَّسة.

عرف سيمبسون أوَّلَ إشارة خافتة لهذا الشعور عندما حمل في يده البندقية 303 الجديدة، وتَطلَّع إلى ماسورَتَيْها اللامعتين المتقنَتَيْن. كانت رحلة الثلاثة أيام إلى مَقرِّهم، عن طريق البحيرة والبَرِّ، قد ذهبت به إلى مرحلة أبعد. وكان عند تلك اللحظة على وشك التوغُّل فيما هو أبعد حتى من حافَّة البَرِّيَّة حيث خيَّموا في القلب البِكر لمناطق غير مأهولَةٍ تُماثِلُ في اتِّساعها أوروبا نفسها، كان لحقيقة الموقف التي زحفت عليه وقعٌ من السُّرور والدهشة، حتى أن خَيالَه كان قادرًا على تقدير الموقف بشكل تامٍّ. كان هو وديفاجو في مواجَهَةِ حَشدٍ... على الأقل، في مواجهة أحدِ الجبابرة.

غمرته الرَّوعة الموحِشَة، لهذه الغابات النائية المنعزلة، بالإحساس بضآلته، إلى حدٍّ ما. لا يمكن لتلك الطبيعة الصارمة للغابات الخلفية المتشابكة أن توصف إلَّا بكونها قاسِيَةً وفظيعة، خرجت من هذه الغابات البعيدة الزرقاء السابحة فوق الأفق، وكشَفَت عن نفسها.

فَهِمَ التحذيرَ الصامت. أدرك عَجزَه المطلَق. وقف ديفاجو وحده، كرمزٍ للحضارة البعيدة حيث كان الإنسان هو السيد، ليَحولَ بينه وبين الموت بلا شَفَقةٍ من جرَّاء الإرهاق والجوع.

لذلك، كان أمرًا شيِّقًا بالنسبة إليه أن يشاهد ديفاجو وهو يقلب القارب على الشاطئ، ويرصُّ المجدافين تحته بعناية، ثم شرع يصنع علاماتٍ على جذوع أشجار التَّنُّوب لمسافةٍ مُعيَّنة على جانِبَيْ دربٍ غير مرئي تقريبًا، مُلقِيًا بملاحظة لا مُبالِيَة:

- انتَبِهْ يا سيمبسون، إذا ما أصابني مكروهٌ، ستصل إلى القارب باتِّباع هذه العلامات، ثم امضِ غربًا مع الشمس لتصل إلى مقرِّ المخيَّم مَرَّةً أخرى، أتفهَم؟

كان أكثر قولٍ طبيعي في العالم، وقاله من دون أي تَغَيُّرٍ في صوته، لكن تَصادَف أنه كشف عن انفعالات الشابِّ تجاه مقولَةٍ لَخَّصَت الموقف وعجزه كطرف فيه. كان بمفرده مع ديفاجو في عالَمٍ بدائيٍّ، هذه كانت خُلاصَة الأمر. من المفترض في تلك اللحظة أن يُخلِّفوا القارب وراءهم، وهو رمزٌ آخر لسيطرة الإنسان. كانت تلك البُقَع الصفراء الصغيرة، التي أحدثها الفأسُ على الأشجار، هي المؤشِّر الوحيد على المكان المخَبَّأ فيه.

في تلك الأثناء، كان كل رَجُلٍ يحمل بندقيته، ويتشاركون في حمل الأمتعة على أكتافهم، مُتَّبِعين الدرب النحيل فوق الصخور وجذوع الأشجار المتساقِطَة وعبر المستنقع شبه المتجمِّد، مُلتفِّين حول العديد من البحيرات التي تُرصِّع الغابة إلى حَدٍّ ما، وقد حَفَّ الضبابُ بأطرافها. ووجدوا أنفسهم فجأة على حافَّة الغابة، يتطلَّعون عبر رُقعَةٍ كبيرة من الماء أمامهم، تتخلَّلها جُزُرٌ مُغطَّاةٌ بأشجار الصنوبر من جميع الأشكال والأحجام التي يمكن وَصفُها.

أعلن ديفاجو بضَجَر:

- فيفتي أيلاند ووتر.

وأضاف بشاعريَّةٍ لا واعِيَة:

- والشمس ستُغطِّس رأسَها العجوزَ الأصلع فيها!

وشَرَعوا على الفور في نَصْبِ المخيَّم لِلَّيل.

في غضون دقائِقَ قليلة، انتصَبَت الخيمة الحريرية مُحكَمَةً ومُريحة، تحت تلك الأيدي الماهرة التي لم تأتِ قَطُّ بحركة زائدة أو ناقصة، بُسِطَ الفِراشان المصنوعان من أغصان البَلسَم، وتأجَّجَت نار الطهي النَّشِطة بأقل قَدْرٍ من الدُّخَان. بينما كان الاسكتلنديُّ الشاب يُنظِّف السمكة التي صادوها بالجَرِّ خلف القارب، رأى ديفاجو أنه ربما كان من الأفضل أن يبدأ من فَوْرِه بأخذ جَولَةٍ في الدغل بحثًا عن مؤشِّراتٍ على وجود الأيائل. قال وهو يَشرَعُ في المغادرة:

- ربما تأتي من جِذعٍ حيث تواجَدَت وقامت بِحَكِّ قرونها، أو كانت تتغذَّى على آخر أوراق القَيْقَب.

ثم ذهب.

تلاشت هيئته الصغيرة مثل الظِّلِّ في العَتَمَة. بينما لاحظ سيمبسون -بنوعٍ من الإعجاب- كيف امتصَّته الغابَةُ داخِلَها بسهولة. ما هي إلَّا خطواتٍ قليلة، على ما بدا، ولم يَعُد مرئيًّا.

على الرغم من وجود القليل من الشجيرات التي تنمو تحتها، إلَّا أن الأشجار انتصبت مُنفَصِلَةً نوعًا ما، ومُتباعِدَة على نحوٍ جيِّد، ونَمَت أشجار البتولا والقَيقَب الفِضِّيَّة في الأراضي المجتَثَّة أشجارها، ممشوقَةً كالرِّماح، في مواجهة السيقان الهائِلَة لأشجار التَّنُّوب والشوكران. لكن بالنسبة إلى الوحوش الرابضة المتفرِّقة، وجلاميد الصَّخر الرمادي التي دفَعَت بأكتافها الخَشِنَة خارج الأرض هنا وهناك، من المرجَّحِ

أنها كانت نوعًا من المتنزّهات في وطن السُّكّان الأصليّين. قد يرى المرءُ أثر يَدَ الإنسان فيها بالكاد. مع ذلك، يبدأ على اليمين قليلًا القِسمُ الكبير المحترق، الممتدُّ لأميالٍ، مُعلِنًا عن شخصيته "المتفحِّمة" الحقيقية، كما يُطلَق عليها، حيث اندلعت حرائق العام السابق على مدى أسابيع، وبَدَت الجذوعُ السوداء في تلك اللحظة هزيلةً وقبيحةً، مُجرَّدَةً من الغصون، مثل رؤوس أعواد ثقابٍ عملاقةٍ مُثبَّتة في الأرض، ضارِيَة ومُوحِشَة بما يفوق الوصف. ظَلَّت رائحة الفحم والرماد المبلَّل بالمطر عالِقَةً حولها بشكلٍ ضعيف.

سرعان ما ازدادت العَتَمَة، وأصبَحَت فُرجاتُ الغابة مُظلِمَةً، وكانت طَقْطَقَةُ النار وتلاطُم الأمواج الصغيرة، على طول شاطئ البُحَيرة الصَّخريّ، هي الأصوات الوحيدة التي يمكن سَماعُها. هبَطَت الريح مع الشمس، لم يَكُن شيء يَتحرَّكُ في عالم الأغصان الفسيح ذاك. بدا أن آلِهَة الغابة، التي تُعبَد في صمتٍ وعُزلَةٍ، سوف تبسط معالمها الجبَّارة الرائعة بين الأشجار في أي لحظة. في الأمام، ومن خلال مَداخِلَ ذات أعمِدَةٍ من سيقان الأشجار المستقيمة الضخمة، امتدَّت "فيفتي أيلاند ووتر"، بحيرة هلاليّة الشكل يبلغ طولها حوالي خمسة عشر ميلًا من الطرف للطرف، وربما خمسة أميال عبورًا إلى حيث خيَّموا. كانت السماء ذاتَ لَونَيْ الوَردِ والزَّعفران، والأكثر صَفاءً من أيِّ جَوٍّ آخر قد عرفه سيمبسون، لا تزال تُسقِطُ نيرانها الباهِتَة المتدفِّقة عبر الأمواج، حيث طَفَت الجُزُر -المائة، بالتأكيد، أكثر منها خمسين- مثل سُفُنٍ خياليَّة في أحد الأساطيل المسحورة. مُحاطَة بأشجار الصنوبر التي كانت قِمَمُها تُلامِسُ السماء بأقصى رِقَّة، بَدَت وكأنها تكاد تتحرَّك لأعلى مع تلاشي الضوء. كانت على وشك أن ترفع المرساة وتبحر في مسارات السَّماء بدلًا من تيَّارات بُحَيرَتِها المحلِّيَّة المقفِرَة.

وتَماوَجَت شرائِطُ من السُّحُب الملوَّنة كالرايات، مُؤذِنةً برحيلها إلى النجوم...

كان جَمال المشهد باعِثًا على الانشراح بشكلٍ غريبٍ.

شـيَّط سيمبسـون السَّـمكَةَ، وأحـرق أصابِعَـه، أيضًـا، أثنـاء محاولاتـه للاسـتمتاع بهـا مـع الانتبـاه للمِقـلاة والنـار في الوقـت نفسـه. مـع ذلـك، بقـي هـذا الوَجـهُ الآخـر للبَرِّيَّـة قابِعًـا في مُؤخِّـرَة رأسـه طيلـةَ الوقـت، اللا مبـالاة بالحيـاة البشريـة، وروح العُزلـة عديمـة الرحمـة التـي لم تكـترث بالإنسـان. داهَمَـه الشـعورُ بوحدتـه المطلقـة -حتـى ديفاجـو قـد رحـل- بينـما كان يتلفَّـتُ مـن حولـه ويُنصِـتُ في تَرقُّـبٍ لسَـماع وقـع خطـوات صاحبـه عنـد عودتـه.

كانـت هنـاك لَـذَّة في هـذا الشـعور، لكـن كان معهـا نذيـرٌ مفهـوم تمامًـا. وانبعثـت في داخلـه الفِكـرَة بشـكلٍ غريـزيٍّ: مـاذا ينبغـي علـيَّ؟ مـاذا بوسـعي أن أفعـل إذا مـا حـدث أي شيء، ولم يَعُـد؟

اسـتمتعا بعشـائهما المسـتَحَقِّ، مُلتَهِمـين كمِّيَّـاتٍ لا حـصرَ لهـا مـن الأسـماك، شـاربين شـايًا مـن دون حليـب كان قويًّـا بمـا يكفـي لقتـل رجـالًا لم يقطعـوا ثلاثـين ميـلًا مـن الارتحـال الشـاقِّ، وتناولـوا القليـل مـن الطعـام عـلى الطريـق. وعندمـا فَرَغـا مـن عشـائهما، دَخَّنـا وحَكَيَـا القصـص حـول النـار المتوهِّجـة، وهـما يضحـكان ويمـدَّان أطرافهـما المنهَكَـة ويناقشـان خُطَـطَ الغَـدِ. كان ديفاجـو في حالـة معنويَّـةٍ ممتـازة، وإن كان أَمَلُـه قـد خـاب لعـدم حصولـه عـلى علامـاتٍ عـن وجـود الأيائـل يسـتطيع أن يُخـبِرَ بهـا. لكنهـا كانـت قـد أظلَمَـت ولم يذهـب بعيـدًا. كـما أن القسـم "المتفحِّـم" كان سـيئًا. تلطَّخَـت ملابسـه ويديـه بالفحـم. كان سيمبسـون، وهـو يُراقِبُـه، يـدرك بوضـوحٍ مُتجـدِّدٍ وَضْعَهـما وهـما مُنفَرِدَيْـن معًـا في البرِّيَّـة. مـا لَبِـثَ أن قـال:

- ديفاجـو، هـذه الغابـة، أنـت تعـرف، كبـيرة نوعًـا مـا لدرجـة لا تجعَلُـكَ تشـعر فيهـا بأنَّـك في بيتِـكَ، أقصـد أن تشـعر فيهـا بالراحـة!... أليـس كذلـك؟

لم يَعْدُ أن عَبَّر عن طبيعة اللحظة، كان بالكاد متأهِّبًا للجدِّيَّة، أو حتى الوقار الذي أخذه به الدليل.

أجاب مُثبِّتًا عينيه البُنِّيَّتَيْن الثاقبتين على وجهه:

- لقد أصبتَ، أيُّها الرئيس سيمبسون، وتلك هي الحقيقة، بالتأكيد. إنها بلا نهاية، لا نهاية لها على الإطلاق.

ثم أضاف بنبرةٍ مُنخَفِضَة كما لو كان يحدِّث نفسه:

- كثيرون اكتشفوا ذلك، وانهاروا مباشرةً!

لكن طريقة الرجل الجِدِّيَّة لم تَلْقَ قبولًا تامًّا عند الآخر؛ كانت تثير كثيراً من الإيحاءات بالنسبة إلى هذا المشهد وهذا الوضع، شَعَرَ بالأسف لأنه تطرَّق إلى الموضوع. تذكَّر فجأةً كيف قد أخبره عَمُّه أن الرجال يُصابون أحيانًا بحُمَّى البَرِّيَّة الغريبة، عندما يُمسِكُ بهم إغواءُ القِفار المهجورة بشدَّة، لدرجةٍ تجعلهم يمضون إلى حَتفِهِم قُدُمًا نصف مسحورين ونصف مُضَلَّلين. وقد ساوَرَتْه فكرةٌ مُتبصِّرَة أن رفيقه يحمل شيئًا متوافِقًا مع هذا النمط المهووس. أمسك بزمام المحادثة متوجِّهًا بها صوبَ موضوعات أخرى، صوبَ هانك والدكتور، على سبيل المثال، والتنافُس الطبيعي حول مَن سيكون أوَّلَ مَن يلمح الأيائِلَ.

علَّق ديفاجو بعدم اكتراث:

- إذا ذهبا إلى الغرب، فالمسافة التي تفصلهما عنَّا الآن هي ستون ميلًا، وبانك العجوز في البيت عند منتصف الطريق يأكل ملءَ بطنه حتى ينفجر بالسَّمَك والقهوة.

ضَحِكَا من الصورة معًا. لكنَّ ذِكْرَ تلك الأميال الستين بشكل عَرَضيٍّ جعل سيمبسون ينتبه مرَّةً أخرى للمقياس الهائل للأرض التي نزلوا بها، كانت الستُّون ميلًا مجرَّدَ خُطوَة، والمائتان أكثر قليلًا من خطوة. بَزَغَت قصص الصيَّادين المفقودين بإصرارٍ في ذاكرته. كان الشَّغَف

والغموض المحيط برجالٍ تائهين بلا مأوى، أغوتهم الغاباتُ العظيمةُ بجَمالِها، قد اجتاح روحه بطريقة أقوى من أن تكون مُمتِعَةً. تساءَل بشَكلٍ غامِضٍ إذا ما كان مِزاجُ صاحبه هو الذي استدعى الإيحاءات غير المرغوب فيها بمثل هذا الإصرار.

قال له:

- غَنِّ لنا أغنية، يا ديفاجو، إن لم تكن مُتعَبًا كثيراً، واحدة من أغاني التَّرحال القديمة، تلك، التي غَنَّيتَها في الليلة الماضية.

ناوَلَ كيسَ تَبغِه للدليل، ثم ملأ غليونه، بينما أرسل الكنديُّ صَوتَه الخفيض عبر البحيرة، من دون أي مُمانَعَة، في واحدة من تلك الأغنيات الشَّجيَّة شبه الحزينة التي يُخفِّف بها الحطَّابون وصيَّادو الفخاخ من عِبء عَمَلِهم. كانت لها نَكهَةٌ جذَّابة ورومانسية، شيء يُذَكِّر بأيام الروَّاد القدامى، عندما كان الهنود والبرية مُتكاتِفين معًا، تَتواتَرُ المعارك، والبلد القديم أَبعَدُ ممَّا هو عليه اليوم. ارتحل الصوت بلُطفٍ فوق الماء، لكن يبدو أن الغابة، خلف ظهورهم، ابتلعته في جَرعَةٍ واحدة لم تسمح بالرَّنين ولا رَجْع الصَّدى.

كانت الأغنية في منتصف البيت الثالث عندما لاحظ سيمبسون شيئًا غيرَ مُعتادٍ، شيئًا جعله يندفع مرتدًّا بأفكاره عن المشاهد البعيدة. كان تَغيُّرٌ عجيبٌ قد طَرَأَ على صوت الرجل، تَملَّكَه الانزعاجُ، حتى قبل أن يعرف ماذا هناك، ورفع نظره مُسرِعًا، ليجد ديفاجو مُستمرًّا في الغناء، إلَّا أنه يُحدِّق في الدَّغل من حوله، كما لو كان قد سمع أو رأى شيئًا. أصبح صوتُه أكثرَ خفوتًا، انخفض إلى السكون، ثم توقَّف كُلِّيًا. نهض، على الفور، مُنتَصِبًا على قدمَيْه، بحركة رشيقة على نحو مُذهِل، واستقام واقفًا يتشمَّم الهواء. سَحَبَ الهواءَ إلى فتحَتَيْ أنفه في شهقاتٍ قصيرة وحادَّة، مثل كلبٍ يتشمَّم الطريدة، بينما يفعل ذلك، كان يتلفَّت بسرعة في كل الاتجاهات، وأخيراً أشار صوبَ شاطئ

البحـيرة، باتجـاه الـشرق. كان أداءً مُوحِيًـا عـلى نحـو مُنفِّـرٍ، وفي الوقـت نفسـه، دراميًّـا بصـورَةٍ مُتفـرِّدة. ارتجـف قلـبُ سيمبسـون بشـكل سـيِّئ عندمـا شـاهَدَه. انتصـب في التَّـوِّ عـلى قَدَمَيْـه إلى جانبـه، وراح يُحـدِّق مـن فـوق كتفـه في بحـر الظُّلمـة، وهتـف بـه قائـلًا:

- يا إلهي، لقد جعلتني أقفزُ يا رجل! ماذا هناك؟ هل أنت خائف؟

عـرف أنـه كان سـؤالًا أحمـقَ، حتـى قبـل أن يخـرج مـن فمـه؛ إذ أن أيَّ رَجُـلٍ لـه عينـان في رأسـه يسـتطيع أن يـرى أن الكَنَـديَّ قـد ابيـضَّ لَونُـه مـن رأسـه حتـى أخمصـه. حتـى أن حـروق الشـمس ووَهَـج النـار ليـس بوسـعها أن تخفـي ذلـك.

شـعر الطَّالِـبُ أنـه يرتجـف قليـلًا، وأحـسَّ بضَعـفٍ في رُكبَتَيْـه. كـرَّر السـؤال مُسرِعًـا:

- ماذا هناك؟

ثم واصَلَ خافِضًا صوته بشكلٍ غَريزيٍّ:

- هل تَشمُّ رائحة الأيائل؟ أم أن هناك شيءٌ غريب، أو أي شيء ليس على ما يرام؟

احتشَـدَت الغابـة مـن حولهـما بجدارهـا المطَـوِّق. التَمَعَـت جـذوعُ الأشـجار القريبـة في ضـوء النـار مثـل البرونـز. كان مـا وراء ذلـك سـوادًا وصَمـتَ القبـور، بقـدر مـا يسـتطيع أن يـرى. خلفهـم مبـاشرةً، رفعـت هَبَّـةُ ريـحٍ عابِـرَةٌ ورقَـةَ شَـجَرٍ واحـدة، تأمَّلَتهـا، ثـم وضعتهـا مـرَّةً أخـرى بنعومـةٍ مـن دون أن تُزعِـجَ بقيَّـةَ الأوراق. بـدا كـما لـو أن مليـون عِلَّـة غـير مرئيـة قـد اجتمعـت فقـط لتُنتِـجَ هـذا التأثـير المـرئيَّ وحـده. نبَضَـت حيـاةٌ أخـرى عـلى مُقرَّبـة منهـما... وذهَبَـت. اسـتدار ديفاجـو فجـأة، وقـد تحـوَّل لـون وجهـه المـشرق إلى لـونٍ رمـاديٍّ عكـر. وتكلَّـم ببـطء وبتشـديد عـلى

الحـروف، بصـوتٍ فيـه اختـلاف غريـب يَحمِـلُ -بطريقـةٍ مـا- لمسـةً مـن التَّحـدِّي.

- لم أَقُـل قَـطُّ إننـي سـمعت أو شَـمَمتُ شـيئًا، كنـت فقـط "ألقـي نظـرةً مـن حـولي" إذا جـاز التعبـير. إن تَسَرُّعَـكَ في إلقـاء الأسـئلة هـو أمـر خاطـئٌ عـلى الـدَّوام.

ثـم أضـاف فجـأة بصـوتٍ بَـذَلَ جهـدًا واضحًـا ليجعلـه أقـربَ إلى صوتـه الطبيعي:

- هل أعوادُ الثِّقاب معكَ أيُّها الرئيس سيمبسون؟

وشرع في إشـعال الغليـون الـذي كان قـد مـلأه حتـى المنتصـف قبـل أن يبـدأ في الغنـاء.

جَلَسَـا بجـوار النـار ثانيـةً مـن دون أن يتفوَّهـا بكلمـة. غـيَّر ديفاجـو الجانِـبَ الـذي يجلـس فيـه حتـى يتمكَّـن مـن اسـتقبال اتجـاه الريـح. بوسـع أيِّ مبتـدئٍ أن يلاحـظ ذلـك. بـدَّل ديفاجـو مَوقِعَـه بغرض أن يسـمع ويَشُـمَّ، كل مـا يمكـن سـماعُه وشَـمُّه. وبمـا أنـه كان في تلـك اللحظـة يواجـه البحـيرة مُولِّيًـا ظَهْـرَه للأشـجار فمـن الواضـح أن ليـس هنـاك شـيئًا في الغابـة قـد وَجَّـه تحذيـرًا غريبًـا ومفاجئًـا بهـذا الشـكل إلى أعصابـه المدرَّبـة بصـورَةٍ رائعـة. قـال:

- أعتقد أنني لم تَعُد بي أيُّ رغبة في الغناء الآن.

ثم فسَّر في الحال من تلقاء نفسه:

- تلـك الأغنيـة تعيـد إليَّ ذكريـاتٍ مُزعِجَـةً، لم يكـن ينبغـي عـليَّ أبـدًا أن أُغنِّيهـا. إنهـا تجعلنـي مُهيَّـأً لتخيُّـل أشـياء، أتفهـم؟

كان مـن الواضـح أن الرجـل لا يـزال يناضـل انفعـالاتٍ مُؤثِّـرَةً بشـكل عميـق. كان يأمـل أن يُوجِـدَ لنفسـه عُـذرًا أمـام الآخـر. لكـن لأن التَّفسـير عـلى هـذا النحـو كان مُجـرَّد جُـزءٍ مـن الحقيقـة، فإنـه كذبـة، وكان يعلـم

تمـامَ العِلـم أن سيمبسـون لـن ينخـدع بهـا. إذ لا يمكـن لـشيء أن يُفـسِّر الرُّعـبَ الشـاحب الـذي كسـا وجهـه بينـما كان يقف هنـاك يتشـمَّم الهواء. ليـس بوسـع أي شيء، ولا أي قَـدْرٍ مـن النـار المتأجِّجـة، أو الدردشـة حـول مواضيـع عاديـة، أن تجعـل ذلـك المخيَّـمَ يعـود كـما كان مـن قبـل تمامًـا. كان ظِـلُّ الرُّعـب المجهـول -الواضـح، وإن لم يكـن مُتوقَّعًـا- الـذي وَمَـضَ للَحظَـةٍ عـلى وجـه الدليـل وإيماءاتـه، قـد انتقـل أيضًـا إلى صاحبـه بشـكلٍ غامِـض، وبالتـالي، عـلى نحـوٍ أكـثرَ فعاليَّـة. كانـت جهـود الدليـل الواضحـة لإخفـاء الحقيقـة قـد فاقَمـت الوضـع سـوءًا، عـلاوة عـلى ذلـك، ازداد عـدم ارتيـاح الشـاب بسـبب الصعوبـة، بـل الاسـتحالة، التـي وجدهـا في طـرح الأسـئلة، وكذلـك جَهلُـه التَّـامُّ فيـما يَخُـصُّ السـبب... الهنـود، الحيوانـات المتوحِّشـة، حرائـق الغابـات، كان يعلـم أن كلَّ هـذه لم تكُـن احتـمالاتٍ وارِدَةً بالكُلِّيَّـة. بَحَـثَ خيالـه كثـيرًا، لكـن مـن دون جـدوى...

مـع ذلـك، بـدأ الظِّـلُّ الـذي قـد غـزا مُخيَّمَهـم الهـادئ، فجـأةً، ينـزاح بطريقـةٍ أو أخـرى، بعـد نَوبَـةٍ أخـرى طويلـة مـن التَّدخـين والحديـث وشَيِّ أنفسـهم أمـام النَّـار الشـديدة. ربمـا يكـون ذلـك قـد تحقَّـق بفضـل جهـود ديفاجـو، أو عـودة هدوئـه وسُـلوكه الطبيعـي. وربمـا يكـون سيمبسـون نفسـه قـد بالَـغَ في الأمـر بشـكلٍ لا يتناسَـبُ مـع الحقيقـة. أو لعـلَّ هـواء البَرِّيَّـة القـوي قـد جَلَـبَ قُدراتـه الخاصَّـة عـلى المعافـاة. أيًّـا كان السـبب، بـدا أن شـعور الرُّعـب المبـاشر قـد زال كـما جـاء، بشـكل غامـض؛ لأن شـيئًا لم يَحدُث ليُغذِّيـه. بـدأ سيمبسـون يشـعر أنـه سـمح لنفسـه برُعـب الأطفـال غـير المـبرَّر. أرجـع ذلـك، بشـكلٍ جُـزئيٍّ، إلى نـوع مـن الإثـارة اللاواعيـة التـي أثارهـا هـذا المشـهدُ الـبَرِّيُّ الهائـل في دَمِـه، وبالمثـل إلى فـترة الوحـدة، وكذلـك إلى التَّعَـب الزائـد. كان شـحوبُ وجـهِ الدَّليـلِ عَصيًّـا عـلى التفسـير، بالطبـع، وقـد يكـون مـع ذلـك راجِعًـا بطريقـةٍ مـا إلى تأثـير ضـوء النـار، أو خيالـه هـو نفسـه... منـح الأمـر ميـزة الشَّـكِّ؛ فقـد كان اسـكتلنديًّا.

عندما تختفي انفعالاتٌ غير معتادة نوعًا ما، دائمًا ما يجد العقلُ عشراتِ الطُّرُق لتفسير بواعِثِها... أشعل سيمبسون غليونًا أخيرًا وحاول أن يَضحَكَ بينه وبين نفسه. عند العودة إلى اسكتلندا سيكون لديه قِصَّة جيِّدة للغاية. لم يُدرِك أن هذه الضِّحكة كانت علامةً على أن الرُّعب بَقِي كامِنًا في أغوار رُوحِه، كانت مجرَّد واحِدَةٍ من العلامات التقليدية التي يحاول المرء -المروَّع بشدَّة- أن يُقنِعَ نَفسَه من خلالها بأنه ليس كذلك.

غير أنَّ ديفاجو سمع تلك الضحكَةَ الخافِتَة، وتَطَلَّع إليه وقد ارتَسَمَت الدَّهشَةُ على وجهه. وقف الرَّجُلان -جنبًا إلى جَنبٍ- يركلان الجَمرَ قبل أن يأويا إلى فِراشهما. كانت الساعة العاشرة، وهو وقتٌ مُتأخِّر لأن يبقى فيه الصَّيَّادون مُستَيقِظين.

سأل ديفاجو بنبرته العادِيَّة لكن بجدِّيَّة:

- ما الذي يُدَغدِغُكَ؟

تَلَعثَم سيمبسون، مُرتدًّا إلى الأفكار التي سَيطَرَت على عقله، وقد أُخِذ بالسؤال:

- لقد... لقد كُنتُ، في تلك اللحظة بالضَّبط، أُفكِّر في غاباتنا الصغيرة في الوطن التي تُشبِه اللعب، وأُقارِنها بـ... بكلِّ هذا.

ولوَّح بِذراعه مُشيرًا إلى الدَّغل.

تلا ذلك فترةُ صَمتٍ لم يَقُل فيها أيٌّ منهما شيئًا.

تطلَّع ديفاجو من فوق كتف سيمبسون إلى الظِّلال قائلًا:

- هذا لا يُغيِّر شيئًا، ما كُنتُ لأضحك من الأمر، لو كُنتُ مكانَكَ. توجد أماكن هناك لن يستطيع إنسانٌ أن يرى ما فيها أبدًا، ولا يعرف أحدٌ ما الذي يعيش بداخلها.

- كبيرة للغاية... سحيقة للغاية؟

كان أسلوب الدليل يوحي بشيء هائل ومُرَوِّع.

أومأ ديفاجو برأسه، اتَّخذ وجهُه تعبيرًا قاتمًا، كان يشعرُ بعدم الارتياح هو الآخر. أدرك الشاب أنَّه -في منطقة نائية بهذا الاتساع- قد توجد أعماقٌ من الغابات لن تُعرَفَ أو تَطَأها قَدمٌ أبدًا خلال حياة العالم. لم تكُن الفكرة بالضبط من النوع المحبَّب له، أعلن بصوتٍ عالٍ مُبتَهِج أنَّ وقتَ النوم قد حان. لكنَّ الدَّليل ظَلَّ يعبث بالنار، ويُرتِّب الحجارة بلا داعٍ، قائمًا بعشرات الأشياء التي لم تكُن هناك حاجة حقيقيَّة للقيام بها. كان من الواضح أنه يريد أن يقول شيئًا، لكنه يَجِدُ صعوبَةً في التعبير عنه. بدأ فجأةً عندما تصاعَدَت آخِرُ زَخَّةٍ من الشَّرَر في الهواء:

- قُل لي أيُّها الرئيس سيمبسون، أنتَ لم تَشمَّ شيئًا، هل شَمَمتَ... أقصد شيئًا استثنائيًّا؟

أَدرَكَ سيمبسون أن السؤال العادي يُخفي فكرةً رهيبةً في عَقلِه، سَرَت قُشَعريرَةٌ في ظَهرِه.

أجاب بحَزمٍ، راكِلًا الجمر مَرَّةً أخرى. جعله صَوتُ قَدَمِه يقول:

- لا شيء سوى رائِحَةِ الخشب المحترِق.

استمرَّ الدليل، مُحدِّقًا فيه من خلال العَتَمَة:

- وطوال المساء لم تَشُمَّ شيئًا؟ شيئًا غير عادي، ومختلفًا عن أي شيء شَمَمتَه من قبل؟

ردَّ بعُنفٍ، شبه غاضِبٍ:

- لا، لا يا رجل، لا شيءَ على الإطلاق!

صفا وَجهُ ديفاجو، وهتف بارتياحٍ واضِحٍ:

- هذا جيِّد! من الجَيِّد سماعُ ذلك!

سأل سيمبسون بحِدَّة:

- هل شَمَمتَ أَنتَ؟

وسرعان ما شعر بالنَّدَم على سؤاله.

اقترب الكَنَديُّ في الظلام. هَزَّ رأسه وقال بغير كثيرٍ من الاقتناع:

- أَظُنُّ أنْ لا، لا بُدَّ أنها كانت تلك الأغنية التي غَنَّيتها هي ما تُسبِّب في ذلك. إنها الأغنية التي يُغنُّونها في مُخيَّمات الحطَّابين، وأماكِنَ بائِسَةٍ من هذا القبيل، عندما يخشون أن الونديجو تقوم بنوعٍ من التَّرحال السريع في مكانٍ ما من حولهم.

- وما هي الونديجو، فريسةٌ؟

سأل سيمبسون بسرعة، مُضطَرِبًا لأنه لم يستطع أن يمنع القشعريرة المفاجئة التي انتابَت أعصابُه مَرَّةً أخرى. كان يدرك أنه يقترب من رُعبِ الرَّجُل وسَببِه. لكن تَغلَّب فضولٌ مُتعجِّلٌ عنيفٌ على حُكمِه السَّديد وخوفه.

استدار ديفاجو بسرعةٍ ونظر إليه كما لو كان على وشك الصراخ فجأة. أشرَقَت عيناه، لكنَّ فَمَه كان مفتوحًا على وسعه. مع ذلك، كان كلُّ ما قاله -أو ما هَمَسَ به على الأحرى- إذ انخفض صوتُه للغاية:

- لا شيءَ... لا شيء سوى ما يَعتَقِدُ هؤلاء الحطَّابون القَذِرون، عندما يشربون كثيراً، أنه نوعٌ من الحيوانات الكبيرة التي تعيش هناك.

أدار رأسَه في اتِّجاهِ الشَّرق، مُواصِلًا:

- إنهـا سريعـةٌ في مسـاراتها كالـبَرق، وأكـبر مـن أيِّ شيءٍ آخـر في الأدغـال، ومـن المفـترض أن النَّظَـر إليهـا ليـس بالأمـر الحَسَـن، هـذا كُلُّ شيءٍ!

قال سيمبسون:

- مُعتَقَد خُرافيٌّ من الغابات الخلفية.

وتحـرَّك عـلى عَجَـلٍ صـوبَ الخَيمَـةِ مـن أجـل أن يتخلَّـص مـن يَـدِ الدليـل التـي تَشـبَّثَت بذراعـه. وأضـاف:

- تعـال، تعـال، أَسْرِعْ كرامـةً للـه، وأَضِـئْ الفانـوس! حـان الوقـتُ لنكـون في الفِـراش وننـام إن كُنَّـا سـنَنهَضُ مـع الشـمس غـدًا...

كان الدليل قريبًا منه للغاية. أجاب من قلب الظلام:

- أنا آتٍ، أنا آتٍ.

وظهـر بعـد تأخـيرٍ طفيـف يحمـل الفانـوس وعَلَّقـه مـن مسـمارٍ عـلى عمـود الخيمـة الأمامـي. مـا إن فعـل ذلـك حتـى بَدَّلَـت ظِـلالُ مائة شَجرَةٍ أماكِنَهـا بسرعـة، وعندمـا تَعـثَّر في الحبـل، وغـاص داخِـلَ الخيمـة بسرعـة، ارتجَفَـت بكامِلِهـا كـما لـو أن عَصفَـةَ ريـحٍ قـد ضَرَبَتهـا.

اسـتلقى الرَّجُـلان، مـن دون أن يخلعـا ملابسـهما، عـلى فِراشَـيْهما اللَّيِّنَـيْن المصنوعَـيْن مـن أغصـان البلسـم، المصفوفـة ببراعـة. كان كل شيء دافئًـا ومريحًـا بالداخـل، لكـن عـالم الأشـجار المزدحمـة بالخـارج تجمَّـع مـن حولهـم، حاشـدًا مليـون ظِـلٍّ، ومحتويًـا الخيمـةَ الصغـيرة التـي كانـت تقـف مثـل صَدَفَـةٍ بيضـاء صغـيرة في مواجهـة محيـطِ الغابَـة الهائِـل.

انضغـط ظِـلٌّ آخـر، بـين الشَّخصَيْن الوحيديـن بالداخـل، ولم يكـن مـن ظـلال الليـل. كان الظِّـلَّ الـذي ألقـاه الخـوفُ الغريـبُ، ولم يَتِـمَّ التَّخلُّـصُ منـه بالكامـل، ذلـك الخـوف الـذي انقـضَّ عـلى ديفاجـو فجـأةً أثنـاء غنائـه.

كان سيمبسون، وهو مُستلقٍ يُراقِبُ الظلام من خلال مِصراع الخيمة المفتوح، مُستعدًّا للسقوط في هاوية النوم الفَوَّاحَة، يتعرَّف للمرة الأولى على ذلك السكون الفريد والعميق للغابة البدائية عندما لا تَهبُّ الرياح... وعندما يكون لِلَّيلِ وَزنٌ ومادَّةٌ تدخل إلى الرُّوح، وتضرب من حولها حجابًا... ثُمَّ غَلَبَه النَّومُ...



III

هكـذا بـدا لـه عـلى الأَقَـلِّ. مـع ذلـك كان صحيحًـا أن اندفـاع الماء خلـف بـاب الخيمَـةِ مباشرةً، كان مسـتمرًّا في وقعـه ذي النبضـات المتناقِصَة عندمـا أدرك أنـه كان مُمـدَّدًا وعينـاه مفتوحَتَـيْن، وأن صوتًـا آخـر أَدغَـمَ نفسَـه مؤخَّـرًا بنعومـةٍ ماكِـرَة بـين رَشـاشِ الأمـواج الصغـيرة وكَرْكَرَتِهـا. وقبـل أن يفهـم ماهِيَّـة هـذا الصـوت بوقـتٍ طويـل، نشَـطَت بداخلـه مراكِـزُ الجَـزَعِ والتَّوجُّـس. أنصَـتَ باهتـمام، وإن كان عبثًـا في البدايـة؛ إذ كانـت الدمـاء المتدفِّقـة تقـرع طبولهـا في أُذُنِـه بصخَـبٍ شـديد. تسـاءل، هـل أَتَـت؟ مـن البحـيرة أم مـن الغابـة؟...

ثـم أدرك فجـأةً، بتَسـارعٍ وخَفَقـان في القلـب، أنهـا كانـت في الخيمـة عـلى مَقربَـةٍ مبـاشِرَةٍ منـه، وعندمـا اسـتدار ليسـمع بشـكلٍ أفضـل، تمركَـزَت عـلى نحـوٍ لا لَبْـسَ فيـه عـلى مسـافَةٍ لا تزيـد عـن قَدَمَـيْن. إنـه صـوتُ بـكاء. كان ديفاجـو يَنشِـجُ في الظـلام، فـوق فِراشِـه المصنـوع مـن الأغصـان،

كما لو كان قلبُه سَيَنفَطِرُ، بدا واضحًا أنه دَسَّ البطانية في فَمِه ليكتم صوت البكاء.

وكان أوَّل ما شعر به، قبل أن يتمكن من التفكير أو التأمل، هو دفقة من الرِّقَّة النافذة والمؤثِّرة. أدَّى هذا الصوت البَشريُّ الحميم، لدى سَماعِه وسط الإقفار من حولهم، إلى إيقاظِ الجَزَع في نفسه. كان أمرًا مُتناقِضًا للغاية، مُتناقِضًا بشكلٍ مُثيرٍ للشَّفَقَة، وعبثيًّا للغاية! ما نَفْعُ الدموع في هذه البرية الشاسعة والقاسية؟ فَكَّر في طفلٍ يبكي في وسط المحيط الأطلسي... ثم هبط الرُّعبُ عليه، بالطَّبع، بالإدراك الكامل، وذكرى ما قد سبق أن حدث، وسَرَت الدماء الباردةُ في عروقه.

همس بسرعة:

- ديفاجو، ماذا بِكَ؟

ثم محاوِلًا أن يجعل صوته لطيفًا لأقصى درجة:

- هل تتألَّم، هل تَشعُرُ بالحُزن؟

لم يأتِه أيُّ رَدٍّ، لكن توقَّفَت الأصوات بشكل مفاجئ. مدَّ يده ولمس جَسَدَه، فلم يتحرك. سأله:

- هل أنتَ مُستَيقِظ؟

إذ خطر له أن الرجل كان يبكي في نومه.

- هل تشعر بالبرد؟

لاحَظَ أن قَدَمَيْه، اللتين كانتا مكشوفتَيْن، قد تَجاوَزَتا فتحة الخيمة. بسط فوقَهما طيَّةً إضافيَّةً من أغطيته. كان الدليل قد انزلق من فِراشه، وبدا أن الأغصان قد انجرَّت معه. خَشِيَ أن يسحب الجسد مَرَّةً أخرى؛ خوفًا من إيقاظه.

طرح سؤالًا مُتردِّدًا أو اثنين بنعومة، لكن على الرغم من انتظاره لعدَّة دقائق، لم يأتِه أيُّ رَدٍّ، ولا أي بادرة حركة. سَمِعَ -مؤخَّرًا- صوتَ أنفاسه المنتظمة والهادئة، ووضع يده مرَّةً أخرى على صدره برفق، شعر به يعلو ويهبط بانتظامٍ تحت يده. قال هامِسًا:

- دعني أعرف إذا كان أيُّ شيء على غير ما يرام. أو إن كان هناك ما أستطيع أن أفعله. أيْقِظْني على الفور إذا انتابَك شعورٌ غريب.

كان بالكاد يعي ما يقول. استلقى مرَّةً أخرى، يفكِّر ويتساءل عن معنى كل ذلك. كان ديفاجو يبكي، بالطبع، أثناء نومه. قد أَغَمَّه حُلمٌ أو آخر. لكنه لن يستطيع أن ينسى أبدًا، ما دام حيًّا، صوتَ ذلك النشيج المثير للشَّفَقة، والشعور بأن بَرِّيَّة الغابة الشَّنيعة كانت تُنصِتُ.

انشغل عَقلُه لفترة طويلة بالأحداث الأخيرة، التي اكتسب هذا من بينها مكانَه الغامِضَ في الوقت نفسه، ومع أن عقله قد فَنَّد بنجاح كُلَّ الإيحاءات غير المرحَّبِ بها، ظَلَّ لديه شعورٌ من عدم الارتياح، يقاوِمُ الاستبعادَ، مُستَحكِمًا، غريبًا فوق العادة.

IV

لكـنْ يُثبِـتُ النـومُ، عـلى المـدى الطويـل، أنـه أكـبرُ مـن كل الانفعـالات. سرعـان مـا شَرَدَ بفكـره مـرَّةً أخـرى، اسـتلقى في فراشـه ناعِـمًا بالـدفء، منهـوكَ القـوى إلى حَـدٍّ بعيـد، جَـنَّ الليـل وسـكن، كاسرًا حـدَّةَ الذاكـرة والتوجُّـس. بعـد نصـف سـاعة، كان غافـلًا عـن كل شيء في العـالم الخارجـي مـن حولـه.

مـع ذلـك،كان النـوم عَـدوَّه الأكـبر في هـذه الحالـة، بإخفائـه كل مـا يحيـق بـه، وتعطيلـه لاسـتنفار أعصابـه.

كـما يحـدث أحيانًـا في كابـوس، أن تحتشـد الأحـداثُ المتعاقِبَـةُ لتؤكِّـد واقعًـا رهيبًـا، لكـن تـأتي بعـض التفاصيـل غـير المتَّسِـقَة لِتَسِـمَ المنظومـةَ بأكملهـا بالنَّقـص والزَّيـف.

هكـذا، فـإن الأحـداث التـي تعاقَبَـت حتـى الآن، وعـلى الرغـم مـن وقوعهـا بالفعـل، إلَّا أنهـا أقنَعَـت العقـلَ، بطريقـةٍ مـا، أنـه في غمـرة

التَّشوُّش، تمَّ إهمالُ التفاصيل التي تستطيع أن تُفسِّرها، وبالتالي، فهي تُمثِّل الحقيقة بشكلٍ جزئيٍّ، والباقي وَهمٌ. يبقى شيءٌ ما مستيقظًا، في الجزء الخلفي من عقل النائم، مُهيَّأً لأن يُصدِر حُكمَه. "كل هذا ليس حقيقيًّا تمامًا، عندما تستيقظ سوف تفهم".

وهكذا كان الأمر، بطريقةٍ ما، مع سيمبسون. لم تكن الأحداث عَصيَّةً على الفهم وغير قابلة للتصديق بشكل كامل، في حَدِّ ذاتها، لكنها تبقى، بالنسبة إلى الرجل الذي رآها وسمعها، سلسلةً من الحقائق المنفصلة التي تُثير الرُّعبَ البارد؛ إذ تبقى القطعة الصغيرة، التي تَفكُّ غموض اللغز، مَخفيَّةً أو مُغفَلَة.

بقدر ما يستطيع أن يتذكَّر، استيقظ، أولًا، على حركة عنيفة تسري من خلال الخيمة لأسفل متَّجِهة إلى الباب، جعَلَته ينتبه إلى أن صاحِبَه كان جالسًا في وضع مستقيم إلى جواره... يرتعش. لا بُدَّ أن ساعاتٍ قد مَرَّت؛ إذ كان ضوء الفجر الشاحب هو الذي وضَّح حدودَ صورته أمام قماش الخيمة. لم يكن الرجل يبكي في هذه المرَّة، كان يرتجف مثل ورقة الشجر، الارتجاف الذي شعر به بوضوح من خلال الأغطية بطول جسده كله. تكوَّر ديفاجو على نفسه في مواجَهَتِه طلبًا للحماية، لائذًا من شيء ما يبدو أنه توارى بالقرب من طيّتي باب الخيمة الصغيرة. عندئذ صاح سيمبسون بصوتٍ مُرتَفعٍ، طارحًا أسئلة ما -لم يتذكَّر، في ذهول الاستيقاظ الأول، ما هي بالضبط- لكن الرجل لم يَرُدَّ. حَلَّت أجواءُ ومشاعِرُ الكابوسِ الحقيقي عليه بشكل مُرعِب؛ ممَّا جعل الحركة والكلام شيئًا صعبًا. في البداية، لم يكن متأكِّدًا، بالفعل، من مكان وجوده، في أحد المخَيَّمات السابقة، أم داخل فراشه في منزله في أبردين. كان شعورُ التَّشوُّش مُزعِجًا للغاية.

بعد ذلك، وبالتزامُن مع استيقاظه تقريبًا، بدا أن سكون الفجر العميق، بالخارج، قد تبدَّد بفعل صوتٍ غير مألوف بالمرَّة. أتى من

دون سابق إنذار، أو اقترابٍ مسموع، وكان مُروِّعًا بشكل لا يوصف. يصرِّح سيمبسون أنه ربما كان صوتًا بشريًا، أجشَّ، ولكنه حزين، صوت زئيرٍ ناعم في الخارج قريبٌ من الخيمة، في الجوِّ وليس على الأرض، ذو جَهيرٍ هائل، في حين أنه كان -على نحوٍ غريب- حلوًا بأشَدِّ الأشكال نَفَاذًا وإغواءً. كما أنه كان يدوِّي بثلاث نغمات، أو صيحات، مُنفَصِلَة ومُميَّزة، تحمل -بشكلٍ غريب- تشابُهًا بعيدًا، يمكن تمييزه مع ذلك، مع اسم الدليل: دي- فا- جو!

يُقِرُّ الطالب بأنه لا يستطيع أن يَصِفَه بدقَّةٍ تامَّة؛ إذ أنه لم يكن يشبه أيَّ صوت قد سمعه في حياته، وكان يجمع بين خليطٍ من الخواص شديدة التناقض. يعتبره "صوتًا من نوعٍ عاصِفٍ ذي عواء، كما لو كان صادِرًا عن شيء فريد وجامح، بَرِّيٍّ وذي قوَّةٍ طاغية...".

وقبل أن يتوقَّف الصوت -حتى- ويسقط في خُلجان الصَّمت العظيمة، كان الدليل قد انتفض واقفًا إلى جواره وأطلق صيحةً مُتجاوِبَةً، وإن كانت غيرَ مفهومة. تخبَّط في عمود الخيمة بعُنفٍ، ليتَسبَّب في اهتزاز الهيكل بأكمله، نشر ذراعَيْه على نحوٍ محمومٍ طلبًا لمساحةٍ أكبر، وركل بساقَيْه في تَهوُّرٍ ليُحَرِّرَها من الأغطية المتشبِّثة بها. وقف بجانب الباب مُنتَصِبَ القامة، لثانيةٍ واحدة فقط، أو ربما اثنتين، مُواجِهًا بهيئته القاتِمة شُحوبَ الفجر، ثم انطلق بسرعَةٍ هوجاءَ مُتعجِّلَةٍ، قبل أن يتمكَّن رفيقه من تحريك يَدِه لإيقافه، واندفع من خلال مصرَعَيْ الخيمة، ومضى. وعند ذهابه، مُسرِعًا بشكلٍ مُذهِلٍ بحيث يمكن بالفعل أن يُسمَعَ صَوتُه وهو يحتضر في البعد، صاح عاليًا بنبرات رُعبٍ مُؤلمٍ حمَلَت في الوقت نفسه ما يشبه -بغرابةٍ- ابتهاجَ الفرح المحموم:

- أوه! أوه! قدماي الناريَّتان! قدماي الناريَّتان المحترقتان! أوه! أوه! هذا المرتفع والسرعة النارية!

ثـم سرعـان مـا غيَّبَتـه المسـافةُ، وحَـطَّ عـلى الغابـة الصَّمـتُ العميـق، للصباح بالـغ التبكـير، كـما كان مـن قبـل.

لقـد حـدث كل هـذا بسرعـة كبـيرة، لدرجـة أن سيمبسـون كاد يظـنُّ أنهـا كانـت ذكـرى كابـوس بَقِيَـت معـه مـن النـوم، لـولا وجـود الدليـل المتمثِّـل في الفِـراش الفـارغ بجانبـه. بقـي يشـعر بـدفء الجسـد المختفـي يضغـط عـلى جنبـه. وهنـاك تكوَّمَـت الأغطيـةُ الملتويـة. كانـت الخيمـة نفسـها مسـتمرَّةً في الاهتـزاز مـن عُنـفِ الرحيـل المتهـوِّر. كانـت الكلمات الغريبـة تَـرِنُّ في أذنـه، كـما لـو أنـه يسـمعها عـن بُعْـدٍ... لغـة وحشـية لعَقـلٍ أُصيـب بشـكل مفاجـئ. عـلاوة عـلى ذلـك، لم تكـن حاسَّـتا البَـصَرِ والسـمع فقـط هـما مـا أنبـأ العقـل بأشـياء غـير مألوفـة؛ إذ تَنبَّـه إلى أن رائحـة خفيفـة -ومـع ذلـك لاذعـة- قـد انتـشَرَت داخـل الخيمـة، بينـما كان الرجـل يركـض صارخًـا. ويبـدو أنـه -عنـد هـذا الحـدِّ- قـد عـاد إلى نفسـه بإدراكـه أن فتحَتَـيْ أنفِـه تحمـلان تلـك الرائحـة المفجِعَـة إلى حلقـه، فوجـد شَـجاعَتَه تسـقط في قدمَيْـه، وتُفارِقـه.

كان ضـوء الفجـر الرمـادي، الـذي يسـقط بـين الأشـجار بـاردًا وبرَّاقًـا، يكشـف المشـهد بشـكل جيِّـدٍ قَـدرَ الإمـكان. انتصبـت الخيمـة وراءه مُشـبعةً بالنـدى، بقـي رمـادُ النـار القاتـم دافئًا.كانـت البحـيرة بيضـاءَ تحـت طبقـة مـن الضبـاب، ترتفـع الجُـزُرُ مـن داخلهـا داكِنَـةً مثـل عنـاصِرَ مُغلَّفَـةٍ بالصـوف. وبُقَـعٌ مـن الثلـج فيـما وراء المسـاحات الأكـثر وضوحًـا مـن الدَّغـل. كان كل شيء بـاردًا وسـاكنًا، ينتظـر الشـمس. لكـن لا توجـد في أيِّ مـكانٍ علامـةٌ عـلى الدليـل المختفـي. إنـه، بـلا شَـكٍّ، مُسـتمرٌّ في الطـيران بسرعـة محمومَـةٍ عـبر الغابـات المتجمِّـدة. لم يكـن هنـاك -حتـى- صـوتُ خطـوات الأقـدام المختفيـة، ولا أصـداء الصـوت المحتـضر. لقـد ذهـب تمامًـا.

لم يكـن هنـاك شيءٌ، لا شيءَ سـوى الشـعور بوجـوده القريـب، الـذي خَلَّفَـه في أنحـاء المخيَّـم بشـكلٍ قـويٍّ، وهـذه الرائحـة النفَّـاذة المتفشِّـية.

وحتـى هـذه كانـت، بدورهـا، تختفـي بسرعـة في تلـك اللحظـة. ناضـلَ سيمبسـون بقـوَّة، عـلى الرغـم مـن اضطرابـه الذهنـي المتزايِـد، ليُحـدِّد طبيعتهـا، ويُميِّزَهـا، لكـنَّ التأكُّـدَ مـن رائحـة مُراوِغَـة، لم يتعـرَّف عليهـا بشـكل لاشعوري وفـوري، هـي عمليـة عقليـة صعبـة للغايـة. وقـد أخفـق فيهـا. ذَهَبَـت الرائحـة قبـل أن يتمكَّـن مـن استيعابها أو تَسمِيَتِها بشـكل صحيـح. بـدا أن مجـرَّدَ الوصـف التقريبـي كان شـيئًا صعبًـا؛ إذ أنهـا لم تكـن تشـبه أيَّ رائحـة يعرفهـا.

كانـت رائحـة حـادَّةً بالأحـرى، فكَّـر أنهـا ليسـت بعيـدةً عـن رائحـة الأسـد، سـوى أنهـا أكـثر نعومـة وليسـت كريهـةً بشـكلٍ كُلِّيٍّ، تحتـوي عـلى شيءٍ يـكاد يكـون حلـوًا، ذكَّـره برائحـة أوراق أشـجار الحديقـة المتعفِّنـة، والأرض، وعَـدَدٍ لا يُحـصَى مـن روائِـحَ بـلا اسـمٍ تُشـكِّل رائحـة غابَـةٍ كبـيرة، مـع ذلـك، فإنـه عـادة مـا يسـتخدم عبـارة "رائحـة الأُسـود" ليلخِّـصَ بهـا كُلَّ مـا سـبق.

بعـد ذلـك، كانـت قـد ذَهَبَـت بالكامـل، ووجـد نفسـه واقفًـا بجانـب رمـاد النَّـار في حالـةٍ مـن الذهـول والرُّعـب البليـد، تَرَكَتـه فريسـةً عاجِـزَةً لأيِّ شيء كان مُقـدرًا حدوثـه. إذا مـا قـام أحـدُ فـئران المسـك بحَـكِّ خَطمِـه عـلى صخـرة، أو تحـرَّك سـنجابٌ عـلى لحـاء شـجرة في تلـك اللحظـة؛ كان لينهـار مـن فـوره عـلى الأرجـح، ويفقـد الوعـيَ؛ إذ شـعر -في الأمـر بأكملـه- بلمَسَـةٍ مـا مـن رُعـبٍ خارِجـيٍّ عظيـم... ولم يكـن الوقـتُ قـد سَـنَحَ بَعْـدُ لقـواه المشـتَّتة أن تجمـع نفسـها في وضـعٍ حاسـم مـن تَمالُـكِ النَّفـسِ للقتـال.

لم يحـدث شيءٌ مـع ذلـك. سَرَت هَفَّـةٌ كبـيرة مـن الريـح، برِفـقٍ، مـن خـلال الغابـة المسـتيقظة، وأحدَثَـت بعـضُ أوراق القيقـب حفيفًـا، هنـا

وهنـاك، وهـي تَـرِفُّ مُتَّجِهَـةً إلى الأرض. بـدا أن السـماء قـد أصبحـت -فجـأةً- أشـدَّ إضـاءة. شـعر سيمبسـون بالهـواء البـارد عـلى وجنتـه ورأسـه المكشـوف. وأدرك أنـه كان يرتجـف مـن الـبرد. ثـم أدرك -بعـد جهـدٍ كبـير- أنـه كان بمفـرده في الدَّغـل، وأنـه مُطالَبًـا باتِّخـاذ خطـوات فوريَّـةٍ للعثـور عـلى رفيقـه المختفـي ونَجدَتِـه.

بـذل جهـدًا -وفقًـا لذلـك- لكنـه كان جَهـدًا غـيرَ محسـوب وغـيرَ ذي جـدوى. عندمـا وجـد نفسـه مُحاطًـا بتلـك البَرِّيَّـة ذات الأشـجار، تفصلـه صفحـةُ المـاء مـن الخلـف، ويَسـري في دَمِـه رعـبُ تلـك الصرخـة الوحشـية، فعـل مـا قـد يفعلـه أيُّ رَجُـلٍ آخـر عديـم الخـبرة في مواجهـة حـيرةٍ مماثِلة، ركـض بشـكلٍ عشـوائيٍّ، مـن دون أيِّ إحسـاسٍ بالاتجـاه، مثـل طفـلٍ مُـروَّعٍ، وراح يصيـح باسـم الدليـل بصـوتٍ مُرتَفِـعٍ، ومـن دون توقُّـف:

- ديفاجو! ديفاجو! ديفاجو!

كلَّما صرخ بالاسم رَدَّته إليه الأشجار، لكن بطبقَةٍ مُنخَفِضَة قليلًا:

- ديفاجو! ديفاجو! ديفاجو!

اتَّبـع الممَـرَّ الـذي يقـع عـلى مسـافة قصـيرة عـبر بُقَـعِ الثلـج، ثـم فَقَـدَه مـرَّةً أخـرى حيـث نَمَـت الأشـجارُ بدرجـة مـن الكثافـة لا تسـمح للثلـج بـأن يسـقط. صَرَخَ حتـى بُـحَّ صوتـه، وبـدأ صوتـه المـترَدِّدُ، في هـذا العـالم المنْصِـت بـلا إجابـة، يُثـير ذُعـرَه. ازداد ارتباكُـه بتناسُـبٍ طَـرديٍّ مـع شِـدَّة جهـوده. أصبـح كَرْبُـه شـديدًا بشـكلٍ هائـل، حتـى خابـت جُهـودُه في بلوغ مقصدهـا مـع الوقـت، أجبرتـه شِـدَّةُ الإجهـاد عـلى التراجُـع إلى المخيَّـم مَـرَّةً أخـرى. ويبقـى مـن عجائـب الأمـور أنـه تمكَّـن مـن العثـور عـلى طريـق العـودة. كان أمـرًا بالِـغَ الصعوبـة؛ إذ رأى الخيْمَـةَ البيضـاء، أخـيرًا، مـن بـين الأشـجار، بعـد دلالاتٍ خادِعَـةٍ لا حَـصرَ لهـا، وهكـذا وصـل إلى بَـرِّ الأمـان.

عندهـا، فَعَـلَ الإجهـادُ مَفعولَـه؛ فأصبـح أكـثر هـدوءًا. أشـعل النَّـار، وتَنـاوَلَ الإفطـار. مَنَحَتـه القهـوةُ السـاخنة ولحـمُ الخنزيـر المقَـدَّد قليـلًا

مـن التَّمييـز والحُكـم الصائـب مـرَّةً أخـرى، وأدرك أنـه كان يتـصرَّفُ كصَبـيٍّ. حينهـا قـام بمحاولـةٍ أخـرى ناجحـة ليواجـه الموقِـفَ مُتمالِـكًا نفسـه، وسـاعدته طبيعتُـه المقدامَـةُ بالتأكيـد، قـرَّر أوَّلًا أنـه يجـب عليـه إجـراء بحـثٍ شـامل قَـدْرَ الإمـكان، وإن لم ينجـح فيـه؛ ينبغـي عليـه أن يبـذل مـا في وسـعه ليشُـقَّ طريقـه إلى المخيَّـم ويـأتي بالمسـاعدة.

وكان هـذا مـا فعلـه. مُصطَحِبًـا معـه طعامًـا وأعـوادَ ثِقـابٍ وبندقيـة، وفأسًـا صغـيرًا لِصُنـعِ علامـاتٍ عـلى الأشـجار باتِّجـاه رحلـة عودتـه، ومـضى قُدُمًـا.

كانـت السـاعة تشـير إلى الثامنـة عندمـا بـدأ، أشرَقَـت الشـمس عـلى قِمَـمِ الأشـجار في سـماءٍ خاليـة مـن الغيـوم. تـرك رسـالةً مُثبَّتَـةً بوتَـدٍ إلى جـوار النـار في حـال رجـوع ديفاجـو بينـما هـو غائـب.

اتَّخـذ اتجاهًـا جديـدًا، في هـذه المـرة، وفقًـا لخُطَّـةٍ دقيقـة، تهـدف إلى إجـراء مَسـحٍ واسـعٍ لا بُـدَّ -إنْ عاجِـلًا وإنْ آجِـلًا- أن يُصـادِفَ علامـاتٍ مـن أثـر الدليـل. وقبـل أن يقطـع رُبـعَ ميـل، مَـرَّ على آثار حيـوان كبـير في الثَّلج، وبجوارهـا آثـار خفيفـة أصغـر لمـا كان -مـن دون شـكٍّ- قدَمَـيْ إنسـان... قَدَمَـيْ ديفاجـو. كانـت الرَّاحـة التـي شـعر بهـا -في الحـال- طبيعيَّـةً، وإن كانـت قصـيرة؛ إذ رأى مـن النظـرة الأولى، لهـذه الآثـار، تفسـيرًا بسـيطًا للأمر برُمَّتِـه، هـذه العلامـات الكبـيرة تركهـا -بالتأكيـد- ثـورُ أيِّـل، قـد عـثر عـلى المخيَّـم مُصادَفـةً، في ريـحٍ مُناوِئَـةٍ، فأطلـق صرخـةً واحـدة للإنـذار والتَّنبيـه في اللحظـة التـي اكتشـف فيهـا خطـأه. كان ديفاجـو، الـذي تطـوَّرَت غريـزةُ الصيـد عنـده لدرجـةٍ مـن الكـمال الخالـص، قـد اشـتمَّ الرائحـة البَهيميَّـة آتِيَـةً مـع هبـوب الريـح قبـل سـاعات. كان هياجُـه واختفـاؤه يرجعـان -بالطَّبـع- إلى... إلى أنـه...

ثـم تـلاشى التفسـيرُ المستحيل الـذي توصَّـل إليـه؛ إذ كشـف لـه المنطـقُ السـليم -مـن دون شَـفَقَةٍ- أن أيًّـا مـن هـذا لم يكـن صحيحًـا. لا يوجـد

دليـل، وخصوصًـا إن كان دليـلًا مثـل ديفاجـو، يمكـن أن يتـصرَّف بطريقـةٍ غـير عقلانيـة إلى هـذه الدرجـة، ويمـضي مـن دون بندقيَّتـه حتـى...! عندمـا تذكَّـر التفاصيـلَ كُلَّهـا، تطلَّـب منـه الأمـرُ تفسـيرًا أكـثر تعقيـدًا بكثـير. صرخـة الرُّعـب، اللغـة العجيبـة، الوجـه الرمـادي المرعـوب عندمـا التقطـت فتحتـا أنفِـه الرَّائِحَـةَ الجديـدة لأوَّل وَهلَـةٍ. ذلـك النشـيج المكتـوم في الظَّـلام، وشـعور الرجـل الأصـلي بالنُّفـور نحـو هـذا الجـزء مـن البَلَـدِ عـلى وجـه الخصـوص، وهـو الأمـر الـذي عـاد إليـه، أيضًـا، في تلـك اللحظـة، بصـورة غائمـة...

عـلاوةً عـلى ذلـك، فقـد تبيَّـن لـه بعـد فَحـصٍ دقيـق، أنهـا لم تكـن آثـار ثَـورِ أيِّـل عـلى الإطـلاق! فقـد وضَّـحَ لـه هانـك الخطـوطَ الخارجيَّـةَ لحوافـر ثـور الأيـل، وكذلـك بالنسـبة إلى البقـرة والعجـل أيضًـا. لقـد رسـمها بشـكلٍ واضـح عـلى شريحـةٍ مـن لحـاء البتـولا. وكانـت هـذه مختلِفَـةً تمـامَ الاختـلاف. كانـت كبـيرةً ومسـتديرة وعريضـة، وليـس لهـا الحـوافُّ الواضحة للحوافـر الحـادَّة. تسـاءَلَ للَحظَـةٍ إذا مـا كانـت آثـار الـدُّبِّ تبـدو هكـذا. لم يكـن هنـاك حيـوانٌ آخـر يسـتطيع أن يفكِّـر فيـه، فوعـول "الكاريبـو" لم تتوغَّـل في اتجـاه الجنـوب في هـذا الموسـم، وحتـى لـو فعَلَـت، كانـت ستُخلِّف آثـارَ حوافِـر. كانـت إشـاراتٍ مَشـؤومةً، هـذه الرسـائل الغامِضـة التـي خَلَّفهـا مخلـوقٌ مجهـول عـلى الثَّلـج، والتـي قـد أَغـوَت إنسـانًا بالابتعـاد عـن بَـرِّ الأمـان. وعندمـا ربطهـا في خيالـه بذلـك الصـوت الـمُلِحِّ، عـلى ذاكرتـه، الـذي بَـدَّد سـكونَ الفجـر؛ انتابـه دُوارٌ خاطِـفٌ زَلـزَلَ عَقلَـه، وأزعجـه بشـكل لا يُصَـدَّق. لقـد شـعر بأَوجُـهِ التهديـد فيـما يخـصُّ الأمـرَ بِرُمَّتِـه. وعندمـا انحنـى لأسـفل كي يفحـص الآثـار بعنايـةٍ أكـبر، التقـط نَفحةً ضعيفـة مـن تلـك الرائحـة الحلـوة النفَّـاذة، في الوقـت نفسـه، جَعَلَتـه يسـتقيم بجسـده مـرَّةً أخـرى، مُقاوِمًـا إحسـاس يقـترب مـن الغَثَيـان.

عندهـا لعبَـت معـه ذاكِرَتُـه لُعبَـةً شرِّيـرةً أخـرى. تذكَّـر فجـأة هاتَـيْن القدمـين المكشـوفتين البارزتـين خـارج حـدود الخيمـة، ومظهـرَ الجسـد

وهـو يُجَـرُّ صـوبَ الفتحـة. وانكـماش الرجـل، عندمـا اسـتيقظ لاحقًـا، خوفًا مـن شيء عنـد البـاب. كانـت التفاصيـل تـضرب عقلـه المرتَعِـدَ -في تلـك اللحظـة- بهجـومٍ جماعـي. بـدا أنهـا تتجمَّـع في تلـك الفضـاءات العميقـة للغابـة الصَّامتـة مـن حولـه، حيـث وقَفَـت جَمهـرَةٌ مـن الأشـجار مُنصِتَـةً ومُراقِبَـة، تنتظـر كي تـرى مـاذا بوسـعه أن يفعـل. كانـت الغابـة تُحكِـمُ نطاقَهـا مـن حولـه. تَقـدَّم سيمبسـون، بـإصرارٍ صـادر عـن رَباطَـةِ جـأشٍ حقيقيـة، مُتتبِّعًـا الآثـار بقـدر اسـتطاعته، محتويًـا هـذه المشـاعر البَشِـعَة التـي تسـعى إلى إضعـاف إرادتـه. صَنَـعَ علامـاتٍ عـلى عَـدَدٍ لا يُحـصَى مـن الأشـجار أثنـاء ذهابـه؛ خوفًـا مـن أن يعجـز عـن العثـور عـلى طريـق العـودة. وكان ينـادي باسـم الدليـل بصـوتٍ مُرتَفِـعٍ عـلى فواصِـلَ مـن بضـع ثـوانٍ. كانـت نقـرات الفـأس الرتيبـة عـلى جـذوع الأشـجار الضَّخمَـة، ونـبرات صوتـه غـير الطَّبيعيَّـة، قـد تحوَّلَـت مـع الوقـت لأصـواتٍ، أصبـح حتـى يخـاف مـن أن يُصدِرَهـا أو يسـمعها؛ إذ أنهـا تَلفِـتُ الانتبـاه -مـن دون توقُّـفٍ- لوجـوده ومَوقِعِـه الدقيـق، وإذا كان هنـاك حقًّـا شيءٌ مـا يتعقَّبـه بنفـس الطريقـة التـي يتعقَّـب هـو بهـا شـخص آخـر...

قَمَـعَ الفِكـرةَ، بجَهـدٍ قـويٍّ، فـور ظهورهـا. أدرك أنهـا كانـت بدايـةَ حـيرةٍ شـيطانيَّةٍ، بشـكلٍ كامـل، مـن النـوع الـذي يمكـن أن يُدمِّـرَه بسرعـة.

عـلى الرغـم مـن أن الثلـج لم يكـن مُتَّصِـلًا، فهـو يتسـاقط في دفقـات ضئيلـة، فقـط، عـلى المسـاحات الأكـثر انفتاحًـا، إلَّا أنـه لم يَجِـد صعوبـةً في تَتبُّـع الآثـار عـلى مـدى الأميـال الأولى. سـارت بشـكلٍ مسـتقيم كَخـطِّ المسـطرة أينـما سـمَحَت الأشـجارُ بذلـك. سرعـان مـا أخـذت الخُطـى في الاتِّسـاع، حتـى بلغـت في النهايـة نِسَـبًا، بـدا مـن المسـتحيل تمامًـا أن يَبلُغَهـا أيُّ حيـوانٍ عـاديٍّ. أصبحـت تُشـبِهُ قفـزاتٍ ضَخمـةً طائِـرَة، قـام بقيـاس إحداهـا، وعـلى الرغـم مـن أنـه كان يعـرف أن امتـدادًا يبلـغ ثمـاني عـشرة قَدَمًـا لا بُـدَّ وأن يكـون خاطئًـا، إلا أنـه كان عاجـزًا عـن فَهـمِ السـبب وراء عـدم عثـوره عـلى أيِّ علامـاتٍ عـلى الثلـج بـين طَـرَفَيْ القيـاس. لكـن الأمـر

الـذي أثـار حيرتـه بشـكل أكـبر، وجعلـه يشـعر بـأن رؤيتـه قـد انحرَفَـت تمامًـا، أن خطـوة ديفاجـو قـد اتسـعت بالطريقـة نفسـها، وغَطَّـت نفـس المسـافات غـير المعقولـة في النهايـة. بـدا الأمـر كـما لـو كان الوحـش الكبـير قـد رفعـه معـه وحملـه عـبر هـذه الفواصـل المذهِلَـة. وجـد سيمبسـون أنـه لا يسـتطيع، بأطرافـه التـي كانـت أطـولَ كثـيراً، أن يبلـغ ولـو نِصـفَ المسـافة إذا قفـز مـن الجـري.

إن مشـهد هـذه الآثـار الضخمـة، وهـي تجـري جنبًـا إلى جنـب، هـو دليـلٌ صامـت عـلى رحلـة مُروِّعـة أدَّى فيهـا الرُّعـبُ أو الجنـون إلى نتائِـجَ مسـتحيلة، كانـت مُؤثِّـرَةً بصـورة بالغـة، صَدَمَتـه في أعـماق روحـه الدَّفينـة. لقـد كانـت الـشيء الأكـثر رُعبًـا الـذي وَقَعَـت عليـه عينـاه يومًـا. بـدأ يتتبَّعُهـا بشـكلٍ أوتوماتيـكيٍّ، شـارِدَ الذِّهـن تقريبًـا، يتطلَّـع مـن فـوق كتفـه باسـتمرارٍ لـيرى إن كان، هـو الآخـر، مُلاحَقًـا مـن شيء ذي خُطًـى عملاقـةٍ... وسرعـان مـا خَلُـصَ إلى أنـه لم يَعُـدْ يـدرك تمامًـا مـاذا تعنـي، هـذه الانطباعـات التـي تركهـا شيءٌ مجهـولٌ وغـيرُ مُـروَّضٍ عـلى الثلـج، وفي صُحبَتِهـا عـلى الـدَّوام آثـار قَدَمَـيْ دليلـه، الكنـديِّ الفرنـسي الضئيـل، رفيقه، الرجـل الـذي شـارَكَه خيمَتَـه قبـل سـاعات قليلـة، يُـدَردِشُ ويَضحَـك، بـل ويُغنِّـي إلى جـواره...



٧

بالنسـبة إلى رَجُـلٍ في مثـل عُمـره وخِبرَتِـه، ربمـا لا يسـتطيع سـوى اسـكتلنديٍّ حكيـم، نشـأ عـلى الفِطـرَة السـليمة وتأسَّـس عـلى المنطـق، أن يحافـظ عـلى ذلـك القَـدرِ مـن التَّـوازُن الـذي تمكَّـن هـذا الشـابُّ -بطريقـة أو بأخـرى- أن يحافـظ عليـه خـلال المغامـرة بأكملهـا. وإلَّا انبغـى لشـيئَيْن -مـا لَبِـثَ أن لاحظهـما بينـما كان مُندَفِعًـا إلى الأمـام بشـجاعة- أن يجعـلاه يعـود رأسًـا إلى الأمـان النسـبي لخيمتـه، بـدلًا مـن الاكتفـاء بإحـكام قبضتـه بشـدَّة عـلى عَقِـب بندقيَّتـه، بينـما كان قلبـه، الـذي تلقَّـى تدريبـه للخدمة في "وي كـيرك"، يرسـل الصلـوات الصامتـة لتشـقَّ طريقهـا إلى السـماء. رأى أن كِلَا الأثريـن قـد خضـع لتغيـير، وبقـدر مـا تعلَّـق هـذا التغيـير بخُطـى الرجـل، بقـدر مـا كان مُرعِبًـا بطريقـة مـا تسـتعصي عـلى الفهـم.

لقـد لاحـظ ذلـك لأوَّلِ مَـرَّةٍ في الآثـار الأكـبر، ولم يَسـتَطِع أن يُصـدِّق عينيـه تمامًـا لفـترة طويلـة. هـل كانـت أوراق الشَّـجَر، التـي تُبَعثِرُهـا الريـح، هـي التـي أنتجـت تأثـيراً غريبًـا مـن الضَّـوء والظِّـل، أم أنـه الثلـج

الجاف، المنجرف حول الحوافِّ مثل الأرز المطحون جيِّدًا، قد أكسب الظِّلالَ والإضاءات العالية صِبغَتَه؟ أم كانت الحقيقة -فعلًا- أن الآثار الكبيرة قد أصبحت مصبوغةً بِلونٍ باهِت؟ إذ ظهرت، في ذلك الحين، مِسحَةٌ غامضة ضارِبَةٌ إلى الحُمرَة، تحيط بالحُفَر الغائرة العميقة من أثر الحيوان، أقرب لتأثير الضوء منها لأيِّ شيءٍ آخر يكون قد صَبَغَ مادَّةَ الثلج نفسها. كانت موجودةً في كل أثر، وعلى نحوٍ مُتزايِد، هذه المسحة النارية الباهتة التي أضفت على الصورة لمسةً جديدةً من الفَظاعَة.

لكنه عندما أصبح غيرَ قادرٍ بالمرة على تفسيرها أو تصديقها، حوَّل انتباهه إلى الآثار الأخرى ليرى إن كانت، هي أيضًا، تحمل شواهِدَ مُماثِلَةً، لاحظ أنها قد خَضَعَت، في هذه الأثناء، لتغييرٍ أسوأ بكثير، حمل إيحاءاتٍ أكثرَ ترويعًا إلى حَدٍّ بعيد؛ إذ رأى في آخر مائة ياردة أو نحوها أنها قد تحوَّلَت بالتدريج إلى هيئة الأثر الكبير. لقد حدث التغيير بشكل غير ملحوظ، ومع ذلك، لا تخطئه عين. كان من الصعب معرفة المكان الذي بدأ عنده التغيير أولًا. لكن النتيجة لم تكن تحتمل الشَّكّ. كانت تُشكِّل، حينئذٍ، نُسخَةً دقيقةً ومُتقَنَةً من الآثار الأكبر الموجودة إلى جوارها، نسخة أصغر وأكثر دِقَّة صيغت بنظافةٍ أكبر. كانت الأقدام التي صَنَعَتها -بناءً على ذلك- قد تغيَّرَت أيضًا. وبرز في عقله شيءٌ من الاشمئزاز والهَلَع بمجرَّد أن رآها.

عندما تَردَّد سيمسون لأول مرة، ثم شعر بالخجل إزاء ذُعرِه وتَردُّدِه، قَطَعَ خطواتٍ قليلةً مُتعجِّلَةً للأمام، قبل أن يتوقَّف في اللحظة التالية وقد أخذته المفاجأة. أمامه مباشرة، كانت كُلُّ علامات الأثر قد انقطعت، ووصل كِلَا الأثرين إلى نهايةٍ مُفاجِئَة. بحث على كلا الجانِبَيْن لمسافة مائة ياردة وأكثر عن أقل دلالة على استمرارها، لكن من دون جدوى، لم يكن هناك شيء.

كانت الأشجار كثيفةً للغاية في هذه المنطقة بالذات، كلها أشجار كبيرة، أشجار التنُّوب والأَرْز والشوكران، لم تكن هناك أيُّ شُجَيرات. وقف يتطلَّع حوله في ذهولٍ كامل، مُجرَّدًا من كل قُدرَةٍ على الحُكم. ثم شرع في العمل باحثًا من جديد، المرَّةَ تلوَ الأخرى، لكنه كان يَصِلُ إلى النتيجة نفسها على الدوام، لا شيء، الأقدام التي طَبَعَت علاماتِها على الثلوج كلَّ هذه المسافة، قد توقَّفَت في تلك اللحظة، على ما يبدو، وفارَقَت الأرض!

وحدث في تلك اللحظة من الكَربِ والحيرة، أن ألهب سَوطُ الرُّعبِ قَلبَه بلسانِه المتقن. وقع بتأثيره المميت على أكثر البُقَع إيلامًا على الإطلاق؛ ممَّا أوهن عزيمتَه بشكلٍ كامل. لقد كان يخشى في سِرِّه طوال الوقت أن تأتي هذه اللحظة، وها هي قد أتت.

سمع صوت الدليل ديفاجو، بعيدًا في الجوِّ، مكتومًا بفعل الارتفاع والمسافة الكبيرَيْن، ضعيفًا ومُنتَحِبًا بشكلٍ غريب.

هبط الصوت عليه من تلك السماء الشتوية الساكنة، بتأثير فزَعٍ ورُعبٍ لا نظيرَ لهما، سقَطَت البندقية بالقرب من قدميه. وقف بلا حراكٍ للَحظَةٍ، يُنصِتُ كما لو كان بكامل جسده، ثم ترنَّح للخلف باتجاه أقرب شجرة ليستند عليها، مُشتَّتَ العقل والروح بشكل يدعو على اليأس. بدا له، في تلك اللحظة، أنه يمرُّ بأكثر تجربة صادِمَةٍ ومُزَلزِلَةٍ عرفها يومًا، هكذا خَلَا قلبه من كل شعور أيًّا كان، كما لو أن ريحًا باردةً مفاجئةً ضربته.

- أوه! أوه! هذا المرتفع الناري! أوه، قدماي الناريَّتان! قدماي المحترقتان الناريتان...!

سَرَت في البُعدِ النَّبراتُ المتضرِّعَةُ لاستغاثةٍ لا توصَف، صوت المعاناة هذا تحت السماء. صاح بغتةً... ثم ران الصمت على وحشَةِ الأشجار المنصِتَة كُلِّها.

كان سيمبسون، الذي يعي بالكاد ما يفعله، قد وجد نفسه يَركضُ بعُنفٍ جيئةً وذهابًا، مُفتِّشًا، وصائِحًا، ومُتعثِّرًا في الجذور والصخور، مُلقِيًا بنفسه في غمار ملاحقة غير موجَّهة في إثر المنادي.

غاص وراء ستار الذاكرة والمشاعر، التي تَحجبُ به الخِبرةُ الأحداثَ، مُشتَّتَ الذِّهن ونِصفَ مُشوَّشٍ، يلتقط أضواءً زائفةً مثل سفينة في البحر، الرعب في عينيه وقلبه وروحه. إذ ناداه ذُعرُ البَرِّيَّة بهذا الصوت البعيد -بسُلطَةِ المسافة الجامِحَة- إغواء الوحْشَةِ المدَمِّر. عرف في تلك اللحظة كلَّ الآلام التي يُقاسيها شخصٌ ضائع بشكل مَيؤوسٍ منه ولا يُرجَى له علاجٌ، يعاني الشهوة وشقاءَ الروح في الوحدة الحتميَّة. بَرَقَ طَيفُ ديفاجو، مثل اللهب عبر خرائِبِ أفكارِه المظلِمَة، مُطارَدًا إلى الأبد، مَدفوعًا وملاحَقًا عبر الاتِّساع الزَّلِق لتلك الغابات القديمة...

بدا وكأن دهرًا قد مَرَّ عليه قبل أن يتمكَّن من العثور على أي شيء، في فوضى أحاسيسه المشوَّشة، يستطيع أن يرسو عليه بثَباتٍ للَحظَةٍ، ويفكِّر...

لم تتكرَّر الصرخة. ولم يَلقَ نداؤه الأَجَشُّ أيَّ استجابة، لقد استدعت قوى البرية المبهَمَة ضحيَّتَها إلى حيث لا يُمكِنُ استعادتها، وأسرعت في الإمساكِ بها.

***

بَحَثَ ونادى، مع ذلك، لساعاتٍ من بعدها، على ما يبدو؛ إذ كان الوقت متأخِّرًا فيما بعد الظهيرة عندما قَرَّر -أخيرًا- أن يتخلَّى عن سَعيِه عديم الجدوى ويعود إلى مُخيَّمه على ضفاف بُحَيرة "فيفتي آيلاند ووتر". ذهب بتردُّدٍ، مع ذلك، فقد ظلَّ الصوت الصارخ يتردَّد في أذنيه. عثر على بندقيَّته وطريق العودة بصعوبَةٍ. عمل كلٌّ من التركيز اللازم لمتابعة العلامات المحفورة على الأشجار بشكل رديء، والجوع الذي عضَّه بأنيابه، على مُساعَدَتِه في الحفاظ على ثَباتِ عَقلِه.

وإلَّا، كما يُقِرُّ بنفسه، ربما كان الانحراف المؤقَّت الذي عانى منه ليمتدَّ طويلًا حتى يسلمه إلى كارثة حقيقية. مالت الكفَّةُ بالتدريج مرَّةً أخرى واستعاد قَدْرًا من توازُنِه الطبيعي.

ولكن على الرغم من كل ذلك، كانت الرحلة، عبر الظلام المتجمِّع، مسكونةً بالرُّعب على نحوٍ بائس. سمع خُطى لا حَصرَ لها تَتبَعُه، وأصواتًا تضحك وتتهامس، ورأى شخوصًا تربض خلف الأشجار والصخور وترسم إشاراتٍ، بعضها لبعض؛ لتنسيق الهجوم عليه في لحظة مروره. جعَلَته دَمدَمَةُ الريح السارية يَجفُلُ ويصيخ السَّمعَ، ذهب خُلسَةً، محاوِلًا أن يختبئ أينما أمكن، وألَّا يُصدِرَ سوى أقلِّ الأصوات بقدر ما يستطيع. أصبَحَت ظِلالُ الغابة -حينَها- مُهدِّدَةً ومُتحدِّيَة، بعد أن كانت قبل لحظاتٍ قليلة حاميةً أو حتى ساترة. وحَجَبَ ضَجيجُ عقله المرتعب مجموعةً من الاحتمالات التي أصبحت تُنذِرُ بالسُّوء بشكلٍ أكبر كلَّما ازدادت إبهامًا. كان الحَدسُ بوَيْلٍ مجهولٍ يكمن بوضوحٍ خلف كُلِّ تفصيلَةٍ ممَّا قد حدث.

كانت الكيفيَّة التي خرج بها مُنتَصِرًا في النهاية مُثيرَةً للإعجاب. قد يخرج رجالٌ، ذوو قُدراتٍ وخبرات أكثر نُضجًا، من هذه التجربة بنجاحٍ أَقلَّ. لقد تمالَكَ نفسه بشكل جيِّد، آخِذًا كلَّ شيء في الاعتبار، وتُبَرهِنُ خُطَّةُ عمله على ذلك. لم يكن النَّومُ واردًا على الإطلاق، وكذلك لم يكن الترحال على طريق مجهولٍ في الظلام بالأمر العملي، جلس طوال تلك الليلة، حاملًا البندقية في يده، أمام النار التي لم يسمح لها أن تخبو مُطلَقًا، ولو للَحظَةٍ واحدة. تركت قسوةُ اليَقظَةِ الممسوسة أثرَها على روحه مدى الحياة، لكنه أتمَّها بنجاح، وانطلق مع أولى إشارات الفجر، في رحلة العودة الطويلة للمُخيَّم الأم، ليأتي بالمساعَدَة. وكما فعل من قبل، ترك رسالةً خَطِّيَّةً تُفسِّر غيابه، وتشير إلى المكان الذي خبَّأ فيه كمِّيَّةً وافرة من الطعام والثِّقاب، على الرغم من أنه لم يكن يتوقَّع أن تعثر عليها يدا إنسان.

قد تُصلِح الكيفيَّة، التي وجد بها سيمبسون طريقَه بمفرده عبر البُحَيرَة والغابة، لأن تكون قِصَّةً بذاتها؛ إذ يؤدِّي سماعه وهو يحكيها إلى التَّعرُّف على وحدة الرُّوح الطاغية التي يشعر بها الإنسانُ عندما تمسك به البَرِّيَّةُ في قبضة يَدِها اللا محدودة، وتطلق ضحكاتها. ويؤدِّي كذلك إلى الإعجاب بجَسارته التي لا تُقهَر.

لا يَدَّعي أيَّ براعة، عندما يخبر أنه اتَّبع الطريقَ الذي يكاد يكون غيرَ مَرئيٍّ بشكل ميكانيكي، وبلا تفكير. وهذه هي الحقيقة من دون شكٍّ. لقد عَوَّل على الاهتداء بالعقل اللا واعي، وهي غريزة. ربما يكون الإحساس بالاتجاهات، الذي تعرفه الحيواناتُ والبدائيُّون، قد ساعد كذلك بالطبع؛ إذ أنه نجح -عبر كل تلك المنطقة المتشابكة- في الوصول إلى المكان المحدَّد الذي أخفى فيه ديفاجو القارب قبل ثلاثة أيام تقريبًا، قائلًا:

- امْضِ عبرَ البحيرة باتجاه الغرب مُتَتبِّعًا الشمس لتعثر على المخيَّم.

لم يكن مُتبقِّيًا من نور الشمس ما يكفي لإرشاده، لكنه استخدم بوصلتَه بأفضل صورة مُمكِنَة، منطلقًا على متن القارب الضئيل للاثنَيْ عشر ميلًا الأخيرة من رحلته، يغمره شعورٌ كبير بالارتياح لأنه -أخيرًا- خلَّف الغابَةَ وراء ظهره. كان الماء هادئًا، لحُسنِ طالِعه، شَقَّ طريقه عبر وسط البحيرة بدلًا من الإبحار حول الشواطئ لمسافة عشرين ميلًا أخرى، ومن حسن طالعه، أيضًا، أن عاد الصيادون الآخرون. منحه ضوءُ نيرانهم نُقطَةَ استرشاد، ربما كان عليه، من دونها، أن يقضي الليل بطوله مُفتِّشًا عن الموقع الفعلي للمخيَّم.

مع ذلك،كان الوقت قد شارَفَ على منتصف الليل، عندما احتكَّ قاربُه بالخليج الرملي الصغير، وأيقظ بصياحه هانك وبانك وعَمَّه من نومهم، فركضوا مُسرِعين وقدَّموا يَدَ العون لنموذج الإنسانية الاسكتلندية المحطَّم منهَكِ القُوى، وهو يَعبُرُ فوق الصخور صوبَ النَّار الخابِيَة.

VI

إن الدخـول المفاجـئ لعَمِّـه الـذي يألفـه، في عـالم السـحر والرعـب الـذي تلبَّسَـه مـن دون انقطـاعٍ لمـدَّة يومـين وليلتـين حتـى ذلـك الحـين، كان لـه تأثـيرٌ مباشر أكسَـبَ الأمـرَ وجهًـا جديـدًا بشـكل تـام. كان الصـوت المـوَّج لِتلكُـما العبارتـين: "أهـلًا يـا بُنـيَّ!" و"كيـف حالـك الآن؟"، وقبضـة تلـك اليـد الجافَّـة القويـة- قـد وَفَّـرا لـه معيـارًا آخـر للحُكـم. تَدَفَّـق في داخلـه شـعورٌ بالاشـمئزاز. أدرك أنـه سـمح لنفسـه "بالتـمادي" عـلى نحـو سـيِّئ. حتـى أنـه شـعر بالخجـل مـن نفسـه عـلى نحـو مُبهَـمٍ. رَدَّتـه إلى صوابـه الصَّرامَـةُ الأصيلـة، التـي يتميَّـز بهـا عِرقُـه.

ويفسِّر هـذا -بـلا شَـكٍّ- السـببَ الـذي جعلـه يَجِـدُ نفسـه عاجـزًا عـن إخبـار تلـك المجموعـة المتحلِّقـة حـول النـار بـكل شيء. لكنـه قـد قـال مـا يكفـي لجعلهـم يتوصَّلـون إلى قـرارٍ بـأن جلسـة البَـوْحِ يجـب أن تبـدأ في أقـرب وقـتٍ مُمكِـنٍ. وأنـه ينبغـي عـلى سيمبسـون أولًا أن ينـال قسـطًا مـن الطعـام، وأهـم مـن ذلـك النـوم؛ ليكـون قـادرًا عـلى خوضهـا. قـام

الدكتـور كاثـكارت، وقـد انتبـه للحالـة بفِطنَـةٍ أكـبر مـن أن يُدرِكَهـا الفتـى، بحَقنِـه بجَرعَـةٍ خفيفـة مـن المورفـين، نـام بعدهـا مثـلَ الميِّـت لمـدَّة سِـتِّ سـاعات.

يتَّضِحُ مـن الوصـف الـذي كتبـه طالِـبُ اللاهـوت بعنايـة -بعـد ذلـك- أن القِصَّـة التـي قدَّمَهـا للمجموعـة المشـدوهة، قـد أغفَلَـت تفاصيـلَ حَيويَّـةً وهامَّـةً عديـدة. أقـرَّ بأنـه لم يمتلـك الشَّـجاعَةَ لذِكرِهـا، بينـما يتطلَّـع عَمُّـه في وجهـه بمُحيَّـاه الرصـين الواقعـي. وهكـذا، فـإن كل مـا استـنتجه فريـق البحـث، عـلى مـا يبـدو، أن ديفاجـو قـد عـانى في الليـل مـن نوبَـةِ هَـوَسٍ حـادَّة، يتعـذَّر تفسـيرها، مُتخيِّـلًا أن شـخصًا مـا أو شـيئًا مـا قـد نـاداه؛ فانـدفـع في إثـره إلى داخـل الغابـة، مـن دون طعـامٍ أو سـلاح، حيـث لا بُـدَّ أنـه سـيَلقَى ميتـةً رهيبـةً وبطيئـة، بفعـل الـبرد والجـوع، مـا لم يَتِـمَّ العثـورُ عليـه وإنقـاذُه في الوقـت المناسـب. كان "الوقـت المناسـب" يعنـي، أكـثر مـن ذلـك، حـالًا.

بحلـول اليـوم التـالي، عـلى كل حـال، انطلقـوا في السـابعة، تاركـين بانـك مسـؤولًا عـن المخيَّـم بعـد أن أعطـوه تعليـماتٍ بـأن يكـون الطعـام والنـار جاهِزَيْـن دائمًـا... رأى سيمبسـون أنـه مـن الممكـن أن يُخـبِرَ عَمَّـه قَـدرًا أكـبر مـن الكُنْـه الحقيقـي للقصـة، مـن دون أن يَحـزِرَ أنـه قـد اسـتخلصها منـه، في واقـع الأمـر، مـن خـلال شـكل بـارعٍ للغايـة مـن أشـكال الاسـتنطاق. في الوقـت الـذي وصلـوا فيـه إلى بدايـة الطريـق، حيـث كان القـارب قـد وُضـع اسـتعدادًا لرحلـة العـودة، ذكـر كيـف تحـدَّث ديفاجـو بشـكل غامـض عـن شيء أسـماه "ويـنديجـو"، وكيـف بـكى في نومـه، وكيـف تخيَّـل وجـود رائحـة غـير عاديـة في المخيَّـم، وأظهـر أعـراضَ اضطـرابٍ عقـليٍّ أخـرى. كـما اعـترف بالتأثـير الـمُربِك "لتلـك الرائحـة غـير العاديـة" عليـه نفسـه، "حـادَّة ولاذعـة مثـل رائحـة الأسـود". وفي الوقـت الـذي كانـوا فيـه عـلى بُعـدِ أقَـلَّ مـن سـاعة مـن بحـيرة "فيفتـي آيلانـد ووتـر" سـمح للسـانه أن يَـزِلَّ بواقعـةٍ إضافيَّـةٍ، شـعر بعـد ذلـك أنهـا كانـت إقـرارًا أحمـقَ بحالتـه

الهيستيرية، أخبره أنه قد سمع الدليل المختفي يصيح مستغيثًا. أغفل الجُمَلَ الغريبة المستَخدَمَة؛ إذ أنه لم يستطع -فقط- أن يحمل نفسه على تكرار الُّلغة الخرقاء. كذلك، عندما كان يَصِفُ كيف اتَّخَذَت آثارُ خُطواتِ الرجل على الثلوج صورةً دقيقةً مُصغَّرَةً من آثار الحيوان الغائرة، استبعد حقيقةَ أن المسافات التي تفصلها كانت لا تُصدَّق على الإطلاق. بدا أن هناك صراعًا، متوازِنًا بإحكام، بين الكبرياء الشخصي والأمانة، ما ينبغي عليه أن يكشفه وما يكتمه. فقد ذَكَرَ الأثرَ الناريَّ على الثلوج، على سبيل المثال، وأحجم عن ذِكْر أن الجسد والفِراشَ قد جُرَّا إلى خارج الخيمة بشكل جزئيٍّ...

أكَّد له الدكتور كاثكارت، الذي كان يَعُدُّ نفسَه عالِمًا نفسيًّا بارعًا، بوضوحٍ كافٍ أن المواضع المحدَّدة التي تأثَّر فيها عَقلُه بالوحدة والارتباك والرَّهبَة، قد أدَّت إلى الإجهاد، ومَهَّدَت الطريقَ للتَّوهُّم. وبينما راح يمتدح تَصرُّفَه، تمكَّن في الوقت نفسه أن يشير إلى الكيفية والمواضع والأوقات التي كان عقله قد ضَلَّ فيها. جعل ابن أخيه يعتقد -من خلال الشتاء الحصيف- أنه أصبح أفضلَ ممَّا كان عليه، ومع ذلك، أكثر غفلة من ذي قبل لتقليله من قيمَةِ الشَّواهد. لقد ألقى بالتَّبِعَة على عدم كفاية المعلومات، شأنه في ذلك شأن العديد من الماديِّين الآخرين؛ لأن المعلومات التي زُوِّد بها تبدو -بإدراكه الخاص- غيرَ مقبولة. قال:

- لا يمكن لِسِحْرِ هذه العُزلَةِ الرهيبة أن يترك أيَّ عقل، ذا قُدراتٍ تَخيُّليَّة رفيعة، من دون أن يَمَسْسه. لقد أثَّر على عَقلِكَ، بالضبط، كما أثَّر على عقلي عندما كنتُ في مثل عُمرِكَ. إن الحيوان الذي زار مُخيَّمَكَ الصغير كان أيِّلًا، من دون شَكٍّ؛ إذ أن لخوار الأيِّل، في بعض الأحيان، رنَّةُ صَوتٍ عجيبة. والمظهر الملوَّن للآثار الكبيرة من الواضح أنه كان خَللًا في الرؤية أوجَدَته الإثارةُ في عينيكَ. أمَّا حجم وامتداد الآثار فسنتيقَّن منهما

عندما نأتي إليهما. لكن الهلوسة بخصوص صوتٍ مَسموعٍ هي بالطبع أحد أكثر أشكال التَّوهُّم شيوعًا بسبب الإثارة الذِّهنيَّة، وهي، يا بُنيَّ العزيز، إثارة مُغتَفَرَة تمامًا، ودعني أضيف أنَّك سيطَرتَ عليها بشكلٍ رائع في ظلِّ هذه الظروف. وبالنسبة إلى الباقي، يتحتَّم عليَّ أن أقول إنَّك تَصرَّفتَ بشجاعة باهرة؛ لأن الخوف من الشعور بالضياع في هذه البرية هو أمرٌ مُروِّعٌ على أقل تقدير، ولا أعتقد، للحظة واحدة، أنه كان بوسعي التصرُّف بِرُبعِ حِكمَتِك وحَسمِك، إن كنتُ في مكانك. الشيء الوحيد الذي أجِدُه عَصيًّا على التفسير، بشكل غير عادي، هو تلك الرائحة اللعينة.

جَهَرَ ابنُ أخيه قائلًا:

– لقد أصابَتني بالغثيان، أؤكِّد لك، لقد أصابني الدُّوارُ حقًّا.

جعله سُلوكُ عَمِه العليم الهادئ، لمجرَّد أنه يحيط بالصِّيَغ النفسيَّة بشكل أكبر، يُصبح مُتحدِّيًا قليلًا. كان من السَّهل على المرء أن يصبح حكيمًا عند تفسير تجربة لم يَمُرَّ بها بشكلٍ شَخصيٍّ. أتمَّ كلامه وهو يلقي نظرةً خاطِفَةً على ملامح الرجل الهادئ الواقف إلى جواره من دون أن يُبدي أيَّ انفعال:

– لا يمكنني وَصفُها سوى بأنها نوعٌ من الرائحة البائسة والرهيبة.

جاءَه الرَّدُّ من عَمِّه:

– لا يَسَعُني إلَّا أن أتعجَّب من أنها لم تَبْدُ لكَ أسوأَ من ذلك في ظلِّ هذه الظروف.

أدرك سيمبسون أن هذه الكلمات الجافَّة كانت تتأرجح بين الحقيقة وتفسير عَمِّه "للحقيقة".

***

وهكذا وصلوا أخيرًا إلى المخيَّم الصغير ووجدوا أن الخيمة ظلَّت مُنتَصِبَة، وبقايا النار، وقِطعَة الورق المثبَّتة على وَتَدٍ إلى جوارها، لم تُمَسَّ. الخبيئة التي أُسيءَ تدبيرُها بأيادٍ غير خبيرة، اكتَشَفَتها فئرانُ المسك وحيوانات المِنْك والسَّناجب، وفَتَحَتها. كانت أعوادُ الثِّقاب مُبَعثَرَةً حول فتحة المخبأ، لكن الطعام قد أُخِذَ حتى آخر كِسرَة.

هتف هانك بصوتٍ مُرتَفِعٍ على طريقته:

- طيِّب يا رفاق، هو ليس هنا، وهذا أمرٌ مُؤكَّد كخروج الفحم أسفل الحزام، لكن أين عَلَّه يكون في هذا الوقت، فهذا أمر غير مؤكَّد كالولوج من الباب الخلفي.

لم يُشكِّل وجودُ طالِب اللاهوت أيَّ عائِقٍ أمام لُغَتِه في مثل هذا الوقت، على الرَّغم من أنها ربما تكون قد حُرِّرَت تحريرًا مُشدَّدًا حرصًا على القارئ. أضاف قائلًا:

- أقترح أن نبدأ فورًا في البحث عنه مثل المجانين.

نزلَت كآبَةُ مصير ديفاجو المحتمَل على الفريق كلِّه بإحساس حَرَجٍ مُروِّع في اللحظة التي رأوا فيها مَظاهِرَ الإشغال القريب. خاصَّة الخيمة ومعها فِراشُ أغصان البلسم الذي ظلَّ مبسوطًا ومُسطَّحًا من أثر ضغط جسده، بدا وكأنه يستحضر وجودَه على مقربة منهم. انتاب سيمبسون شعورٌ غامِضٌ وكأن عالَمَه على المحَكِّ، بطريقةٍ ما؛ فشرع في شرح التفاصيل بنبرةٍ خافتة. كان أكثر هدوءًا في ذلك الحين، وإن كان مُنهَكًا من إجهاد رحلاته العديدة. كانت طريقة عَمِّه في تفسير -أو بالأحرى، دحض- التفاصيل التي ظَلَّت حَيَّةً في ذاكرته المسكونة بالرُّعب، قد ساعَدَت -أيضًا- في وضع الجليد على انفعالاته.

أشار إلى الاتجاه، حيث كان الدليل قد اختفى ذلك الصباح في الفجر الرمادي، قائلًا لرفيقيه:

- وذلك هو الاتجاه الذي انطلق فيه راكضًا، لقد ركض، هناك مباشرةً، مثل الغزال، بين أشجار البتولا والشوكران...

تبادل هانك والدكتور كاثكارت نظراتٍ خاطِفَةً. وواصل هو الحديث بصوتٍ شابَهُ شَيءٌ من الرعب السَّالف:

- واقتفيتُ أَثَرَه، في خَطٍّ مستقيم، لمسافَةٍ قارَبَت الميلَيْن، وصولًا إلى المكان الذي توقَّف فيه الأثر فجأة.

صاح هانك بطلاقَةٍ كَشَفَت عن كَدَرِه الشديد:

- وحيث سَمِعتُه ينادي والتَقطتُ الرَّائِحَةَ النَّتِنَة، إلى آخر هذا العَبَثِ الشِّرِّير.

أضاف الدكتور كاثكارت بصوتٍ خافت، ولكن ليس للدرجة التي يَصعُب معها على ابن أخيه أن يسمعه:

- وحيث غَلَبَكَ الحماسُ إلى حَدِّ اختلاق الأوهام.

***

كان الوقتُ مُبكِّرًا فيما بعد الظهيرة؛ إذ أنهم قد ارتحلوا مُسرعين، وكان مُتبقِّيًا ما يزيد عن الساعة من ضوء النهار. لم يُضِعْ الدكتور كاثكارت وهانك أيَّ وقتٍ ليبدآ البحث، لكن سيمبسون كان مُرهَقًا لدرجةٍ لم تُمكِّنْه من مُرافَقَتِهما. يمكنهما تَتبُّع العلامات المحفورة على الأشجار، وآثار أقدامه، عندما تكون مُتاحَة، وفي غضون ذلك، كان أفضل ما يمكن لسيمبسون أن يفعله هو الإبقاء على النار مُشتَعِلَةً بشكل جيِّد، والراحة.

لكن بعد ما يقارب ثلاث ساعات من البحث، كان الظلام قد هبط بالفعل، ورجع الرجلان للمخيَّم خاوِيَا الوفاض. كانت الثلوج المتساقطة حديثًا قد غطَّت كل الآثار، وعلى الرغم من أنهم تعقَّبوا العلامات المحفورة على الأشجار حتى النقطة التي استدار عندها

سيمبسون عائدًا، إلَّا أنهم لم يكتشفوا أدنى إشارة على وجود إنسانٍ، أو على ذلك الموضوع المتعلِّق بحيوان. لم تكن هناك آثارٌ حديثة من أي نوع، كانت الثلوج تتساقَطُ من دون انقطاع.

كان من الصعب مَعرِفَة ما هو أفضل شيء يمكنهم فعله، وعلى الرغم من أنهم -في الواقع- ليس لديهم شيءٌ آخر يمكن فِعلُه، إلَّا أنهم قد يبقون ويبحثون لأسابيع من دون فرصة كبيرة في النجاح. لقد دمَّرَت الثلوج الحديثة أمَلَهم الوحيد، وتجمَّعوا حول النار لتناوُلِ العشاء، في حفلةٍ كئيبة ويائسة. كانت الحقائق، بالفعل حزينةً بما فيه الكفاية؛ إذ أن ديفاجو كان لديه زوجة في رات بورتاچ، وكان ما يتكسَّبُه هو المورِدُ الوحيد لإعالة الأسرة.

بعد أن ظهرت الحقيقةُ بكاملها وبكل قُبحِها، بدا من غير المُجدِي التَّمادي في المواراة أو التظاهُر. تحدَّثوا بصراحَةٍ عن الحقائق والاحتمالات. لم تكُن هذه هي المرَّة الأولى، حتى في تجربة الدكتور كاثكارت، التي يخضع فيها رجلٌ لإغواء العُزلَةِ الاستثنائي ويفقد عقله. كان ديفاجو -فوق ذلك- عُرضَةً لشيءٍ من هذا القبيل؛ إذ أن هناك بالفعل لمسة من الكآبة في طبيعته، وقد ساءت طِباعُه من جرَّاء نوبات الشُّرب التي غالبًا ما تستمرُّ لأسابيع في كلِّ مرة. كان هناك شيء ما في هذه الرحلة -ربما يَعجَزُ المرءُ عن تحديده بِدِقَّة- تكفَّل بِدفعِه لاجتياز الخَطِّ، هذا كل ما في الأمر. وقد ذهب، انطلق داخل برية الأشجار والبحيرات الكبيرة ليموت من الجوع والإعياء. كانت الاحتمالات المضادَّة لحملَةِ العثور عليه طاغِيَةً، كذلك، سيكون الهذيان الذي انتابه قد زاد بلا شَكٍّ، وكان من الوارد جدًّا أن يمارس العنف على نفسه فيعجِّل، بذلك، مصيره القاسي. ربما تكون النهاية قد حلَّت بالفعل بينما هم يتحدَّثون. مع ذلك، اعتزموا الانتظار لفترة أطول بعض الشيء، بناءً على اقتراح هانك، صديقه القديم، وتكريس اليوم التالي كله، من الفجر إلى الإظلام، لأكثر طُرُقِ البحث

منهجيَّةً التي يمكنهم ابتكارها. سوف يقسِّمون المنطقة بينهم. ناقشوا خُطَّتهم بتفصيلٍ كبير. سيفعلون كلَّ ما يمكن أن يفعله الرجال. وفي غضون ذلك، تحدَّثوا عن الشكل الخاص الذي نَفَّذ به رُعبُ البَرِّيَّةِ، الاستثنائيُّ، هجومَه على عقل الدليل سيِّئ الحظ. كان واضحًا أن هانك، على الرغم من أنه كان مُطَّلِعًا على الخطوط العامَّة للأسطورة، إلَّا أنه لم يرحب بالمنعطف الذي اتَّخذه الحديثُ. أسهم بالقليل، وإن كان هذا القليلُ كاشفًا؛ إذ أنه صرَّح بانتشار قِصَّة، في أرجاء هذا القطاع من البلد، كان فحواها أن عديدًا من الهنود "رأوا الونديجو" على طول شواطئ بُحَيرة "فيفتي آيلاند ووتر" في خريف العام السابق، وكان ذلك هو السبب الحقيقي وراء نفور ديفاجو من الصَّيد هناك. شعر هانك -بلا شَكٍّ- أنه قد أسهم في موت صديقه القديم من خلال حَمْلِه على ما يكره.

بدا أنه يتحدَّث إلى نفسه، أكثرَ منه إلى الآخرين، عندما قال مُوضِّحًا:

- عندما يُجَنُّ هِنديٌّ، دائمًا ما يُعزَى ذلك إلى أنه قد رأى الونديجو. ولقد كان ديفاجو المسكين مُؤمِنًا بالخرافات حتى أخمص قدمه!

بعد ذلك، عندما شعر سيمبسون بأن الأجواء صارت أكثر تعاطُفًا، قام مرَّةً أخرى بحَكْيِ القصَّة الكاملة لحكايته المذهلة. لم يُغفِلْ أيَّ تفصيلة هذه المرة، ذكر أحاسيسه الخاصَّة والمخاوف التي سيطَرَت عليه. لم يُهمِل سوى اللغة الغريبة المستخدمة.

قال الدكتور مشدِّدًا:

- لكن لا بُدَّ أن ديفاجو قد أخبرك، بالفعل، بكل هذه التفاصيل عن أسطورة الونديجو، يا صديقي العزيز، أعني، أنه تحدَّث

إليـكَ عنهـا، وهكـذا وضـع في رأسِـكَ الأفـكار التـي نمَّاهـا انفعالُـكَ بعدهـا. أليـس كذلـك؟

عندئـذ كَـرَّر سيمبسـون الوقائِـعَ مَـرَّةً أخـرى. وصرَّح بـأن ديفاجـو قـد ذكـر الوحـش بالـكاد، وأنـه، أي سيمبسـون، لم يكـن يعـرف شـيئًا عـن القصـة، وبقـدر مـا يتذكَّـر، فإنـه لم يقـرأ عنهـا قَـطُّ، حتـى الكلمـة نفسـها لم تكُـن مألوفَـةً لديـه.

كان يقـول الحقيقـة بالطبـع، واضطـرَّ الدكتـور كاثـكارت -عـلى مَضَـضٍ- أن يعـترف بالطابـع الاسـتثنائي للأمـر بِرُمَّتِـه. مـع ذلـك، لم يفعـل هـذا بالكلـمات بقـدر مـا فعله بالسـلوك. أسـند ظهـره إلى شـجرةٍ مُناسِـبَة وقويَّة. حـرَّك النـار ليُؤجِّجَهـا في اللحظـة التـي أظهَـرَت فيهـا علامـاتِ الخمـود. كان أسرعَ مـن أَيٍّ منهـما في مُلاحَظَـةِ أَقـلِّ صـوتٍ في الليـل مـن حولهـم: سـمكة تقفـز في البحـيرة، غُصـنٌ ينكـسر في الدَّغْـلِ، سـقوط شـظايا الثلـج المتجمِّـد، بشـكل عـرضيٍّ، مـن عـلى الأغصـان فوقهـم حيـث حَلحَلَتهـا الحـرارةُ. تَغـيَّر صَوتُـه، كذلـك، لتصبـح رَنَّتُـه أقـلَّ ثِقَـةً، ونبرتُـه أيضًـا أكـثرَ خُفوتًـا. بصراحـة، كان الخـوف يحـوم عـلى مقربـةٍ مـن ذلـك المخيَّـم الصغـير، وعـلى الرغـم مـن أن ثلاثتهـم كان لَيُسرُّهـم أن يتحدَّثـوا عـن أمـورٍ أخـرى، بـدا أن الـشيء الوحيـد الـذي يمكنهـم مناقَشـتُه هـو هـذا، مصـدر خوفهـم. لقـد حاولـوا الحديـث عـن مواضيـعَ أخـرى مـن دون جـدوى، لم يكـن هنـاك مـا يُقـال بشـأنها. كان هانـك الأكـثرَ صِدقًـا في المجموعـة. لم يَقُـلْ سـوى أقـلَّ مـن القليـل. أدار ظهـره للظـلام، جاعِـلًا وجهَـه في اتجـاه الغابـة طيلـةَ الوقـت، وعندمـا كان يَلزَمُهـم الحَطَـبُ لم يذهـب أبعـدَ مـمَّا يَلـزَمُ لإحضـاره.

VII

لَفَّهم جِدارٌ من الصَّمت؛ إذ كانت الثلوجُ كافِيَةً لإخماد أيٍّ ضوضاء، على الرغم من أنها لم تكن كثيفةً، بالإضافة إلى أن الصقيع قد حافَظَ على تَماسُكِ الأشياء. لم يكن مسموعًا سوى أصواتِهم وأزيز اللهب الخافِت. غير أنه من حينٍ إلى آخر، كان يمرُّ بهم، من خلال الهواء، شيءٌ ناعم مثل رفرفة أجنحة فَراشَةِ الصنوبر. لم يبدُ على أحدٍ التَّلهُّفُ للذَّهاب إلى الفِراش. كان الوقت يَنسَلُّ باتجاه منتصف الليل.

- إن الأسطورة مُعبِّرَة بشكلٍ كافٍ.

أبدى الدكتور كاثكارت هذه الملاحظة، بعد واحدة من فترات الصمت الطويلة، متحدِّثًا ليقطعها أكثر من أنه كان لديه أي شيء يقوله، وواصَل قائلًا:

- لأن الويندیجو ليس سوى نداءِ البرية وقد تجسَّد، ليسمعه بعض ذوي الطبائع فيُدمَّروا.

قال هانك على الفور:

- ذلـك هـو، وعندمـا تسـمعه لـن تُخطِئَـه؛ فهـو يناديـكَ بالاسـم بشـكلٍ صحيـحٍ كافٍ.

أعقـب ذلـك فـترةُ صَمـتٍ أخـرى. ثـم عـاد الدكتـور كاثـكارت إلى الموضـوع المحظـور باندفاعـة جعَلَـت الآخريـن يجفـلان. أبـدى ملاحظـة وهـو يتلفَّـت حولـه في الظـلام:

- إن الرمـز واضِـحٌ؛ إذ أنهـم يقولـون إن الصـوت يُمثِّـل كُلَّ الأصـوات الثانويـة للغابـة: الريـاح، والمـاء المتسـاقِط، وصيحـات الحيوانـات، ومـا إلى ذلـك. ومـا إن تسـمع الضَّحيَّـة ذلـك، فإنهـا تنطلـق بشـكل نهـائيٍّ، بالطبـع! ويُقـال -عـلاوة عـلى ذلـك- إن أكـبر نقـاط ضَعفِهـا هـما القَدَمـان والعينـان؛ القدمـان -كـما تـرى- بسـبب شـهوة التَّجـوُّال، والعينـان بسـبب شَـهوَةِ الجـمال. ينطلـق الفتـى المسـكين بمثـل هـذه السرعـة المروِّعـة فينـزف مـن تحـت عينيـه، وتحـترق قدمـاه.

اسـتمرَّ الدكتـور كاثـكارت في التحديـق بقَلـقٍ، في العَتَمَـةِ المحيطـة، بينـما كان يتحـدَّث. انخفـض صَوتُـه إلى نـبرةٍ خافتـة، وأضـاف قائـلًا:

- يقـال إن الونديجـو يحـرق قدميـه -بفعـل الاحتـكاك، الـذي تُسـبِّبه السرعـة الهائلـة، عـلى مـا يبـدو- حتـى تتضـاءل، وتتشـكَّل قدمـان جديدتـان تُشـبِهان قدَمَـيْ الونديجـو بالضبـط.

أنصـت سيمبسـون بذهـول مُـروَّع، لكـن أكـثر مـا جـذب انتباهـه هـو الامتقـاعُ الـذي كسـا وجـه هانـك. كان سيصُمُّ أُذُنَيْـه ويغمـض عينيـه بـكل سرور لـو أنـه امتلـك الجـرأة. شـارك في الحديـث مُتشـدِّقًا في بطءٍ وتَثاقُـل:

- كـما أنـه لا يُـلازِمُ الأرضَ دائمًـا؛ إذ يرتفـع حتـى يظـنَّ أن النجـوم قـد أشـعلت فيـه النـار. وأحيانًـا مـا يقـوم بقفـزاتٍ كبـيرةٍ رائعـة،

ويركض على قِمَم الأشجار، حامِلًا رفيقه معه، ثم يُسقِطُه، بالضَّبط، كما يسقط عُقاب البحر سمكة الكراكي ليقتُلَها قبل أن يأكلها. وطعامه -من بين كل أوحال الدَّغل- هو الطَّحالب!

وضحك ضحكةً قصيرة غير طبيعية، وأضاف، وهو ينظر بإثارة في وجه رفيقَيْه، قائلًا:

- الونديجو هو آكِلُ طحالب!

كرَّرها، مع سلسلةٍ من أغرب أشكال السِّباب التي استطاع أن يخترعها.

حينها، أدرك سيمبسون الغرضَ الحقيقيَّ من كل هذا الكلام. كان هذان الرجلان -وكلاهما قويٌّ وخبير على طريقته- يخشيان الصَّمتَ أكثر من أيِّ شيء آخر. كانا يتحدَّثان لمجابهة الوقت. وكانا يتحدَّثان أيضًا لمجابهة الظلام، وغَزوِ الهلَع، وما قد يجلبه التفكير عليهما من تسليمٍ بأنهما كانا في منطقة عدائيَّة، مُجابَهة أي شيء، في الحقيقة، بدلًا من السَّماح لأفكارهما الدَّفينة بتولِّي زمام الأمور. كان هو نفسه قد تجاوَزهما في هذا الصَّدَد، بعد أن عرف الرعب، بالفعل، من خلال حلم اليقظة الرهيب. لقد بلغ المرحلة التي أصبح فيها مُحصَّنًا. لكنَّ هذين الاثنين -الطبيب المحلِّل المستهزئ، ورجل الغابة المخلِص العنيد- جلس كُلٌّ منهما يرتعد في أعماق كيانه.

هكذا مَرَّت الساعات، وهكذا، جلست هذه المجموعة الصغيرة من البشر بين فَكَّي البرية، تتحدَّث بأصواتٍ منخفضة، وبنوعٍ من مقاومة الروح الداخلية المتوتِّرة، عن الأسطورة الرهيبة والمؤرِّقة. كانت مُنافسةً غيرَ مُتكافِئَة، عند أخْذِ كُلِّ شيء بعين الاعتبار؛ إذ تمتَّعَت البرية -بالفعل- بميزة الهجوم الأول واحتجاز رهينة. كان مصير رفيقهم قد خيَّمَ عليهم بضغطٍ يتزايَدُ ثِقَلُه باطِّرادٍ حتى أصبح في النهاية لا يُحتَمَل. كان هانك أوَّلَ مَن أطلق العنان لكل هذه المشاعر المكبوتة

بطريقةٍ غيرِ مُتوقَّعة للغاية، بعد فترة صمت، أطول من سابقاتها، لم يَبْدُ أن أحدًا قادِرٌ على كسرها؛ إذ انتفض على قَدَمَيْه -فجأةً- مُطلقًا أعلى الصيحات المدوية التي يمكن تَخيُّلُها في الليل. بدا أنه لم يَعُد بإمكانه السيطرة على نفسه أكثر من ذلك. وليجعلها تتجاوز الصيحة العادية؛ راح يقطع إيقاعها بهَزٍّ راحة يده أمام فمه. ثم قال، وهو ينظر إلى الآخرين، مُطلقًا ضحكة غريبة مُتحدِّية:

- هذه من أجل ديفاجو؛ إذ أنني أؤمن -هنا يمكن حذف السباب المرصوص- أن صديقي القديم ليس بعيدًا عنَّا في هذه اللحظة بالتحديد.

كان في أدائه عُنفٌ وتَهوُّرٌ جعَلَا سيمبسون يَثِبُ، هو الآخر، على قَدَميه مذهولًا، وفضحا الدكتور بأن ترك الغليون ينزلق من بين شفتيه. كان وجه هانك مروَّعًا، لكن كاثكارت أبدى ضعفًا مفاجئًا؛ إذ تخلخلت قُدراتُه كُلُّها. ثم اندلع غضبٌ خاطِفٌ في عينيه، وانتصب هو الآخر على قدميه، وإن كان بتروٍّ ناتِجٍ عن اعتياده ضبطَ النَّفس، وواجه الدليل المستثار. لأن هذا كان غير جائز، وأحمق، وخطير، وقد انتوى أن يَئِدَه في مَهدِه. قد يتكهَّن المرء بما كان ليحدث في الدقيقة أو الدقيقتين التالِيَتَيْن، لكنه لن يعرف أبدًا بشكل مؤكَّد؛ لأنه في لحظة الصمت العميق التي تَلَت صوتَ هانك الهادر، عَبَرَ شيءٌ ما، بسرعةٍ مُذهِلَة، في ظلام السماء فوقهم، وكأنه يَردُّ على ما حدث، شيء كبير جدًّا بالضرورة؛ إذ أنه أزاح قدرًا كبيرًا من الهواء، بينما سَقَطَت بين الأشجار صرخَةٌ باهِتَةٌ وعاصِفَةٌ من صوتٍ بشريٍّ، يصيح بنبرات مُعاناةٍ واستغاثةٍ لا يُمكِنُ وَصفُهما:

- أوه، أوه، هذا الارتفاعُ النَّارِيُّ! أوه، أوه! قدماي الناريَّتان! قَدَماي الناريتان المحترقتان!

تطلَّع هانك حوله بغباءٍ مثل الأطفال، مُبيِّضًا حتى أطراف ملابسه. أطلق الدكتور كاثكارت صرخةً مُبهَمَةً نوعًا ما، مستديرًا بعدها بحركةٍ غريزيَّة، من الرعب الأعمى، نحو حماية الخيمة، ثم توقَّف في المنتصف كما لو كان قد تجمَّد. كان سيمبسون هو الوحيد بين الثلاثة، الذي احتفظ بثَباتِ عقله قليلًا. كان رُعبُه أعمقَ من أن يسمح بأي ردَّةِ فِعلٍ مباشرة. لقد سمع تلك الصرخة من قبل.

استدار نحو رفيقَيْه المصدومين، وقال بما يشبه الهدوء:

- تلك هي الصرخة التي سمعتها بالضبط، الكلمات التي استخدمها نفسها!

ثم رفع رأسه إلى السماء، وصاح بصوت مرتفع:

- ديفاجو، ديفاجو! انزِلْ إلينا هنا، انزل...!

وقبل أن يسنح الوقت لأيٍّ منهم ليفعل شيئًا ما، بطريقة أو بأخرى، جاء صوتُ شيءٍ يسقط بقوَّةٍ بين الأشجار، ضارِبًا الأغصان في طريقه لأسفل، هابطًا على الأرض المتجمِّدة بارتطامٍ مُخيف، كان اصطدامه وهديره مُروِّعَيْن بحقٍّ.

- إنه هو، أَغِثْني أرجوكَ يا إلهي الرحيم!

قالها هانك بصرخَةٍ هامسة شبه مختنقة، موجِّهًا يده، بشكلٍ تلقائيٍّ، نحو سكِّين الصيد في حزامه. عندما أصبحت أصواتُ الخطوات الثقيلة، وهي تسحق الجليد، مسموعةً بشكلٍ واضح، تقترب عبر الظلام في اتجاه دائرة الضوء، أضاف بضحكة رُعبٍ خرقاء:

- إنه آتٍ! إنه آتٍ!

وبينما كانت الخطوات تقترب منهم أكثر فأكثر، بحركتها المتعثِّرة، وقف الرجال الثلاثة حول النار، صامتين وبلا حراك. ظهر الدكتور كاثكارت بمظهر رجلٍ صُعِقَ فَجأةً، حتى عينيه لم تتحرَّكا. بدا هانك،

الـذي كان يعـاني بشـكلٍ مُريـعٍ، عـلى شـفا القيـام بفعـلٍ عنيـفٍ مـرَّةً أخـرى، لكنـه لم يفعـل شـيئًا. كان هـو أيضًـا قـد قُـدَّ مـن حَجَـر. بَـدَوا مثـل أطفـال مذعوريـن. كانـت الصـورة بَشِـعَةً. وفي تلـك الغضـون، بقـي المسـتحوذ عليهـم غـيرَ مـرئي، اقتربـت الخطـى، وهـي تسـحق الثلـج المتجمـد. كانـت بـلا نهايـة، ممتـدَّة لدرجـة لا تجعلهـا حقيقيَّـةً تمامًـا، هـذا الاقـتراب المحسـوب وعديـم الرحمـة. كان لعينًـا.

VIII



ثـم تمخَّضَـت الظُّلمـة في آخـر المطـاف عـن شَـكلٍ، بعـد أن حملـت بـه حمـلًا شـاقًّا. تقـدَّم إلى منطقـة الضـوء غـير المؤكَّـد حيـث اختلطـت النـارُ بالظِّـلال، عـلى بُعـدٍ يَقِـلُّ عـن عـشر أقـدام، ثـم توقَّـفَ مُحدِّقًـا فيهـم بثبـات. في اللحظـة نفسـها التـي بـدأ يتقـدَّم فيهـا، مـرَّةً أخـرى، بحركـة مُتشـنِّجة وكأنمـا تتحكَّـم فيهـا خيـوطٌ، واقـترب منهـم، ليدخـل في وَهَـجِ النَّـار بالكامـل، أدركـوا حينهـا أنـه كان رَجُـلًا، وكان مـن الواضـح أن هـذا الرجـل هـو ديفاجـو.

في تلـك اللحظـة، انسـدل عـلى كلِّ وجـهٍ -بشـكل يـكاد يكـون ملموسًـا- شيءٌ يُشـبِهُ غشـاءً مـن الرعـب، ولاحـت مـن خلالـه ثلاثـة أزواج مـن العيـون، وكأنهـا تنظـر، عـبر حـدود الرؤيـة العاديـة، إلى المجهـول.

تقـدَّم ديفاجـو، بخُطًـى مترنِّحَـةٍ ومـتردِّدة، شـاقًّا طريقـه، بشـكل مباشر، نحوهـم كمجموعـة أولًا، ثـم اسـتدار بحـدَّةٍ وحَـدَّق في وجـه سيمبسـون عـن قـرب. خـرج صـوت مـن بـين شـفتيه قائـلًا:

- ها أنا ذا، يا رَيِّس سيمبسون. لقد سمعتُ شَخصًا يناديني.

كان صوتـه جافًّـا وخافتًـا، جعلـه المجهـود الهائـل مُتقطِّـعَ الأنفـاس وذا صَفـيرٍ.

- أنا أقوم برحلة اعتيادية من النَّوع الجهنَّمي، أفعل ذلك.

وضحك مُلقيًا برأسه إلى الأمام في وجه مُحدِّثه.

لكـن تلـك الضحكـة حرَّكَـت مجموعـةَ تماثيـل الشَّـمع ذوات البـشرة البيضـاء كالشـمع. قفـز هانـك عـلى الفـور إلى الأمـام مـع سَـيْلٍ مـن السـباب الغريـب، حتـى أن سيمبسـون لم يُميِّـز فيـه اللغـةَ الإنجليزيـة عـلى الإطـلاق، بـل ظـنَّ أنـه تَحـوَّل إلى الهنديـة أو أي لغـة أخـرى. لم يـدرك سـوى أن وجـود هانـك، واندفاعـه هكـذا بينهـما، كان مَوضِـعَ تَرحيـب، بشـكلٍ غـير معتـاد. تقـدَّم الدكتـور كاثـكارت خلفـه، بهـدوءٍ وتَـرَوٍّ أكـثر، لكنـه عـلى الرغـم مـن ذلـك كان يتعـثَّر.

بـدا سيمبسـون مُشوَّشًـا بشـأن مـا قيـل أو فُعِـلَ في الثـواني القليلـة التي تَلَـت ذلـك؛ إذ كانـت عينـا هـذا الوجـه المحطَّـم الكريـه، اللتـان تُحدِّقـان في عينيـه مـن مثـل هـذه المسـافة القريبـة، قـد أربكتـا حواسَّـه تمامًـا في بـادئ الأمـر، فلـم يَـزِدْ أن وقـف سـاكنًا. لم يَقُـل شـيئًا. لم يكـن يمتلـك الإرادة المدرَّبـة التـي يتمتَّـع بهـا الرَّجُـلان الأكـبر سـنًّا، والتـي دفعتهـما إلى العمـل في مواجهـة جميـع الضغـوط الانفعاليـة. راقَبهـما وهـما يتحـرَّكان وكأنـه يراهـما مـن خلـف زجـاجٍ شَـوَّه حقيقتهـما بشـكلٍ جـزئي. كان الأمـر مُتحـوِّرًا كالحلـم. يتذكَّـر -مـع ذلـك- سـماعَ نـبرة عَمِّـه السُّـلطويَّة، صارمـة وقاهـرة، تتخلَّـل سـيلَ عبـارات هانـك عديمـةِ المعنـى، قائِلَـةً عِـدَّةَ أشـياء عـن الطعـام والـدفء والأغطيـة والويسـكي وغيرهـا... وعـلاوة عـلى ذلـك، كانـت نفحـةٌ مـن تلـك الرائحـة النفَّـاذة غـير المعتـادة، الكريهـة لكنهـا مُربِكَـة بِلُطـفٍ، قـد هاجَمَـت فتحَتَـيْ أنفـه خـلال كلِّ مـا تـلى.

لكن لم يكن أحدًا سواه -مع أنه أقلُّ خِبرةً ومَهارةً من الآخرين- مَن تَلفَّظ، على نحوٍ غريزي، بالجُملَة التي جَلَبَت قدرًا من الارتياح على الوضع المريع، بتعبيرها عن الشَّكِّ والفكرة بداخل كلٍّ منهم. تساءل بصوتٍ خَفيضٍ، وكلام مُتقطِّع من الرُّعب:

- إنه أنت، أليس كذلك، يا ديفاجو؟

بادر كاثكارت على الفور بالإجابة بصوتٍ مُرتَفعٍ، قبل أن يُتاح الوَقتُ للآخر أن يحرِّك شَفَتَيْه:

- إنه هو بالطبع، أَلَا تستطيع أن ترى، سوى أنه يكاد يموت من الإرهاق والبرد والرُّعب! ألا يكفي ذلك لتغيير الإنسان فلا يعود من السَّهل التَّعرُّف عليه؟

قالها لِيُقنِعَ نفسه بقدر ما أراد إقناع الآخرين، وحدها نبرة المبالغة بَرهَنَت على ذلك. وكان يضع المنديل على أنفه بشكلٍ مُستمرٍّ، بينما يتكلَّم ويتحرَّك. سادت تلك الرائِحَةُ المخيِّمَ بأكمَلِه.

إذ لم يكن ديفاجو -الذي جلس مُحاطًا بالنيران الكبيرة، ومُلتفًّا بالأغطية، يشرب الويسكي الساخن ويحمل الطعام بيدَيْن مَهزولَتَيْن- يُشبِه الدَّليل الذي قد رأوه على قَيْدِ الحياة أكثر ممَّا تُشبِهُ صورة رَجُلٍ في السِّتِّين؛ صورة على لَوحٍ فِضِّيٍّ من شبابه المبكِّر، في ثياب جيلٍ آخر. ليس بوسع أي شيء -حقًّا- أن يَصِفَ ذلك الكاريكتور المريع، تلك المحاكاة الساخرة، المتنكِّرة في هيئة ديفاجو في ضوء النار. يؤكِّد سيمبسون، من أطلال الذكريات المظلِمَة والمروِّعة التي لا يزال يحتفظ بها، أن الوجه كان حيوانيًّا أكثرَ منه آدَمِيًّا، والملامح ممطوطةً بِنسَبٍ خاطئة، والبشرة رخوة ومتهدِّلة، كما لو كان قد تعرَّض لضغوطٍ وتَوتُّراتٍ غير عادية. جعله يفكِّر، على نحوٍ غامِضٍ، في تلك الوجوه المملوءة بالهواء التي ينفخها الباعَةُ الجائلون في "لُدجيت هيل"، والتي تُغيِّر تعبيراتِها عندما تنتفخ، وينبعث منها، عندما تنفث

هواءها، صوتٌ خافِتٌ يحاكي النحيب. كان كلٌّ من الوجه والصوت يوحي -بعض الشيء- بمثل هذا التَّشابُه البغيض. لكن يؤكِّد كاثكارت بعد ذلك بوقت طويل، في سعيه لوصف ما لا يوصف، أنه هكذا قد يبدو وجهٌ وجَسَدٌ قد مَكَثَا في هواءٍ مُخلخلٍ، زال عنه وزنُ الغلاف الجوي، حتى أصبح الهيكلُ بأكمله مُهدَّدًا بالتَّشظِّي إربًا وأن يصبح غَيرَ مُتماسِك...

كان هانك هو مَن دفع الأمورَ قُدُمًا، من دون كثيرٍ من الصَّخَب، على الرغم من أنه كان مذهولًا كُلِّيًا ويرتعد بقدرٍ كبيرٍ من الانفعال، لم يستطع أن يُعالِجَه أو يفهمه. انتقل إلى نقطةٍ تَبعُدُ قليلًا عن النار؛ كيلا يُبهِرَه الضَّوءُ كثيراً على ما بدا، وظَلَّل عينيه بكلتا يديه للحظَةٍ، صائحًا بصوتٍ مُرتَفِعٍ أثار الغضب والشفقة ممتزِجَيْن بشكلٍ مُروِّع:

- أنتَ لستَ ديفاجو! أنت لستَ ديفاجو على الإطلاق! أنا لا أهتم، لكن هذا ليس أنتَ، لستَ صديقي الذي أعرفه منذ عشرين عامًا!

حدَّق في الشخص المتكوِّم وكأنما سيُدمِّره بعينيه. أضاف باندفاعٍ عنيف من الرُّعب والتَّقزُّز:

- وإن كنتَ هو فسوف أمسح أرضيَّةَ الجحيم بقطعة قُطنٍ مَلفوفَةٍ على خلال الأسنان، ساعِدني أيُّها الرَّبُّ الرَّحيم!

كان من المحال إسكاته. لقد وقف يصيح مثل شَخصٍ مَمسوسٍ، من المروِّع رُؤيَتُه، ومن المروِّع سَماعُه، لأنها كانت الحقيقة. كرَّر نفسه بخمسين طريقة مختلفة، كُلُّ واحِدَةٍ منها أغرب من سابِقَتِها. رَدَّدَت الغابةُ الأصداءَ. بدا في وقتٍ من الأوقات وكأنه ينتوي أن يرمي بنفسه فوق "الدَّخيل"؛ إذ كانت يَدُه تنتفض بشكلٍ مُستمرٍّ نحو سكِّين الصَّيد الطويل في حزامه.

لكنه لم يفعل شيئًا في النهاية، وانتهت العاصِفةُ كُلُّها بالدموع بعد وقتٍ قصير للغاية. اختنق صوت هانك، وانهار على الأرض، وأخيرًا أقنعه كاثكارت، بطريقَةٍ أو أخرى، بالذَّهاب إلى الخيمة والتَّمدُّد في هدوءٍ. شَهِدَ ما تبقَّى من الأمر -بالفعل- من وراء قماش الخيمة، وكان وجهه الأبيضُ المرعوب يختَلِسُ النَّظرَ من خلال شقِّ مِصرَعِ باب الخيمة.

قام الدكتور كاثكارت بعد ذلك، يتبعه عن كَثبٍ ابنُ أخيه -الذي احتفظ بشجاعته حتى تلك اللحظة أكثر منهم جميعًا- وتقدَّم بهيئَةٍ حازِمَةٍ، ووقف أمام شبح ديفاجو المتكوِّم فوق النار. نظر إلى وجهه مباشرةً وتحدَّث. كان صوتُه صارِمًا في البداية:

- أخبِرْنا يا ديفاجو بما حدث، القليل فقط؛ كي نستطيع أن نتوصَّل إلى أفضل طريقة لمساعدتِكَ؟

هكذا سأله بنبَرةِ سُلطَة، تكاد تكون آمِرَةً. وفي تلك اللحظة، أصبحت آمِرَةً. على أن وَقْعَها تَغيَّر على الفور بعد ذلك؛ إذ أدار له الرجل وجهًا مُثيرًا للشَّفَقة، رهيبًا للغاية، وبعيدَ الشَّبه بالبشر. حتى أن الدكتور انكمشَ مُتراجِعًا وكأنَّما يبتعد عن شيءٍ مُلوَّث الرُّوح. يقول سيمبسون، الذي كان يُراقِبُ عن كثب من خَلفِه، إنَّه تولَّد لديه انطباعٌ بأن قناعًا كان على وشك السقوط، وأنهم سيكتشفون تحته شيئًا أسودَ وشيطانيًّا، ينكشف مُطلَقَ العُريِ. صاح كاثكارت برُعبٍ مضى كتفًا بكتفٍ مع التَّوسُّل:

- تكلَّمْ يا رَجُل، تكلَّم! لا يستطيع أيٌّ مِنَّا أن يحتمل أكثر من ذلك...!

لقد كانت صرخة الغريزة تعلو فوق المنطق.

حينذاك أجاب ديفاجو بابتسامَةٍ شاحِبَة وصوتٍ خافِتٍ وضعيف بدا بالفعل وكأنه يتحوَّل لصَوتِ شخصيَّةٍ أخرى تمامًا. همس مُستَنشِقًا الهواء من حوله كما يفعل الحيوان بالضبط:

- لقد رأيتُ ذلك الشيءَ الرَّائِعَ، ونديجو، كنتُ معه أيضًا.

ليس بوسعنا أن نعرف إذا ما كان الشيطان المسكين ليقول أكثر من ذلك، أو أن الدكتور كاثكارت كان ليواصل الاستجواب المستحيل، إذ سُمِعَ صوت هانك في تلك اللحظة يصرخ بأعلى صوتِه من خلف قماش الخيمة الذي كان يُخفي كُلَّ شيء سوى عينيه المرتعبتين. هذا العواء لم يُسمَع مثله قطُّ:

– قَدَمَيْه! يا إلهي، قَدَمَيْه! انظروا إلى قَدَمَيْه المتغيِّرتَيْن على نحوٍ كبير!

عندما اعتدل ديفاجو في مكانه، تحرك بطريقةٍ جعَلَت ساقيه تصبحان في الضوء التَّامِّ للمرَّةِ الأولى، وكانت قدماه مَرئيَّتَيْن. مع ذلك، لم يسنح الوقت لسيمبسون كي يرى، على نحوٍ صحيح، ما رآه هانك. ولم يَجِد هانك مُطلَقًا أنه من المناسب أن يخبر بما رأى. في تلك اللحظة نفسها، وبوَثبَةٍ تُشبِه وثبة النَّمر المذعور، كان كاثكرت فوقه، يُحكِم طيَّات البطانية حول ساقَيْه بسرعةٍ لم يَستَطِعْ معها الطَّالِبُ الشابُّ أن يلتقط سوى ما يزيد قليلًا عن لمحةٍ عابِرَةٍ لشيء قاتِمٍ ومُتكتِّلٍ بشكل غريب، حيث انبغى أن توجد القَدَمَيْن في حذائِهما الجِلديِّ، لكن حتى ذلك رآه رؤيةً غيرَ مُؤكَّدَةٍ.

ثم قبل أن يُتاح الوقت للدكتور لفعل المزيد، ولسيمبسون لأن يفكِّر حتى في سؤال، دَع عَنك طرحه، كان ديفاجو قد انتصب أمامهم واقفًا، يتوازَنُ بصعوبةٍ وألَمٍ، وقد ارتسم على وجهه المشوَّه والملتوي تعبيرٌ قاتِمٌ وشرِّير للغاية، لدرجة أنه كان وحشيًّا، بالمعنى الحقيقي للكلمة. قال بفحيح:

– الآن وقد رأيتموها أيضًا، رأيتم قَدَمَيَّ الناريَّتَيْن المحترقتين! والآن، ما لم تنقذوني وتمنعوا ذلك يا أصحاب، فقد أَزِفَ الوقت لـ...

قُطِعَ صوته البائس المتضرِّع بصوتٍ آتٍ عبر البحيرة يُشبِه عويل الرِّياح. هزَّت الأشجارُ أغصانَها المتشابِكَة بالأعلى. وقوَّست النَّارُ

المتأجِّجَـةُ ألْسِـنَةَ اللَّهَـبِ وكأنَّهـا توشِـكُ عـلى الانفجـار. واجتـاح شيءٌ مـا المخيَّـمَ الصغـير بضجيـج مُرعِـبٍ ومندفـعٍ، وبـدا أنـه سـيُحيط بـه تمامًـا في وَمضَـةٍ مـن الزَّمَـن. أزاح ديفاجـو البطانيَّـات المتشـبِّثة عـن جسـده، واسـتدار إلى الخلـف نحـو الغابـة، وذهـب بنفـس الحركـة المتعـثِّرة التـي أتى بهـا، ذهـب قبـل أن يتمكَّـن أيُّ شـخصٍ مـن تحريـك سـاكِنٍ ليَمنَعَـه، ذهـب بسرعـةٍ مُذهِلَـة ومُتخبِّطـة لم تُتِـحْ أيَّ وقـتٍ للتَّـصرُّف.

ابتلعـه الظَّـلامُ عـلى نحـوٍ أكيـد، وبعـد أقـل مـن عـشر ثـوانٍ، سـمع الرِّجـالُ الثلاثـة، الذيـن كانـوا يراقبـون ويُنصِتـون بقلـوبٍ واجِفَـةٍ، صرخـة عَلَـت فـوق جَلَبَـةِ الأشـجار المتأرجحـة وزعيـق الريـاح المفاجئـة، وبَـدَت بعيـدةً وكأنهـا تسـقط عليهـم مـن أعـالي السـماء:

- آه، آه! هــذا الارتفـاع النـاري! آه، آه! قدمـاي الناريَّتـان! قدمـاي المحترقتـان الناريَّتـان...!

ثم تلاشت في فضاء وصمت غير محدودين.

بالـكاد اسـتطاع الدكتـور كاثـكارت -الـذي سيطر عـلى نَفسِـه فجـأةً، وبالتـالي عـلى الآخريـن- أن يقبـض عـلى ذراع هانـك بعُنـفٍ أثنـاءَ مُحاوَلَتِـه الاندفـاعَ بتهـوُّرٍ إلى داخـل الغابـة. صـاح الدليـل بصـوتٍ مُرتَفِـع:

- لكننـي أريـد أن أعـرف... مَـن أنـت! أريـد أن أرى! ذلـك ليـس هـو عـلى الإطـلاق، لكـنَّ شـيطانًا مـا حَـلَّ محلَّـه...!

تَمكَّـن مـن إبقائـه في الخيمـة وتَهدِئَتِـه بطريقـةٍ أو بأخـرى، ويعـترف أنه لم يَعلَـم قَـطُّ كيـف أمكنـه أن يفعلهـا. بـدا أن الدكتـور قـد بلـغ المرحلـة التـي ظهـرت عندهـا ردودُ أفعالـه وسَـمَحَت لقوَّتـه الفِطريَّـة بالتفـوُّق. من المؤكَّـد أنـه نجـح مـع هانـك بشـكلٍ مُثـيرٍ للإعجـاب.كان ابـن أخيـه، الـذي خضـع للسـيطرة بشـكلٍ رائـع حتـى تلـك اللحظـة، هـو الـذي أثـار لديـه أسـبابَ القَلَـق؛ إذ نتـج عـن التوتُّـر المتراكـم، حينئـذٍ، حالـة مـن هيسـتيريا

البكاء أوجَبَت عَزْلَه، على فِراشٍ من الأغصان والأغطية، بعيدًا قدر الإمكان عن هانك في ظِلِّ هذه الظروف.

وهكذا نام، بينما مرَّت ساعاتُ تلك الليلة المسكونة بالرُّعب فوق المخيَّم المنعزل، يصيح في طيَّات غطائه ببعض الجُمَل الخائفة، ومَقاطِع من الجُمَل. اختلط قَدْرٌ من الهذيان عن السرعة والارتفاع والنار، بشكلٍ غريبٍ، مع ذكريات الكتاب المقدَّس من فصول الدراسة. "أناس ذوو وجوهٍ مُحطَّمَة أمسَكَت بهم النِّيرانُ قادِمون نحو المخيَّم بسرعَةٍ مُروِّعة للغاية!". قد يَئِنُّ في دقيقة، ويجلس في الدقيقة التالية ويُحدِّق في الغابة، ويصغي باهتمامٍ، ويهمس:

- كم هي رهيبة أقدامهم في البرِّيَّة حتى أنها...

إلى أن يأتي عَمُّه ليُغيِّر من وجهة أفكاره ويُريحَه.

ثبت أن الهيستيريا كانت مُؤقَّتَةً لحُسنِ الحَظِّ. تعافى بالنوم، تمامًا كما تعافى هانك.

حافظ الدكتور كاثكارت على يَقَظَتِه حتى لاحت العلامات الأولى لضوء النهار، بعد الساعة الخامسة بقليل. كان وجهه في لون الطباشير، وكان هناك احمرارٌ غريبٌ تحت عينيه. تَصارَعَ رُعبُ الرُّوح المروِّع مع إرادَتِه خلال هذه الساعات الصَّامِتة. كانت هذه بعض من العلامات الخارجية...

أشعل النَّارَ بنفسه عند الفجر، وأَعَدَّ الفطور، وأيقظ الأخرين، وبحلول السابعة كانوا في طريق عودتهم إلى المخيَّم الأساسي: ثلاثةُ رجال ذاهلين ومَفجوعين، لكن كُلٌّ منهم كان قد قَلَّص اضطرابه الداخليَّ بطريقته الخاصَّة إلى حالةٍ من النِّظام المَنهَجِ تقريبًا.



IX

تحدَّثـوا قليـلًا، وبعدهـا لم يتحدَّثـوا سـوى في أكـثر الأمـور حَـذَرًا وعموميَّـةً؛ إذ كانـت عقولهـم مَشـحونَةً بأفـكارٍ مُؤلِمَـةٍ تُطالِـب بالتفسـير، إلَّا أن أحدهـم لم يجـرؤ عـلى الإشـارة إليهـا. كان هانـك -بوصفـه أقـربَ إلى الحالـة البدائيَّـة- أوَّلَ مَـن وَعَـى بنفسـه؛ إذ كان أقـلَّ تعقيـدًا أيضًـا. في حالـة الدكتـور كاثـكارت دعَّمَـت "الحضـارة" قـواه في مُواجَهَـة هجـومٍ فريـدٍ بشـكلٍ كافٍ. ربمـا يكـون غـيرَ مُتأكِّـدٍ مـن أمـورٍ مُحـدَّدةٍ حتـى يومنـا هـذا. عـلى أيِّ حـال، اسـتغرق وقتًـا أطـول كي "يعـي بنفسـه".

كان سيمبسـون طالِـب اللاهـوت، هـو الـذي رتَّـب اسـتنتاجاته بأفضـل مظهـرٍ مـن التنظيـم، وإن لم يَكُـن الأكـثرَ عِلميَّـةً. هنـاك، في قلـب البَرِّيَّـة غـير المروَّضَـة، كانـوا بالتأكيـد قـد شـهدوا شـيئًا بدائيًّـا بشـكلٍ فَجٍّ وأسـاسيٍّ. شـيئًا قـد نجـا بطريقـةٍ مـا مِـن تَطـوُّر البشريـة وانبثـق بصـورة مُرعِبَـةٍ، كاشِـفًا عـن طبقـة مـن الحيـاة ظلَّـت وحشـيَّةً وغـيرَ ناضِجَـة. لقـد تصوَّرَهـا بالأحـرى كنظـرةٍ خاطِفَـة إلى داخـل عصـور مـا قبـل التاريـخ، عندمـا كانـت

الخُرافـات العملاقـة والفَجَّـة، لا تـزال تُثقِـلُ قلـوبَ البـشر، عندمـا كانـت طاقـاتُ الطبيعـة مـا زالـت غـيرَ مُروَّضَـة، والقـوى التـي ربمـا سَـكَنَت الكَونَ البـدائيَّ لم تكُـن قـد انسـحبت بعـدُ. يفكّـر، حتـى يومِنـا هـذا، فيـما اصطَلح عـلى تسـميته بعد سـنواتٍ في إحـدى المواعـظ "بالطّاقـات الوحشـيَّة الهائلة المستَتِرَة خلـف أرواح البـشر، ربمـا لا تكـون شرِّيـرةً بذاتهـا، لكنهـا عَدائِيَّـةٌ بالغريـزة تجـاه البشريـة إذا مـا تواجَـدَت".

لم يناقـش الموضـوعَ بالتفصيـل مـع عَمِّـه قَـطُّ؛ إذ أن الحاجـز بـين هذَيْـن النَّوعَـيْن مـن العقـول جعـل الأمـر صعبًـا. مـرَّةً واحـدة فقـط، بعـد مـرور سـنوات، قادَهـما شيءٌ مـا إلى حـدود الموضـوع، إلى تفصيلَـةٍ واحـدةٍ منـه عـلى الأحـرى. سـأله:

- أَلَا تستطيع حتى أن تُخبِرَني، ماذا كانت تُشبِه؟

وعلى الرغم من أن الرَّدَّ صِيغَ بِحِكمَةٍ، إلَّا أنه لم يكن مُشجِّعًا:

- من الأفضل بكثيرٍ أَلَّا تُحاوِلَ أن تعرف، أو تكتشف.

استمرَّ ابن الأخ في إصرار:

- حسنًا، وتلك الرائحة... ماذا ترى فيها؟

نظر الدكتور كاثكارت إليه ورفع حاجبيه، ثم أجاب:

- ليسـت الرَّوائِـحُ سَـهلةً مثـل الأصـوات والتواصُـل بـرؤى التَّخاطُـر. لا أرى فيهـا مـا يزيـد أو ينقـص، ربَّمـا، عـمَّا تـراه أنـتَ.

لم يكن سَلِسًا كعادته في التفسير. كان هذا هو كل شيء.

***

مـع الغـروب، وصـل أعضـاءُ الفريـق إلى نهايـة ترحالهـم، يشـعرون بالـبرد والإرهـاق والجـوع، وجـرُّوا أنفسـهم إلى المخيَّـم الـذي بـدا للوَهلَـةِ الأولى خاليًـا. لم تكُـن هنـاك أيُّ نـارٍ، ولم يكـن بانـك موجـودًا ليُقبِـلَ عليهـم

مُرَحِّبًا. كانت الطاقة العاطفية للثلاثة مُستَنزَفَةً بدرجَةٍ لم تسمح لهم أن يلاحظوا أيًّ من المفاجأة أو الانزعاج، لكن صرخة التأثُّر العفويِّ التي انطلقت من بين شَفَتَيْ هانك، وهو يتقدَّمُهم مُندَفِعًا في اتجاه مكان النار، ربما جاءت كتحذيرٍ من أن نهاية الأمر المذهل لم تكن قد أتت بعدُ. وقد اعترف كلٌّ من كاثكارت وابن أخيه -فيما بعد- بأنهما حين شاهداه يجثو في تأثُّرٍ على رُكبَتَيْه ويحتضن شيئًا مُضطجعًا، مُتحرِّكًا بوَداعَةٍ، بجانب الرماد المطفأ، شَعَرَا في أعماقهما أنه سيتَّضِحُ لهما أن هذا "الشيء" هو ديفاجو، ديفاجو الحقيقي، وقد عاد.

وهكذا كان الأمر بالفعل.

إنه قولٌ مُتسرِّع. كان الكندي الفرنسي -ما بَقِيَ منه- مُنهَكًا إلى درجة الهُزال، يتخبَّط بين الرماد، محاولًا إشعالَ النار. جَثَمَ جَسدُه هناك، تمتثل أصابِعُه الضعيفة بوَهَنٍ للعادة الغريزيَّة التي مارسها طيلةَ عُمرِه بالأعوادِ والثِّقاب. لكن لم يَعُد لديه أيُّ عَقلٍ لتوجيه العمليَّة البسيطة، لقد ذهب عَقلُه ولم يَعُد مُمكِنًا استعادَتُه. وذهَبَت معه الذاكرة أيضًا. ليست الأحداث الأخيرة وحدها، بل أصبحت حياتُه السابِقَة كُلُّها صفحةً بَيضاءَ.

كان الرَّجُلُ الحقيقيُّ هذ المرة، على الرغم من انكماشه بشكلٍ مُروِّع لا يُصدَّق. لم يكن هناك أيُّ تَعبيرٍ من أي نوع على وجهه، سواء كان خوفًا أو ترحيبًا أو تَعرُّفًا عليهم. لم يَبْدُ عليه أنه تعرَّف على الشخص الذي احتضنه، أو الذي أطعمه وأدفأه وتحدَّث إليه بكلمات الرَّاحة والمواساة. فعل الرَّجُلُ الضئيل كُلَّ ما طُلِبَ منه بخنوع، بائِسًا ومُنكَسِرًا، وبعيدًا عن مُتناوَلِ أيِّ عَونٍ إنسانيٍّ. كان الشيء الذي يجعل منه "شخصًا مُتفرِّدًا" قد اختفى إلى الأبد.

كان الأمر مُؤَثِّرًا، من بعض النواحي، بشكلٍ أكثرَ رهبةً من أي شيء قد رأوه من قبل. تلك الابتسامة البَلهاءُ وهو يستخرج حشوات

الطَّحالب الخشنة من وَجنَتَيْه المنتفختين ويخبرهم بأنه كان "آكِلَ طَحالِبَ مَلعونًا". القيء المتواصِلُ حتى من أبسط الطعام. والأسوأ من ذلك كلِّه، الصوت الشاكي الطُّفولي، المثير للشَّفَقة، الذي يخبرهم به أن قَدَمَيْه تؤلمانه -"تحرقان كالنَّار"- الأمر الذي بدا طبيعيًّا عندما فَحَصَهما الدكتور كاتكارت ووجدهما مُتجمِّدَتَيْن بشكلٍ مُخيف. كانت هناك علامات باهِتَة تحت العينين تُشيران إلى نَزيفٍ حديث.

إن التفاصيل الخاصَّة بنجاته من التواجُد لفترةٍ طويلة في العراء، والمكان الذي كان فيه، أو تلك الخاصَّة بالكيفية التي قطع بها المسافَةَ الكبيرة من مُخيَّمٍ إلى الآخر، بما في ذلك الالتفاف الهائِل حول البُحَيرَة -إذ لم يكن لديه قارب- بَقِيَ كُلُّ هذا مجهولًا. انمَحَت ذاكِرَتُه بشكلٍ تامٍّ. وقبل نهاية الشتاء الذي شَهِدَت بدايته هذا الحَدَثَ الغريب، تأقلَمَ ديفاجو مع تَجرُّده من العقل والذاكرة والروح. لم يَتخلَّف سوى بِضعَةِ أسابيعَ.

ما كان بوسع بانك أن يُسهِم به في القِصَّة، لا يُلقي عليها المزيدَ من الضَّوء. كان يُنظِّف السَّمَكَ على ضِفَّةِ البُحَيرَة في حوالي الساعة الخامسة مساءً، أي قبل ساعَةٍ من عودة فريق البحث، عندما رأى شبح الدليل، هذا، يشقُّ طريقه بوَهَنٍ إلى المخيَّم. وصرَّح أن نفحةً خفيفةً من رائِحَة مُتفرِّدة بعينها كانت قد سَبَقته.

في اللحظة نفسها عندما كان بانك العجوز يُغادِرُ المخيَّم عائِدًا إلى بيته. أَجْمَلَ رحلَةَ الأيَّام الثلاثة كامِلَةً كما لا يستطيع أن يُجمِلَها سوى شخصٍ مُتحدِّرٍ من دماء هنديَّة. مدفوعًا برُعبِ عِرْقٍ بأكمَلِه. كان يعرف ما يعنيه كلُّ ذلك: "لقد رأى ديفاجو الويندیجو".



الصفصاف و الونديجو

"وبمعزلٍ كامل عن عناصر الطبيعة، ربط الصفصاف نفسه بانزعاجي، على نحو بارع، مُهاجِماً العقلَ بشكلٍ مُخاتِلٍ إلى حَدٍّ ما، بفِعْلِ أعداده الهائلة، وساعِيًا -بطريقةٍ أو بأخرى- إلى تجسيد قُوَّةٍ جديدة وجبّارة أمام الخيال، هي فوق ذلك، ليست قُوَّةً وديَّةً تمامًا بالنسبة لنا"

الصفصاف

"كان ضوء الفجر الرمادي، الذي يسقط بن الأشجار باردًا وبرّاقًا، يكشف المشهد بشكل جيِّد قَدرَ الإمكان. انتصبت الخيمة وراءه مُشبعةً بالندى، بقي رمادُ النار القاتم دافئًا. كانت البحيرة بيضاءَ تحت طبقة من الضباب، ترتفع الجُزُرُ من داخلها داكِنَةً مثل عناصر مُغلَّفةٍ بالصوف. وبُقَعٌ من الثلج فيما وراء المساحات الأكثر وضوحًا من الدَّغل. كان كل شيء باردًا وساكنًا، ينتظر الشمس. لكن لا توجد في أيِّ مكانٍ علامةٌ على الدليل المختفي. إنه، بلا شكٍّ، مُستمرٌّ في الطيران ا بسرعة محمومةٍ عبر الغابات المتجمِّدة. لم يكن هناك -حتى- صوتُ خطوات الأقدام المختفية، ولا أصداء الصوت المحتضر. لقد ذهب تمامًا"

الونديجو



